DZC - 810 . 09/05

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

كلية الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

1578
2012

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية

بعنوان:

المناظرة في الأندلس
دراسة في الأشكال والمضامين

إعداد الطالبة :

بن منصور آمنة

إشراف الأستاذ:

أ.د. كروم بومدين

لجنة المناقشة :

- أ.د. عباس محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
- أ.د. كروم بومدين	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
- أ.د. نور الدين صبار	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
- أ.د. سلطاني جيلالي	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا مناقشا
- أ.د. باقي محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
- د. بن اعمر محمد	أستاذ محاضر(أ)	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
- د. محي الدين محمد	أستاذ محاضر(أ)	جامعة تلمسان	خبيرا

السنة الجامعية : 1432-1433هـ/2011-2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

الأنعام : 162-163

الإهـــداء

أهـــــــدي هذا العمل المتواضـــــــــع

❖ إلى والديّ الكريمين

❖ إلى ابني عبد الرحمن

❖ إلى التي تعلق الفؤاد بها، فهي قطعة منه ،

و هو منها قطعة : الأندلـــــس

كلمة شكـــر

الشكر موصول إلى أستاذي الفاضل الدكتور

كروم بومدين على توجيهاته و نصائحه القيمة

و كذا كل من ساعدني و قدم يد العون لـــــي .

مقـــدمة

بسم الله وحده و الصلاة و السلام على من لا نبي بعده ، و بعد

فقد مرّ الأدب الأندلسي بمراحل عديدة قبل أن يصل إلى مرحلة النضج و التفرد ، إذ كانت البداية تقليدا خالصا لنظيره المشرقي ، لا لقصور الأدباء الأندلسيين و عجزهم عن الإبداع ، و لكنْ لأن المشرق كان يمثل القبلة التي تتوجه إليها أفئدتهم ،غير أن الأيام كانت كفيلة بأن تثبت لهم أنهم في أرض غير أرض المشرق ، و بين ناس غير ناس الكوفة و دمشق ؛ هذه الحقيقة جعلت الأندلسي يكن حبا عجيبا لوطنه ، و تعلقا شديدا بأندلسه حتى أصبح الخروج منها ضربا من الشقاء و العذاب ، فعبر عن ذلك بأدب جادت به قريحته فأبدع من الشعر أجمله ، و من النثر أروعه .

و على الرغم من ذلك لا يزال بعض الدارسين يصر، إصرارا عجيبا، على أن الأدب الأندلسي ليس إلا امتدادا لنظيره المشرقي ، و إذا سلمنا جدلا بهذا الزعم ، فمعنى هذا أننا نسلم قطعا بخلو ثمانية قرون-بما فيها من أحداث و تقلبات- من أي إبداع أندلسي ، على الرغم من أن الإبداع موجود في كل زمان و مكان و لا يرتبط بأمة بعينها ، كما أنه ذو صلة وثيقة بالتحولات و التغيرات الطارئة على أحوال البلاد و العباد .

و إذا كان الشعراء الأندلسيون تأثروا في وقت ما بشعراء المشارق ، فإن الجانب النثري ظل غير معني كثيرا بتلك الحركة ، و قد يكون السبب

راجعا إلى أن النثر المشرقي ذاته كان لا يزال في مراحل النضج و التطور ، و لم يرسّخ بعدُ أرضية متينة يمكن أن تكون مصدر محاكاة . و لعل أكثر الفنون النثرية التي تنأى عن التقليد هي المناظرة ، ذلك أنها فن قائم بذاته ، يُرهن تطوره بكفاءة متناظريه لا ببراعة السابقين ، و هو الأمر الذي شدنا و دفعنا إلى محاولة الإبحار في هذا المجال ، و تقصي دُرره التي تشهد بحق على الذاتية الأندلسية .

و قد قسمت البحث إلى مدخل و خمسة فصول و خاتمة ، تحدثت في المدخل عن ماهية المناظرة ، و نشأتها و تطورها في المشرق ، و خصصت الفصل الأول للحديث عن المناظرات الدينية و قد قسمته بدوره إلى أربعة مباحث ، تناولت في الأول المناظرات المذهبية بين المالكية و الظاهرية و المعتزلة و الفاطميين ، و في الثاني المناظرات العقديّة ، و أما المبحث الثالث فخصصته لبحث المناظرات الشعوبية ، و تناولت في المبحث الأخير مناظرات الموريسكيين ، و هي على قلتها تعد وثيقة مهمة في التاريخ ، إذ تصور دفاع ما تبقى من مسلمي الأندلس عن دينهم حتى و هم خارج بلادهم .

أما الفصل الثاني فخصصته لمناظرات المدن و الأقاليم و قد تألف من مبحثين ،خُصص الأول لمناظرات المدن ، و الثاني للمناظرات الإقليمية ،

و أما الفصل الثالث فخصصته لبحث المناظرات الأدبية و الفلسفية ، و فيه مبحثان ، الأول : خاص بالمناظرات الفلسفية التي شحت مادتها بالنظر إلى نفور الأندلسيين في الغالب منها ، و خُصص الثاني للمناظرات الأدبية و تناولت فيه بالبحث المعارضات ،باعتبارها شكلا من أشكال المناظرة ، إضافة إلى الردود والرسائل النقدية و النحوية ، و خصصت الفصل الرابع لمناظرات الجمادات و النباتات ، و قد تفرع إلى مبحثين ،الأول: خاص بمناظرات الأشياء كالسيف و القلم و القصور ، و الثاني خاص بالنباتات أشجارا و أزهارا.و أما الفصل الأخير فخصصته للسمات الفنية ، و فيه مبحثان : خص الأول الجانب الشكلي و تضمن حديثا عن الاقتباس و الرمز و التشخيص و المحسنات البديعية ... و أما الثاني فكان خاصا بمضمون المناظرات و جوهرها و فيه وقفنا على الإشارات التاريخية و الحضارية و الدينية و الثقافية و السياسية للمناظرة.

و ذيلنا البحث أخيرا بخاتمة تضمنت أبرز النتائج المستخلصة .

و لا بأس أن نشير إلى عدد من الكتب التي أضاءت البحث تتقدمها أمهات الكتب الأندلسية كنفح الطيب و الذخيرة و الإحاطة و رسائل ابن حزم ، و مراجع كانت من الأهمية بمكان و على رأسها مؤلفات الأستاذ فوزي العيسى ، و كتاب المناظرة في أصول التشريع الإسلامي لمصطفى

الوظيفي ، دون أن أنسى الكتاب الذي أفدت منه كثيرا و هو المناظرات الخيالية للدكتورة رغداء ماردیني .

هذا و قد اعتمدت المنهج التحليلي منهجا رئيسا ، مع التوسل بالمنهج التاريخي ، و إجراءات المقارنة .

و مهما يكن فإن لكل بحث نصيبه من المثبطات التي توهن عزمه ؛ تعرقله حينا و تستوقفه أحيانا ،و لعل أهمها قلة المراجع، و أقصد بها تلك التي تتناول المناظرة الأندلسية فنا مستقلا ، فما وجدته كان مبثوثا هنا و هناك ، و يضاف إلى هذا ضياع بعض المناظرات ، فيما ضاع من تراث الأندلس الوفير،أو لأنها لا تزال حبيسة مخطوطات،و مع ذلك اكتمل البحث في صورته هذه بفضل من الله تعالى ،ثم بتوجيهات الأستاذ المشرف الذي تكبّد عناء القراءة و التوجيه غير مرة، و الشكر موصول كذلك إلى زميلي محمد صغير الذي أفدت من مكتبته الأندلسية كثيرا ، و قطعا لا يمكن أن أدعي الإحاطة بجوانب الموضوع كلها ، فالمناظرة و بالنظر لتعدد مترادفاتها مجال واسع ، و لكن يشفع لي أنني بذلت الوسع ، و الله أسأل التسديد و التوفيق .

آمنة بن منصور .

تلمسان في : 04 نوفمبر 2010 الموافق لـ : 27 من ذي القعدة 1431 هـ

مدخـــــــــــــل

المناظرة مقاربة تاريخية

1- المناظرة : المفهوم و التطور :

مفهومها : المناظرة لغة " من النظر و معناه تأمل الشيء و معاينته "،[1] و المناظرة " المباحثة و المباراة في النظر و استحضار كل ما يراه ببصيرته في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب .[2] و التناظر " التراوض في الأمر ، و نظيرك الذي يراوضك "[3] .

" و المقصود من المناظرة إما أن يكون قطع الخصم فقط و إظهار الغلبة كيف كان ، أو إظهار الحق فقط كيف كان ، أو هما جميعا "[4] .

و كثيرا ما تختلط المفاهيم بين المناظرة و الجدال ، و السبب في ذلك أن " المناقشة قد تكون في بدايتها مناظرة ثم تنقلب جدلا ، و ربما يتطور الأمر إلى مكابرة ، و يكون الغرض منها اجتياز المجلس و الشهرة "[5](*) ،

و يذهب الأستاذ طه عبد الرحمن إلى أن " كل خطاب استدلالي يقوم على المقابلة و المفاعلة الموجهة يسمى مناظرة "[6](**) .

و يمكن القول إن الجدل جزء لا يتجزأ من المناظرة ، فهي لا تقوم إلا على

1- معجم مقاييس اللغة : ابن فارس : 5 : 444
2- ينظر : المفردات في غريب القرآن للأصفهاني : 497 و التعريفات للجرجاني : 231-232
3- لسان العرب : ابن منظور : مادة [نظر]
4- علم الجدل في علم الجدل : نجم الدين الحنبلي – تح : قولفهارت هاينريشس : 07
*- " فإذا اشتدت خصومة المتجادلين ، و آثر كل منهما الغلبة بدل الحرص على ظهور الحق و وضوح الصواب ، و تعذر أن يقوم بينهما تفاهم أو اتفاق ، سميت تلك الحالة بالشقاق " – أدب الاختلاف في الإسلام : طه العلواني : 25
**- هناك تسميات أخرى للمناظرة كالمفاضلة و المجادلة و المحاججة و المناقشة و المنازعة و المجالسة و المطارحة و المساجلة و المعارضة ..- ينظر : في أصول الحوار و تجديد علم الكلام : طه عبد الرحمن : 69
5- تاريخ الجدل : محمد أبو زهرة : 05
6- في أصول الحوار و تجديد علم الكلام : 66

أساسه ، خاصة إذا وقعت بين شخصين متواجهين مختلفين في المذهب و الاتجاه كما هو شأن المحاورات الدينية .

و المناظرة نوعان : واقعية تصور الواقع ، و متخيلة أو خيالية و هي ما يجري على ألسنة غير البشر . هذا و لابد من توافر بعض الشروط حتى تسمى كذلك و هي :

- المرسل : شخصية المحاور أو المناظر الذي يدير عملية الحوار .

- المستقبل : شخصية الطرف الآخر للمناظرة .

- بيئة الرسالة : توفر الجو الهادئ للتفكير المستقل .

- مضمون الرسالة الاتصالية : معرفة المتناظرين لمضمون المناظرة .

- أسلوب الحوار:مناهج الاتصال و أدواته و القواعد و الهدف من المناظرة

غير أن هذه العناصر قد تكون متوفرة جميعا ، و قد لا تتوفر كلها لاسيما في المناظرات غير المتزامنة .

و كما أن لكل فن قواعده ، فإن للمناظرة كذلك أسسا و ضوابط و آداب تحكمها و تقيدها و هي كالآتي :

- التقيد بالقول المهذب ، و الابتعاد عن الطعن و التجريح .

- التخلي عن التعصب لوجهة نظر سابقة،و تجنب منهج التحدي و الإفحام.

- التزام الطرق الإقناعية الصحيحة،و سلامة المناظر و دليله من التناقض.

- عدم الطعن في أدلة الخصم إلا ضمن الأمور المبنية على المنطق السليم .

- التسليم بالقضايا التي تعد من المسلمات ابتداء .

- قبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة و المرجحة .[1]

هذه الشروط تزيد و تنقص بحسب الفريقين المتناظرين ، و طبيعة اتجاهاتهم و اعتقاداتهم و نزعاتهم ، و لكن الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن هناك شروطا ثلاثة لابد أن تتوفر في كل مناظرة و هي : وجود خصمين متضادين ، و أن يأتي كل خصم بما يظنه كافيا لدحض حجج غريمه ، و أخيرا أن تصاغ المناظرة بأسلوب شيق و لطيف .[2]

2- النشأة و الأشكال :

أ- في المشرق :

لا ينكر أحد أن الإنسان ،و منذ فجر التاريخ، مرتبط بربه مخلص لدينه ، أيا كان هذا الدين أو ذاك الإله[*] ، حتى إذا عرض أو فرض عليه التغيير ثار و استنفر قواه لمحاربة هذا البديل ، فلا عجب إذًا أن تكون أولى المناظرات تلك التي اكتست طابعا دينيا بحتا .

فما من نبي أرسل إلا و جادله قومه فأكثروا الجدال ، فنبي الله إبراهيم –

1- ينظر : أدب الحوار و المناظرة : علي جريشة : 67 ، و كذلك : أصول الحوار و آدابه في الإسلام : صالح بن عبد الله بن حميد : 14 و ما بعدها .

2- ينظر : مناظرات الأنكياء و محاورات البلغاء : سيد صديق : 45

*- آمن الإنسان البدائي بقوة خفية مؤثرة في الحياة ، و ذلك بدافع الدهشة أو الخوف – ينظر : من المنظور الإسلامي : محمد الكتاني : 16

عليه السلام – حاجه النمرود و ادعى الألوهية ، قال تعالى :" ألمْ ترَ إلـــى الذي حَاجّ إبْراهِيمَ في ربّه أنْ آتاهُ اللهُ المُلْك إذْ قالَ إبرَاهيمُ ربّي الـــــذي يُحْي و يمُيت قالَ أنا أحْي و أمِيت قالَ إبراهيمُ فإنّ اللهَ يأتي بالشمْس منَ المشرقِ فأتِ بها مِن المغْرب فبَهُتَ الذي كَفَر و اللهُ لا يَهدي القَـــــومَ الظالمينَ "[1] ، وهنا " انتقل الذي كفر من القدرة على المواجهـــــــة إلى مفاجأة الدهشة ، هذه هي الصورة الأولى ، و من المفاجأة و الدهشة انتقـــل إلى التحير ، لأنه يبحث عن مخرج لنفسه ..و هكذا تلقى النتيجـــــة و هي الهزيمة "[2] ، و لئن كانت هذه محاورة إلا أن جميع شروط المناظرة متوفرة فيها و هي :

* الموضوع : إثبات الألوهية * المرسل : إبراهيم * المستقبل : النمـــرود * الحوار:أدلة و براهين الطرفين * النتيجة :تغلب المُرسِل على المُستقبل .

و لكن ما حكم الشريعة الإسلامية في المناظرة ؟ أ هو القبول المطلق ، أم الرفض القاطع ، أم القبول بتحفظ ؟

الواقع أن حكم الشريعة واضح ، فالأصل في الأمور الإباحة إلا ما خالفها، و قد " سجل لنا القرآن الكريم طرفا من هذا النوع الذي يعتمد في جوهـــره على الجدل العقلي الذي يمكن أن يعد نبتة إسلامية في الأدب العربي إذ كان

1- سورة البقرة : الآية : 258
2- الحوار في القرآن الكريم : معن محمود عثمان : 52

هذا الجدال يقوم على مجموعة من المبادئ العقلية التي يسلم بها الخصم نفسه ثم يوظفها في إقناعه برأيه أو وجهة نظره "[1] ، و الشريعة الإسلامية لم تطلق العنان للجدال بل حددته بشروط ، و من ثمّ يمكن تقسيم المناظرة إلى مشروعة و غير مشروعة[*] ، فمن المناظرة المشروعة ما أمر الله به نبيه من دعوة أهل الكتاب إلى دين الله ، و أن يجادلهم بالحسنى إذ يقول تعالى " وَ لا تجادلوا أهْلَ الكِتابْ إلاّ بالتِي هِي أحْسَن "[2] ، ويقول أيضا " ادْعُ إلى سَبيل ربّكَ بالحِكْمَة و الموْعِظةِ الحسنَة و جَادِلهُمْ بالتي هيَ أحْسَن "[3] .

فالقرآن الكريم يبيّن أن المناظرة المشروعة هي تلك التي يكون الغرض منها إعلاء كلمة الحق على الباطل لا الجدال العقيم[**]،و يحيلنا هذا إلى القول بأن المناظرة الإسلامية ظهرت قبل وفاة النبي عليه الصلاة و السلام ، و ليس بعدها ، إذ كانت جارية في عصره على نحو واسع كما كان شأنه عليه الصلاة والسلام مع النصارى و اليهود و مشركي العرب ، و على سبيل المثال نشير إلى المناظرة التي جمعته مع نصارى نجران الذين

1- تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية : محمود المقداد : 88

*- المناظرة غير المشروعة هي تلك التي يقصد بها التعالي و المكابرة لمجرد الجدال لا أكثر .

2- سورة العنكبوت : الآية : 46

3- سورة النحل : الآية : 125

**- القرآن الكريم يريد للإنسان أن يحصل على القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة و البرهان في إطار الحوار الهادئ العميق ، و يجعل من ذلك الحوار بديلا للمقارعة بالحديد و النار ، تلك المقارعة التي تسحق فيها الطاقات و تهدر الإمكانات – منهجية الحوار في القرآن الكريم : محمد عبد اللطيف رجب ، مجلة الشريعة و القانون ، العدد 35 ،2008 الإمارات .

كانوا يؤلهون عيسى عليه السلام،و مما جاء فيها - " قال النبي عليـــــه الصلاة و السلام : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أبـــــاه؟

- قالوا : بلى .

- قال : ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت ، و أن عيسى يأتي عليه الفناء ؟

- قالوا : بلى .

- قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يكلأه و يحفظه و يرزقه ..

فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟

- قالوا : لا .

... فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا " [1] .

و المناظرات من هذا القبيل كثيرة ، فالنبي عليه السلام أوتي جوامع الكلم ، و ما تصدى له أحد إلا رجع خائبا ، فالمناظرة في عهده – عليه الصـــلاة والسلام – كانت محسومة منذ البداية .

و يبدو أن المناظرات الدينية ظلت غالبة حتى بعد استتباب الأمـــــور للمسلمين ، وقد عرفت أوجّها مع ظهور المعتزلة " و هو أول ظهور أثـــر إلى حد كبير في تطور الصراعات المذهبية و الدينية التي قامت بين الفرق الإسلامية " [2] ، و قد بدا أثرها قويا " في الولوع بالجدل و الحوار، و صـدى

1- نصارى نجران بين المجادلة و المباهلة : 76-77

2- المناظرة في الأدب العربي و الإسلامي : حسين الصديق : 31

ذلك واضح في تحول الهجاء القبلي إلى نقائض أقرب إلى المناظرات منها إلى الهجاء الجاهلي ، و هذه النقائض تشبه مناظرات الفرق الإسلامية و السياسية في آرائها الفقهية أو نزعاتها الجدلية "[1](*) .

و إلى جانب المناظرات الدينية ظهرت مناظرات أخرى تعدد أبطالها و موضوعاتها ، حتى ليخيّل أن الإنسان جبل على المناظرة و أنها فيه فطرة و سليقة ، ذلك أن المناظرة لم تختص بفئة معينة من المجتمع ، أو بحلقات العلم و مجالس التعلم فحسب، فنحن نجدها تجري في بيوت الناس بين المرء و زوجه ، على نحو ما حدث بين أبي الأسود الدؤلي و زوجته اللذين احتكما إلى زياد والي البصرة حول حضانة ولد لهما ، و بعد مناظرة شيقة تغلبت فيها حجج المرأة على زوجها ،حكم زياد لها[2] .

و من المناظرات التي وردت عن الكُتاب ما كتبه الجاحظ في المفاضلة بين الغلمان و الجواري ، و مما جاء فيها :

- قال صاحب الغلمان : إن من فضل الغلام على الجارية أن الجارية إذا وصفت بكمال الحسن قيل : كأنها غلام .. قال الشاعر يصف جارية :

لها قدُّ الغُلامِ و عَارضَاهُ ** و تَفْتيرُ المبَتّلة اللعُوب

1- الأدب المقارن : محمد غنيمي هلال : 259-260

*- " و ربما سالت بسببها الدماء .. كالمناظرة في خلق القرآن التي أثارها المأمون و استباح فيها الأذى لعظماء العلماء " – مناظرات الأذكياء : 15

2- ينظر : الأمالي : القالي : 2 : 12

- قال صاحب الجواري : قد ذكر الله جل جلاله الحور العين أكثر مما ذكر الولدان .. و ريح الجارية أطيب ، و ثيابها أعطر ، و مشيتها أحسن ، و نغمتها أرق "[1] ، و مضى الفريقان في عرض أشعار الشعراء ممن شببوا بالجواري و أشادوا بالغلمان ، على أن الغلبة في هذا كانت لصاحب الجواري ؛ إذ إن مدحهن و وصفهن مقبول ،كيف لا و قد أثنى كعب بن زهير على سعاد على مسمع من الرسول عليه السلام ؟[*] على حين أن وصف الغلمان و التغزل بهم أمر مشين .[2]

و من المناظرات ما كان السبب في علو قوم على قوم، فقد " شجر بين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمذاني و علو أمره .. إذ لم يكن في الحسبان أن أحدا من الأدباء ... ينبري لمباراته ، فلما تصدى الهمذاني لمساجلته .. و جرت بينهما مكاتبات و مباهاة و مناظرات ..و جرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكمين .. طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، و ارتفع مقداره عند الملوك و الرؤساء "[3] .

و لسنا هنا بصدد التأريخ للمناظرة في المشرق ، و لكن الضرورة تقتضي هذا ، ذلك أن المناظرة المشرقية ألقت بظلالها على نظيرتها

1- رسائل الجاحظ : الجاحظ : 1 : 76-77

*- أنشد كعب بن زهير النبي عليه السلام قصيدة البردة مستهلا إياها بمطلع غزلي فقال :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول *** متيم إثرها لم يجز مكبول – الديوان : 84

2- ينظر : رسائل الجاحظ : 1 : 85 و ما بعدها .

3- يتيمة الدهر : الثعالبي : 4 : 295

الأندلسية ، إلى حد ما ، زيادة على عامل الأسبقية .

و من المناظرات ذات الطابع الفلسفي تلك التي جرت في مجلس " الوزير أبي الفتح جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافي و أبي بشر متّى،و منها:

- قال أبو سعيد : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟

- قال متّى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، و فاسد المعنى من صالحه كالميزان ..

- فقال أبو سعيد : أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف و الإعراب المعروف .. و فاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل" .(1)

كان متّى متعصبا للمنطق اليوناني ، و كان السيرافي يجادله في ذلك و يرد عليه و يكثر من تخطيئه ، و إفحامه بالحجج الدامغة مغلبا علم النحو واللغة على منطق متّى .

و لا نغادر هذا الباب دون الإشارة إلى مناظرات من نوع آخر ، تلك التي اختصت بالأشياء و الجماد ، و هي ما تعرف بالمناظرات الخيالية(*) التي تتسم غالبا بطابع المفاخرة و هو " في الإنشاء العربي واسع ، و قد تفنن الكتبة فيه فنطقوا بلسان الأزهار و العلوم و أدوات الملك و غير ذلك ،

1- الامتاع و المؤانسة : أبو حيان التوحيدي : 114

*- يرجع أ / محمد غنيمي هلال أصل هذا النوع من المناظرات إلى الفارسية – ينظر : الأدب المقارن :261

وكل هذه المفاخرات من قبيل الرسائل الأدبية و هي تجري على وتيـــرة واحدة من حيث المحاورة في وصف المفاخر الذاتية ، و التزام السجـــع و البديع "[1] ، و من تلك المناظرات ما جرى بين القنديل و الشمعدان ،هـــذا الأخير وقف وقفة الواثق من نفسه العارف لفضله ، فهو يفاخر بأنه جليس الملوك ، إليه تصوب الأنظار و تستحسنه الأبصار ، أما القنديل ففخـــر بمجالسة العلماء و الزهاد و يكفيه ذلك فخرا و علوا ، و بعد أخـــذ و رد انتهت المناظرة بجنوح الشمعدان إلى السلم و اعترافه للقنديل بالفضل ، ثم إن هذا الأخير طيّب خاطر غريمه ، و دعاه لطي بساط المنافسة و إخـماد شر المقابسة[2] .

هذا غيض من فيض مما كان جاريا في المشرق من مناظرات مســت جوانب الحياة كلها ...

فهل للمناظرة في الأندلس نصيب ؟ و هل عرفت ذيوعا و انتشـارا ، أم كانت مجرد محاولات لم ترق إلى نظيرتها المشرقية ؟ و هل ناظـــر الأندلسي بدعوى تقليد المشارقة ، أم أن الظروف هي التي دعته إلى ذلك ؟

هذا ما سنحاول إضاءته في ما يأتي ...

1- تطور الأساليب النثرية : أنيس المقدسي : 336

2- ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين النويري : 1 : 126 و ما بعدها .

ب- المناظرة في الأندلس :

إننا إذ نقول إن الأندلسيين تأثروا بأدب المشرق و قلدوه في أغراضه و فنونه -في أول عهدهم - لا نكون قد خرجنا عن جادة الصواب، فهو أمر معروف غير منكر، و قد شهد شاهد من أهلها فقال"إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب،أو طن بأقصى الشام و العراق ذباب لجثوا على هذا صنما،و تلو ذلك كتابا محكما " .(1)

و لئن قلد الأندلسيون المشارقة في شعرهم بشتى أغراضه (*)، إلا أنه لم يكن لهم حظ واضح في النثر لا تقليدا و لا إبداعا ، لاسيما في السنوات الأولى للحكم الأموي إذ " لم يكن للكتابة الفنية مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين في الأندلس ، لأن الحال السياسية و الاجتماعية لم تكن استقرت بعد ، فلم يكن هناك ما يساعد على نمو الكتابة في الموضوعات الاجتماعية أو الخيالية أو الفنية " .(2)

و مما لا يختلف فيه اثنان أن العصر الذهبي للكتابة الفنية إنما كان في عهد الخلافة و ملوك الطوائف ، حيث شهدت " نهضة فذة و سلكت مسلكا جديدا في أغراضها و معانيها و أسلوبها ".(3)

1- الذخيرة في محاسن الجزيرة : ابن بسام الشنتريني : 1 : 3-4

*- كثرت معارضة الأندلسيين للمشارقة كمعارضة ابن شهيد لأبي نواس و ابن دراج للمتنبي و ابن الخطيب لأبي تمام .. ـ ينظر : المعارضات في الشعر الأندلسي : إيمان السيد : 321 و ما بعدها .

2- الأدب الأندلسي : التطور و التجديد : عبد المنعم خفاجي : 600

3- نفسه : 602

و إذا كانت المناظرة قد عرفت في المشرق حضورا ، فإنها في الأندلس لاقت رواجا واسعا ، و السبب واضح ، فأساس المناظرة : التباين و الاختلاف ، و قد وجدت في المجتمع الأندلسي بيئتها الخصبة ؛ مجتمع يضم أجناسا كثيرة ، ومعتقدات مختلفة ، و عادات متباينة .

و جدير بالذكر " أن علماء الأندلس لم يعرفوا المناظرة في العقود الأولى من دخول الجزيرة ، و ذلك راجع لانشغال المسلمين بمهمة توطيد السلطة الإسلامية ، و راجع أيضا لعدم اتساع معرفة الإسبان باللغة العربية معرفة تخولهم الاطلاع على الفكر الإسلامي "[1]، و لكن الأمور اختلفت بعد أن استتب الحكم للمسلمين الفاتحين الذين انصهروا مع المسلمين الجدد و المستعربين .

و قد تعددت دواعي المناظرة فتارة كان مبعثها إثبات الوجود كما كان حاصلا بين الأندلسيين و المشارقة ، و تارة إثبات الاختلاف بين البداوة و الحضارة كما كان شأنهم مع المغاربة[2] .

و من دواعي المناظرة أيضا الأوضاع السياسية التي وفرت جو التنافس بين الملوك و الأمراء الذين سعوا لاحتضان الأدباء و الشعراء[*] ، و قد

1- – نقلا عن مقال للدكتور عبد الله بن إبراهيم العسكر ، قسم التاريخ بكلية الآداب ،جامعة الملك سعود ، الرياض ، 22 مارس 2008: موقع الجامعة : faculty.ksu.edu.sa/834/pages/topica cd6 aspx

2- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : محمد رضوان الداية : 06

*- كان من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلانا العالم عند فلان الملك و فلانا الشاعر مختص بفلان الملك ، إلا أن المعتمد بن عباد بزهم جميعا ، فما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع في بابه من أعيان الأدب – ينظر : ، و تاريخ الوزراء و الشعراء لابن خاقان : 69 ، و تاريخ آداب العربية للرافعي : 3 : 280

اهتموا بالمناظرة اهتماما بالغا ، لما لها من أهمية في الحيـــــــــــاة السياسية ، متخذين إياها معولا لنصرة مذاهبهم و قضاياهم الفكريـــــــة والمذهبية .

و روايات جلوس الوزراء و الأمراء للمناظرة كثيرة ، كجلســـــــــــة أحمد بن هود لسماع مناظرة المؤتمن و الباجي حول موضوع فلسفـــي ، و جلسة ابن رشيق ولي ميورقة لمناظرة ابن حزم للباجي ، و جلســـــة المعتصم بالله لمناظرة الفقهاء حول التفسير و الحديث (1) .

كما كانت هناك مناظرات أخرى لم يكن طرفاها من ملة واحدة ، بل كان الطرف الآخر يهوديا أو نصرانيا ، و هذا النوع من المناظرات نحا بها – في الغالب – منحى حوار الأديان ، و لئن اتسمت هذه المناظرات جميـعا بالحدة و الجدة ، فإن هناك بالمقابل مناظرات اتسمت بهدوء أكثر، تلك هي المناظرات الأدبية و الخيالية .

و المتتبع للمناظرة الأندلسية سيجدها قد لامست جوانب من الحياة متعددة على غرار نظيرتها المشرقية ، بل سيجدها في كثير من الأحيـــــــــان متفوقة عليها في تجاوزها مستوى التفاخر و التفاضل إلى حوار الأديـــان حينا ، و الذود عن حمى الإسلام حينا آخر ...

1- ينظر : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : مصطفى الوظيفي : 14

الفصل الأول

المناظرات الدينية

عرفت المناظـرة في الأندلس- و بوجـه خاص الواقعـي منها- ذيوعـا و انتـشارا علـى غـرار نظيـرتهـا المشرقـية ، إلا أن المناظـرة الأندلسيـة اكتست طابعا خاصا يميزها عن سابقتها ؛ فالأرض مختلفة و البيئة كـذلك(*) ، و طبيعة الحكم و فتراته تخالف تلك التي عرفها المشارقة ، زد على هـذا وجود العنصـر الإسبـاني النـصراني جنبـا إلى جنـب مع نظيره المسلـم ، يتقاسمون أرضا واحدة ، و كل واحد يتوجس خيفة من الآخر .

فكيف يقال إن المناظرة الأندلسية هي امتداد للمشرقية ؟ و كيف يقال إنـها مجرد نسخ و سلخ و تقليد ؟ كيف يقال هذا و الظروف مختلفة و الأحـوال متباينة ؟

تتنوع المناظرة الواقعية بتنوع مواضيعها ، كالدينية و الفلسفية و الأدبـية ... وسميت كذلك لملامستها الواقع ، و لتعبيرها عنه كما هو دون الحاجة إلى الخـيال و الرموز، و لأن أبطالها هم من البشر على اختلاف مناهلهم و مشاربهم .

أما دواعيها فمختلفة كذلك، فمن إثبات التفوق ، إلى الذود عن الدين ،إلى إظهـار البراعة، فالاعتزاز بالوطن و هلم جرا ...

*- إن الموقع البعيد المنعزل للأندلس هيأ لها الفرصة لأن تتخذ لنفسها في وقت مبكر طريقا مستقلا عن الدولة الإسلامية العامة ، و يعود ذلك إلى سنوات قليلة بعد الفتح ، فلا نجد في مصادرنا خبرا عن إرسال الأندلس مالا إلى حاضرة الدولة ، مع ما يدخلها من ثروات عظيمة – ينظر : الخصوصية الأندلسية و أصولها الجغرافية : عبادة كحيلة : 11

و نحن لا نقصد بالمناظرة الدينية ما كان جاريا بين الأديان المختلفة فحسب ، بل كل ما له علاقة بالدين بالنظر إلى تعدد المذاهب و المدارس .

(*)

المبحث الأول : مناظرات مذهبية :

ذهب أكثر الدارسين إلى القول إن " شعب الأندلس شعب متدين ، و المنفلتون فيه من ربقة الإيمان قلة و هم لتدينهم يجلون علماء الدين و يحترمونهم ، و يعظمون الفقهاء و يوقرونهم " (**)(1) .

و قد ولع الأندلسي بالتفقه في الدين و مناظرة غيره في ذلك ،" فقد كان الفقهاء يتمنون الجلوس قصد المناظرة لما في ذلك من الفوائد العلمية ، و تبادل الآراء الفقهية والاطلاع على الاجتهادات العقلية المشفوعة بالدليل الشرعي " (2) ، و من هؤلاء المناظرين مثلا " أبو الحسن النباهي الذي ألف بحثا في مسألة الدعاء بعد الصلاة رام فيها الرد على الشيخ الإمام أبي الحسن الشاطبي " (3) . و لا يمكن بأي حال أن نتحدث عن المناظرة المذهبية

---

*- كثرت المناظرات المذهبية في المشرق كمناظرة محمد بن داوود الظاهري (297هـ) و أحمد بن سريج البغدادي الفقيه الشافعي (306هـ) و مناظرة أبي الحسن الأشعري (324هـ) و محمد بن عبد الوهاب المعتزلي (303هـ) – ينظر : مناظرات الأنكياء : 133 و ما بعدها .

1- الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه : مصطفى الشكعة : 73

**- من مظاهر تدينهم الإسراع في " إقامة الحدود و إنكار التهاون بتعطيلها ..و قد يلج السلطان في شيء من ذلك فلا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد .. حتى يخرجوه من بلدهم ، و هذا كثير في أخبارهم " – ينظر : Chestomathia arabica , grammatica historica , Georg.Guil .Freytag Dr. Bonnae ad Rhenum .Venditur Lipsaie. Apud C . Cnoblolch : 145

كما كان الأدب الأندلسي أيضا يتنفس في جو من التشبع الديني و هو ما يظهر في أشعار الزهاد و الأتقياء – ينظر : دراسات في الأدب الأندلسي : إحسان عباس : 10

2- المدرسة المالكية الأندلسية : مصطفى الهروس : 364

3- ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية : عبد الحميد عبد الله الهرامة عن مقال الصراع الفكري و انعكاسه على الشعر الأندلسي : 79

دون الإشارة إلى المدرسة المالكية التي سيطرت على الساحة .

فقد " ظل أهل الأندلس على رأي أبي عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام منـــــذ الفتح الإسلامي ، إلى أن رحل جماعة من أبناء الأندلس من أجل الحـــــــج و طلب العلم ، فالتقوا بالإمام مالك بن أنس فسمعوا منه ، و أخذوا عنـــــــه كتاب الموطأ قبل الانتهاء من كتابته " (1) ، و لما رجعوا لبلادهم نقلوا مـــا رأوه من علم الإمام مالك فالتف الناس حولهم ، و لعل انتشار المذهب المالـــــكي في الأندلس مرده إلى شخصية الإمام نفسه و موطن نشأة المذهـــــــب (*) ، و ملاءمته لطبيعة أهل المغرب و الأندلس ، و مساندة السلطة لرجاله (2) .

و يذهب بعض الباحثين إلى أن المذهب الأوزاعي سقط لضعفه الجدالـــــي ، و عجز أصحابه عن مناظرة المالكية (3) .

و كما عني المالكية في المشرق بالمناظرة عني بها كذلك مالكية الأندلـــــس (**) .

و قد ظل المذهب المالكي مذهب العامة و الخاصة إلى أن ظهر من يخالفـــه علنا ، ذلك هو ابن حزم الظاهري (ت 456هـ) (4) الذي كان " يشهد المهازل التـــي

1- المدرسة المالكية : 37 و ما بعدها

*- الإمام مالك من المدينة المنورة و هي مدينة مباركة .

2- ينظر : المدرسة المالكية : 62 و ما بعدها .

3- ينظر : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : 21

**- الغاية من المناظرة التعليمية التدريب على الفتوى ، و الحصول على المهارة في استنباط الأحكام الفقهية – ينظر : فقهاء المالكية دراسة في علاقاتهم العلمية في الأندلس و المغرب : علياء هاشم : 128

4- وصفه ابن خاقان بأنه فقيه مستنبط و نبيه بقياسه مرتبط ما تكلم تقليدا و لا تعدى اختراعا و توليدا – ينظر : مطمح الأنفس : 279 و قال عنه عبد الواحد المراكشي :" أشهر علماء الأندلس و أكثرهم ذكرا في مجالس الرؤساء و على ألسنة العلماء و ذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب و استبداده بعلم الظاهر "- المعجب : 37

تجري على مسرح السياسة الأندلسية باسم الشريعـــة ... [و كـــان يرى] أن هذه الموبقات و المفاسد .. إنما وقعت لتجاوز النصوص الشرعية و تأويلـــها و الأخذ بالقياس و الرأي الشخصي .. فاختار الدراسة الفقهيـــة فـــي أول منزلة ، ثم آثر مذهب الظاهريين – نفاة القياس و التعليل و التقليد و التأويـــل – و بقي يصارع في سبيل مذهبه هذا مؤمنا به إيمانا لا يتزعزع "[1] .

و حيث إن كل جديد يكون مرفوضا بداية ، فإن مذهب ابن حزم لم يلـــق كبير ترحيب من الأندلسيين ، بل لاقى إنكارا و نفورا[*] ، خاصـــة و أن المذهب المالكي كان قد تمكن منهم ، و لعل أكثر الذين تصدوا له أبو الوليـــد الباجي (ت 474 هـ) في مناظرات طار ذكرها في الآفاق .

أ ـ مناظرات الباجي و ابن حزم :

ذكر بعض المؤرخين[**] أن الباجي و ابن حزم جمعتهما مناظرات كثيـــرة ، بل لعل أشهر المناظرات الفقهية التي دارت في الأندلس هي تلك التي كانـــت بينهما[***] ، فقد نشر ابن حزم مذهبه " في جزيرة ميورقة و أحدث ضجـــة

1- ابن حزم رائد الفكر العلمي : عبد اللطيف شرارة : 66

*- من الأسباب التي جعلت الناس يعارضون ابن حزم اعتماده المنطق الذي يراه الأندلسيون خروجا عن الدين،و عنه قيل :

و قد كان ابن حزم في ضلال ** يقول بقولهم و يدين دينـــا
متابعة لفلسفـــــة و كفر ** و ردا للشرائع أجمعيـــــنا

– ينظر : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : مصطفى الوظيفي : 150

**- ينظر وفايات الأعيان : 3 : 327

***- من المناظرات الطريفة التي جرت بينهما أن الباجي قال " أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته و أنت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، و طلبته و أنا أسهر عليه بقنديل .. فكان جواب ابن حزم .. إنما طلبت العلم و أنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، و أنا طلبته .. فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا و الآخرة ، فأفحمه "- ابن حزم الأندلسي : سعيد الأفغاني : 38 ، هذا و قد ذهب أكثر من باحث إلى أن قصة المصباح ذات طابع أسطوري و بعيدة عن الواقع – ينظر : مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم و الباجي : عبد المجيد تركي : 65

علمية هائلة فكثر تلاميذه و مؤيدوه و معارضوه ، ثم وفد على الجزيرة أبـــو الوليد الباجي .. و كان ركنا من أركان المالكية في الأندلس ، فناظـــر ابن حزم و يبدو أنه كتل كثيرا من الفـــقهاء ضده ، و نفر حاكم الجزيرة منـــه "، (*)(1)

و لم يكن الانتصار في تلك المنـــاظرات مقصورا على واحد منهما ، و لكنـه كان دُولة .

و يذهب المؤرخون إلى أن غاية الباجي من تلك المناظرات لم تكن بداعـــي إثبات التفوق ، و لكن لغاية نبيلة هي التقريب بين أمراء الطوائف و توحيـــد كلمتـهم (2) ؛ فالباجي خشي من أن انتشار المذهب الظاهري من شأنـــه أن يفتح عيونا أخرى تأتي بمذاهب أشنع و أفضع فيضيع الدين بينـــها ، و لا يخفى على أحد أن الأندلـــس لم تعان ما عـــاناه المشرق من كثرة المذاهـب و الفرق التي ساهمت في تضعضع كيان الدولة الإسلامية .

و المناظرات التي دارت بين الفقيهين – على كثرتها –لا نكاد نجـــدها مجتمعة في مؤلف واحد ، و هي كما قال الأستـــاذ آنخيل بالانثيا " لم يبق لـــنا من تفاصيل هذه المجادلات إلا صدى غير واضح نجده في بعض صفـــحات الفصل لابن حزم و أخبار متضاربة عن انهزام الباجي أو انتصـــاره عـــلى

1- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : أحمد هيكل : 356

*- كان الباجي مقربا من الحكام على خلاف ابن حزم ، " قال عياض فيه ...كان يصحب الرؤساء ، و يقبل جوائزهم ، فكثر القائلون فيه من أجل ذلك " – تاريخ قضاة الأندلس : أبو الحسن النباهي : 95

2- ينظر : تاريخ الفكر الأندلسي : آنخيل جنالیث بالانثيا : 426

خصمه ، و كل مؤرخ يعرضها على حسب ما أملاه عليه شعوره نحو ابن حزم "[1] ، بيد أننا وجدنا في ما كتب الأستاذ مصطفى الوظيفي ما يخالف الكلام السابق ، فقد أنجز بحثا مكثفا[*] عن مناظرات الفقيهين و آرائهما التي جمعتها مؤلفات أخرى و هي : الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ، و إحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي .

و قد يتساءل السائل : ما الفرق بين ظاهرية ابن حزم ، و مالكية الباجي ؟

و الجواب هو أن الظاهرية كما يعرفها ابن حزم هي[**]:" كل من لم يحمل كلام الله على ظاهره و عمومه و وجوبه فقد كفر "[2] ، أما مالكية الباجي فلا تقف عند حدود الألفاظ أو المعنى الأول الظاهر في النصوص ، فالشريعة ليست " نصوصا لغوية على أساس من قواعد النحو و أساليب البيان فحسب ، بل هي قبل كل شيء إرادة المشرع من التشريع "[3] ، هذا الاختلاف الواضح بين المذهبين هو الذي أجج نار السجال و النضال، و قد بدا جليا في محاولة كل من ابن حزم و الباجي إثبات صحة آرائه للرأي العام ،و يعترف الأستاذ مصطفى الوظيفي بصعوبة انتقاء المناظرات التي دارت بين الفقيهين؛ذلك أن الباجي

1- تاريخ الفكر الأندلسي : 426

*- عنوان الكتاب هو : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي – دراسة في التناظر : ابن حزم و الباجي

**- " قام ببيان هذا المذهب عالمان أحدهما داوود الأصبهاني (ت270ه) ، و هو أول من تكلم به و العالم الثاني ابن حزم ، و إذا لم يكن له فضل الإنشاء فله فضل التوضيح و البيان و الأدلة و البسط ، و هو أشد استمساكا بالظاهرية من داوود " – محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية : محمد أبو زهرة : 374-375

2- الإحكام : 3 : 127

3- المناهج الأصولية : فتحي الدريني : 27

و إن كان مالكيا إلا أنه اختلف مع المالكيـــــة في كثير من الأحيان ، و مـن جهة أخرى فإن ابن حزم بمذهبه هذا قد خاصم جميع المذاهب ، و أحـــيانا لم يكن يسمي واحدا بعينه .[1]

و من المناظرات التي جمعت الفقيهين تلك التي مست الجوانب الآتية :

- أولا : أقلّ الجمع .

- ثانيا : خطاب النساء و الرجال .

- ثالثا : الفور و التراخي .

- رابعا : دليل الخطاب " .[2]

و قد خصص الوظيـــفي مباحـــث طويلـــة في هذه الدعـاوى شرحا و تفصيلا و تعـــليقا ، و لا يسعنا إلا انتـــقاء بعضها تجنبا للتطـــويل، و حتى لا نخرج عن مســـــار بحثنا الذي يتناول المنـــــاظرات عـــموما و ليس الفقهية على وجه التحديد .

فمن الجلسات الشهيرة التي جمعت الفقيهين ، جلستهما حول دعـــــــــوى **أقل الجمع :**

- دعوى الباجي : أقل الجمع اثنان و دليله قوله تعالى : " و دَاود و سُلَيْمـــــان

1- ينظر : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : 73
2- نفسه : 74

إذ يحكمانِ في الحرْث إذ نفَشَت فيه غنمُ القوْمِ و كُنّا لحكْمِهِم شاهِدين "(1)
(2)
.. و وجه الاستدلال بهذه الآية أن لفظ الجمع وقع على اثنين .

- جواب ابن حزم : إن هذه الآية ليس فيها ما يدل على اعتبار أقل الجمع اثنين لأن الضمير في حكم العربية أن يكون راجعا إلى أقرب مذكور إليه، و أقرب مذكور إلى الضمير قوله تعالى " غَنمُ القومِ " ، فالقوم و داود و سليمان جماعة بلا شك (3) ، و يبدو رد ابن حزم مقنعا إلى حد ما ، إلا أننا وجدنا في كلام العرب ما يؤيد كلام الباجي " فمن سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع كما قال عز ذكره " و السّارقُ و السّارقة فاقطعُوا أيْديهُما "(4) ، و لم يقل يديهما (5) .

و من جلساتهما أيضا اختلافهما **حول خطاب الله تعالى الذكور و الإناث في القرآن الكريم :**

فدعوى ابن حزم أن : خطاب الذكور يدخل فيه النساء و الرجال ، و دليله أن لا خلاف بين المسلمين أن النساء مخاطبات بقوله تعالى " و أقيمُوا الصّلاة

1- سورة الأنبياء : الآية : 78
2- ينظر : إحكام الفصول : 249
3- ينظر : الإحكام : 4 : 4-5
4- سورة المائدة : الآية : 38
5- فقه اللغة و سر العربية : الثعالبي : 252

و آتوُا الزّكاة " (1) ، و لا خلاف بين المسلمين أن النساء و كل بني آدم مخاطبون بقوله تعالى " يا أيّها الناسُ اتّقوا ربّكُم " (2) ، و إن النبي عليه الصلاة السلام سئل عن أحب الناس إليه فقال : عائشة و هو أعلمهم باللغة التي بعث بها ، فحمل اللفظ على عمومه في دخول النساء مع الرجال (3) .

- جواب الباجي : هو يرى أن خطاب الذكور لا يدخل فيه الرجال و الإناث ، و حجته في ذلك أن للنساء أسماء تخصهن، فإذا كان ذلك كن مخصوصات بلفظ التأنيث و الرجال مخصوصون بلفظ التذكير ، و لذلك قال تعالى " إنّ المسْلمِين و المسْلمات " ، فخاطب كل فريق باللفظ الموضوع له (4) ، أما ابن حزم فأول هذا الخطاب و غيره بإرادة الله تعالى التكرار و التوكيد ، و يبدو أن حجته أقوى إذ يقول الثعالبي مستشهدا بقوله تعالى " فأقيمُوا الصّلاة وآتوا الزكّاة " (5) ، فعم بهذا الخطاب الرجال و النساء ،و غلب الرجال و تغليبهم من سنن العرب " (6) .

و من الأمور الأخرى التي اختلف فيها الفقيهان **مسألة المباح** : فابن حزم يقسم الشريعة إلى ثلاثة أقسام : واجب و حرام و مباح ، و هو يدافع عن المباح الذي يدخل ضمنه المسكوت عنه ، فما ليس بحلال و لا حرام فهو

1- سورة البقرة : الآية : 110
2- سورة لقمان : الآية : 33
3- ينظر : الإحكام : 3 : 80 و ما بعدها
4- ينظر : إحكام الفصول : 244 و ما بعدها
5- سورة : الحج ، الآية 78
6- فقه اللغة و سر العربية : 25

مباح مطلق حلال[1] ، أما الباجي فيخالفه ، باعتباره منافحا عن القـــــياس ، فيقول " و هذه الطائفـــــة .. قد زادت على الحال التي عابتها على القائسين لأن القائس لا يحكم بالقياس إلا إذا وجد النص ، فإذا عدمه لم يحكم عـــــند عدمه إلا بما يوجبه الدليل و الاعتبار لا بما يوجبه الهوى و الشهوة "[2] .

فالباجي وجد في هذه المسألة ما يؤيد طريقته و يزكـــيها ، بخلاف ابن حزم الذي كانت حجته ضعيفة ،فلو أحل كل ما سكت عنه لفتحت أبواب الشبهـــات و كثرت المزلات ..

و الظاهر أن هذه المناظرات لم تحسم دائما لمحاور واحد ، بل كانـــت هذه بتلك ، وقد التزم " الفقيه الظاهري و المالكي بالطرق المنهجية للمناظـــرة .. فالفقيـــهان يعرضان الدعـــوى و يبرهنان عليها و يـــردان على اعتراضات المعترضين "[3] ، بيد أنهما اختلفا في بعض الجزئيات ، و يتعلـق الأمر بالأدلـــة و الحجج " فالفقيه الظاهري يعتمد الدليل البرهاني المستمد من الكتاب و السنة ، أو المستمد من المنطق اليوناني[*] ، بينما الباجي يعتمد الأدلة الاجتهادية الأصوليـــة كالقياس و الاستحسان و المصالح[4] .

1- ينظر : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : 163

2- إحكام الفصول : 570

3- المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : 235

*- عارض المالكية بشدة المنطق اليوناني و كل من يتعاطاه ، و لذلك لم يكونوا يأخذون بشهادة أصحاب المذهب الظاهري الذي يعد جرحة في عدالتهم و شهادتهم – ينظر : دراسات أندلسية في التاريخ و الحضارة : 25

4- ينظر : المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : 235

هـــــذا جانب من المناظرات التي جمعت بين أشهر فقيهين في الأندلس ، و قد قصدنا إضاءة الأمور الفقهية البسيطـــــة التي اختلفا فيها ، و تجنبـــــنا الخوض في الأمور الأخرى المعقدة التي كانت محل جدل عند من قبلهم و من جاء بعدهم .

ب- ابن حزم والمعتزلة :

لم يتصد ابن حزم للمالكية فحسب ، بل لجميع أصحاب المذاهب المخالفـــة لمذهبه و على رأس هؤلاء المعتزلة ، و من مناظراته غير المباشـــرة معهم مسألة **خلق الجنة و النار** : يقول " ذهبت طائفة من المعتـــزلة و وافقهم على ذلك قوم من الخوارج فقالوا : إن الجنة و النار لم يخلقـــا بعد .. فقد صح عن النبي عليه السلام أنه قال:"من قال هذا غرست له في الجنة كذا و كذا نـــخلة "، و احتجوا أيضا بقوله عز و جل عن امرأة فرعون حين دعـــت فقالت "ربّ ابن لي عِنْدكَ بيْتا " (1) ، فقالوا لو كانت مخلوقة لم يكن لاستئناف الدعـــــاء في البناء (2) ، و كان رد ابن حزم كـــــالآتي " و إنما قلنا إنهما مخلوقتان على الجملة كما أن الأرض و ما فيها مخلوقـــــة على الجملة .. و الدليل على صحة قول من قال أنهما مخلوقتان بعد إخبار النبي عليه الصلاة و السلام أنه رأى الجنة و دخلها ليلـــــة أسري به ووصف أماكنها .. و أخبر عليه السلام أنه

1- سورة التحريم ، الآية: 11

2- ينظر : الأصول و الفروع : ابن حزم ، 1 : 39

*- رد ابن حزم في كتابه الفصل في الملل و الأهواء و النحل على جميع الطوائف و المذاهب ، و سمى ما أتت به بعض الفرق بالشنع كالشيعة و الخوارج و المرجئة و قوم آخرين – ينظر : 4 : 179 و ما بعدها .

رأى في النـــــــار عمرو بن لحي و المرأة التي حبست الهرة .. فصح أنـــها مخلوقة "[1] ، و الشيء الملاحظ أن حجج ابن حزم قويـــــــة و مقنعة ، فكما أن الأرض موجودة و الإنسان يعمرها و يبني فيها ، كذلك الجنة موجـــــــودة و أعمال المؤمنين هي التي تعمـــــــرها بفضل الله تعالى ، هذا دليل عقلي أما الدليل النقلي فيتمثـــل في أحاديث الإسراء و المعـــراج التي وصف فيها النبي عليه السلام الجنة وصفـــا دقيقـــا، كما رأى فيها ماشطة فرعون، و قصر عمر بن الخطـــــاب ، و كذلك رأى بعض أهل النار، وفي كتب الحديث و السيرة الأدلة الكافية على أن الجنة و النار مخلوقتان .

و المسألة الثانية **هي مصير الأطفال المتوفين قبل البلوغ**[*] ، و فيها يقـــــول " يبطل من قال إنهم سيجازون بالأعمـــــــال التي علم الله أنهم لو عاشوا لعملوها للإجماع أن الله تعالى لا يعذب أحدا بعمل لم يعمله، و بإخباره عليـــه السلام : "و إن همّ بسيئة و لم يعملها كتبت له حسنـــــــة " ، فإن قال قائل من هؤلاء : و كما قلتم إن النار هي دار جزاء على الأعمال ، فكذلك الجنة قـــد أخبر أنها جـــزاء بما كانوا يعملون و الأطفال لا أعمال لهم ، قيل لهم و بالله التوفيق، هو كما ذكرتم ، إلا أنه لا خـــــلاف، فإنه ليس في الآخرة دار إلا

1- الأصول و الفروع : 1 : 39-40

*- شغلت هذه المسألة الفقهاء و الفلاسفة في المشرق ، و لا يبعد أن يكون ابن حزم قد وجه خطابه هذا إلى المعتزلة ، على اعتبار أن الأشعري انفصل عن فرقة المعتزلة بسبب مناظرة في هذه المسألة تحديدا (ينظر : وفيات الأعيان : 3 : 378) ، مما يعني أنها من كلام المعتزلة .

الجنة أو النار ، فإذا بطل أن يكونوا من أهل النار لأن الله لا يعذب أحـــــدا إلا بذنب،صح أنهم من أهل الجنة إذ لم يبق غيرها ، و غير بعيد عن الله التفضل "[1].

و الملاحظ هنا أن أدلة ابن حزم منطقية و لا يمكن إلا التسليم بها ، فالمعتـــزلة ضيقوا بابا هو أوسع الأبواب : إنها رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء و هذا ما أشار إليه الفقيه الظاهري .

ج- *بين المالكية و الفاطميين :*

لم يكن ابن حزم وحده خصيم المالكية ، بل كان هناك خصم آخر أكثـــــــر خطورة إنه المذهب الشيعـــــي بأفكاره المتطرفة[*] ، و كان من الطبيعي أن تنشأ مناظـــــرات حادة بين الطرفين و " قد دار أغلب موضوعات هذه المناظرات حول قضية تفضيل علي بن أبي طـــــــالب على سائر الصحابة[**] ، و تفضيل فاطمة على عائشة و سائر زوجات الرسول عليه السلام ، و صلاة التراويـــــح و القياس و منزلة السنة في التشريع "[2] .

و لم يكن من السهل على المالكيـــــة مجابهة هذا الخصم العنيد ،و لولا تشبعهم " بعلوم القرآن و فهمهم الصحيح و الواعي لأحاديث الرسول عليه الســـــــلام

1- الأصول و الفروع : 2 : 124

*- شكل الفاطميون خطرا على استقرار الأندلس ، يقول ليفي بروفنسال " إن الخطر الأجنبي الذي كان على أمراء قرطبة مواجهته لم يكن خطرا عباسيا و إنما كان هناك خطر أقرب إليهم و أكثر قسوة عليهم ، ألا و هو خطر الفاطميين و أتباعهم الأقوياء في شمالي إفريقية القريب منهم " – الإسلام في المغرب و الأندلس : 94

**- بدأ هذا النوع في المناظرات في المشرق في عصر صدر الإسلام عندما اشتد الخلاف بين علي و معاوية رضي الله عنهما، و بين أهل العراق من ناحية و أهل الشام من ناحية أخرى ، و ازداد أكثر بعد موت علي رضي الله عنه و ظهور الشيعة الذين تشيعوا لعلي و أظهروا بعض الأفكار المتطرفة – ينظر : مناظرات الأذكياء : 1 : 16

2- العلاقات بيت الأمويين و الفاطميين في الأندلس و الشمال الإفريقي : فتحي زغروت :286

.. و تبصرهم في علوم العربية .. ما استطاعوا أن يقفوا أمام المناظرين من الإسماعيلية(*) الذين تبحروا أيضا في تأويل القرآن تأويلا باطنيا "(1) ، و لم تكن تلك المناظرات ذات بعد ديني فحسب ، بل رام الفاطميون أبعد من ذلك ؛ فقد رغبوا في احتلال الأندلس(**) و لهذا " كانت المناظرات العلمية التي قامت بين فقهاء المالكية و دعاة المذهب الشيعي إحدى وسائل المقاومة التي لجأ إليها الطرفان "(2) ، فالفاطميون سعوا لبسط نفوذهم في الأندلس و سلاحهم في ذلك مناظرة فقهاء تلك البلاد و إفحامهم أمام العامة ، لتأتى لهم السيطرة على العقول قبل البلاد ، و لكن الأمر لم يكن كذلك أبدا، فقد بلغ حنق الأندلسيين على الشيعة مبلغا كبيرا ولم يتوانوا عن التنكر لمن يواليهم ، فابن حزم مثلا لم يكن ينسب ابن هانئ إلى الأندلس لأنه لا يرتاح لهذا الشاعر المتشيع .(3)

و من تلك المناظرات : مناظرة ابن الحداد(**)(ت 302هـ) و عبد الله المهدي حول : أحقية علي رضي الله عنه في الولاية فقد "كان هدف المهدي أن يجعل من الولاية

---

*- الإسماعيلية طائفة انتسبت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذي كان من أحفاده الفاطميون – ينظر : محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية : محمد أبو زهرة : 57

1- العلاقات بين الأمويين و الفاطميين : 286

**- المذهب الفاطمي قديم في الأندلس تبناه شخص بربري يدعى شقيا بن عبد الواحد أيام عبد الرحمن الداخل ، و قد دعا الناس إلى اتباع الطريقة العلوية ليخلصهم من الأمويين – ينظر : ثورات البربر في الأندلس : حمدي عبد المنعم حسين : 19 ، كما شهدت الأندلس إبان عهد الحكم المستنصر ثورة من أخطر الثورات التي واجهها الأمويون و هي ثورة الداعي أبي الخير [التي] تعد إحدى ثمرات الجهد الفاطمي في نشر الدعوة الإسماعيلية في الأندلس ، و لكنه قتل فكان يوم قتله عيدا للأندلسيين - ينظر : ثلاث وثائق في محاربة البدع في الأندلس : 53 و العلاقات بين الأمويين و الفاطميين : 49 ، و انظر أيضا : العلاقات بين المغرب و الأندلس في صدر الخلافة الأموية : سامية مصطفى سعيد : 79

2- العلاقات بين الأمويين و الفاطميين : 295

3- نفسه : 340

**-هو سعيد بن محمد الغساني ، أبو عثمان ، مناظر قوي الحجة ، من أهل القيروان ، ناظر الشيعي داعي بني عبيد .

أو الإمامة حقا من حقوق علي و أبنائه معتمدا في ذلك على حديث الرسول عليه السلام عند غدير خم (*) ، حيث ضمنه العصمة لهم و أوجب على الناس العبودية لهم ! فأجابه أبو عثمان : إن العبودية لا تكون إلا لله وحده دون سواه ، و إن المراد بالولاية في هذا الحديث ولاية الدين لا ولاية الرق و العبودية .. و ذكر له قوله تعالى " ما كانَ لبشرٍ أنْ يؤْتيه اللهُ الكِتابَ و الحكْمَ و النّبوّة ثمّ يقولُ للناس كُونوا عِبادًا لي من دُونِ اللهِ و لكنْ كُونوا ربّانيّين بما كُنتُم تعلّمون الكِتابَ و بما كُنتُم تدرسون و لا يأمركُم أن تتّخِذوا الملائكَة و النبيّين أربابا أيأمرُكُم بالكُفرِ بعْدَ إذ أنتُم مُسْلمون " (1) ، و انتهت المناظرة بتفوق أبي عثمان على المهدي الذي وجد في حجته دليلا قويا على صحة ما يقول حول معنى الولاية " (2) .

و المناظرة الثانية هي حول تراويح رمضان " فمن تعاليم الفاطميين تحريم صلاة التراويح .. وقد احتج المروزي على ذلك بأن النبي لم يقم صلاة التراويح سوى ليلة واحدة ثم قطعها ، و أن عمر بن الخطاب هو الذي استمر في العمل بها و على ذلك فهي بدعة .. و انبرى له ابن الحداد قائلا : لكنها بدعة مستحسنة .. أما قولك إن الرسول عليه السلام لم يواصل القيام

---

*- غدير خم :مكان ماء بين مكة و المدينة ، و قد مر به النبي عليه الصلاة و السلام و عنده وصى الناس بأهله و علي خيرا ، غير أن الشيعة حوروا الحديث و زادوا فيه حتى جعلوا من غدير خم عيدا لهم ، لأن فيه – بزعمهم- بايع المسلمون بأمر من النبي عليه السلام عليا كرم الله وجهه على الولاية و الطاعة .

1- سورة آل عمران ، الآية : 79-80

2- العلاقات بين الأمويين و الفاطميين : 288

بها في ليالي رمضان فذلك لأنه مشرع ، و خشي أن يتوهم الناس فرضيتـــــها فيشق عليهم ، و لكن هذا التـــــــوهم قد زال بعد موته ، عندئذ وقف المروزي مبهوتا ، و لم يجد ما يحتج له "[1] ، فالنبي عليـــــه السلام يعلم أنه القدوة و لذلك خشي أن يقلده الناس و يجعلوا التراويح فريضة فتشق على بعضـــــــــــهم ، و لكـــــن لا يخفى على أحد أن اعتراض هؤلاء مرده إلى من أحيـا هذه السنة و ليس عليها هي تحديدا .

و من شطحات الفاطمية ما أتى به أبو الخير و كان السبب في إعدامه ، فقـــــد " شهد محمد بن أيوب بن سليمـــان بن ربيع أنه سمع أبا الخير يقول : إنما الناس كالعشب رطب و يابس ثم لا حساب عليهم و لا عقاب ، فقال له محمد بن أيوب : أين قول الله عز و جل " فإذا هُم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون " ؟ ، و قوله تعالى " فريق في الجنة و فريق في السّعير " ، فقال له أبو الخير : بعض القرآن خرافة ، و بعضـــه لا شيء ، و إنما السيف يضم الـــناس إلى الإقرار بهذا "![2] ، و إن صح نسبة هذا الكلام لأبي الخير فهو كما وصفه الناس زنديق يستوجب القتل ، ذلك أن النصارى أنفسهم ما تجـــرؤوا على وصف الـــقرآن بما وصفـــه هـــذا الأفـــاك في أثناء مناظراتهم مع المسلمين .

1- العلاقات بين الفاطميين و الأمويين : 292

2- ثلاث وثائق في محاربة البدع و الأهواء في الأندلس : أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي : 60

هذا جانب من المناظرات المذهبية التي انتشرت في الأندلس وأسهمت في إذكاء نار الفتن باسم الدين،و هو بريء من أكثرها إلا ما كان في صميم الدفاع عن العقيدة الإسلامية .

و أما المناظرات التي خدمت الدين بحق ، و نافحت عنه فتلك التي دارت بين المسلمين و غيرهم من يهود و نصارى ، تلك هي المناظرات العقدية .

المبحث الثاني : مناظرات عقدية :

يمكن تقسيم هذا النوع من المناظرات إلى قسمين : الحوار مع الآخر و الرد على الآخر .

و تعريف الآخر " في منظور حضارتنا الإسلامية ، هو حقيقة لطرف لم يكن يقصد منه عدو هذه الحضارة كما توهم [بعضهم] ، فهو مفهوم يتسع مدلوله ليعبر عن كل ما هو غير الذات ، و قصد به هنا غير المسلمين " .(1)

و قد ظهر هذان القسمان في وقت متأخر(**) من التاريخ الأندلسي ؛ ذلك أن "المسلمين والنصارى و اليهود كانوا يشكلون مجتمعا إسبانيا واحدا ربطته وحدة الدم ... و لم يؤد التعصب الديني دوره المعروف إلا بعد أن أدخلته

1- التعامل مع الآخر : إبراهيم المزيني : 18

**- هذا لا يعني أنه لم تكن هناك محاولات في القرون الأولى للغض من الإسلام و لكنها كانت محاولات فردية باءت جميعها بالفشل .

عناصر غير اسبانيـــة إلى شبه الجزيرة إثر سقوط طليطلة (1)(*) ، فالـــــــجدال الديني لم يكن مطروحا في القـــــــرون الأولى نظرا لأن موازين القوى كانت لصالح المسلمين،فلما ضعفوا تجرأ عليهم الأعداء التقليديون من نصارى و يهـود.

أ- الحوار مع الآخر :

نستطيع القول إن هذا الحوار جمع طرفين اثنين هما الإســـــــلام والنصرانية أمـــا أتباع اليهـودية – و باعتبارهم أقليـة – فلم يتجـرؤوا على الوقوف أمـــام المسلميـــن (**) ، بل اختاروا البقـــاء في الظل و تدبير المكائد ، و غير خفـــي أن أخطر الفتن و المصائب التي حلت بالأندلـــــــــــس كانت من تدبيرهم و بإيعاز منهم (***) .

و" لقد جمعت المناظرة الدينية بين الإسلام و النصرانية منذ أن اضطـــــرهما التاريـــــخ إلى الالتقاء ببعضهما ، و لقد عبرت هذه المجادلة عن تأسيس هذين الدينين لمعرفتهما بذاتهما من خـــــلال تأملهما و دراستهما لعناصر الاختلاف و الائتلاف بينهما ، كما عبرت المناظـــــــرة ذاتها عن مختلف الضرورات

---

*- كان سقوط طليطلة (478 هـ) المنعرج الفاصل في التاريخ الأندلسي ، بل هو بداية نهاية وجود المسلمين في الأندلس، و به ارتبط التحول الخطير الذي أدى إلى دخول المرابطين ثم إلى سقوط دول الطوائف و اندثارها – ينظر : تاريخ الأدب في الأندلس عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس: 147
1- الأندلسيون المواركة : عادل سعيد بشتاوي : 246

**- نستثني من ذلك ابن النغريلة و سيأتي ذكره .

***- " ما كاد حكم المسلمين يضعف في الأندلس حتى انقلب عليهم اليهود ، و أصبحوا عملاء النصارى بل و سفراءهم الذين يجمعون الإتاوات من الملوك ، ووصلوا إلى درجة الخيانة العظمى حين كشفوا للنصارى عن أسرار المسلمين " – الجدل الديني بين المسلمين و أهل الكتاب بالأندلس : خالد السيوطي : 69

التاريخية التي دفعت بالدينين المذكورين إلى الانخراط معا ضمن تقليديـــــن مختلفين ؛ تقليد التعايش و المثاقـــفة من جهـة ، و تقليـــــد بسط الهيمنة و السيطرة و تأجيج روح الإلغـــاء و الإقصاء المتبادلين بينهما من جـــــهة ثانية " [1] ، وحوار المسلميـــــن مع النصارى لم يغلب عليه العنف كما يعتقد [*] ، بل نجده في كثير من الأحيان يتسم بالهدوء ، و يبتعد عن الهمز و الغمز .

رسالة الراهب الفرنسي إلى المقتدر بالله :

بعث الراهب الفرنسي [**] إلى المقتدر بالله صاحب سرقسطة رسالة يدعـــــوه فيها صراحة إلى اعتناق الديـــن النصراني ، و قد استهل رسالته تلك بعبارات التقدير و الاعتزاز لابن هود، فقال " إلى الصديق الحبيب الذي نؤمـــــله أن يكون خليلا .. المقتـــــــدر بالله على دولة هذه الدنيا، الملك الشريف ، من الراهب أحقر الرهبان ، الراغب في الإنابـــــــة و الإيمان بالمسيح يسوع ابن الله سيدنا !!! " [2] ، هكذا بدأ الراهب رسالته بنبرة من التذلل و التواضـــــــع لكسب ود ابن هود ، ثم شـــــرع في عرض موضوعه الأساس فقال " رأينا

1- قواعد المناظرة و أخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي و محمد الأنصاري : محمد عبد الواحد العسري – جامعة تطوان ، مجلة التاريخ العربي : العدد 15 : 2 www.attarikh-alarabi.ma/html adad 15 partie 9.htm

*- يقول أحد الباحثين " إن كان للأندلس أن تفخر بأشياء فلا شك أن الحوار الحضاري الذي تم على أرضها بين الشعوب العرقية و الدينية ، يأتي في مقدمة ما تفخر به ، فهذه المجادلات أنتجت علما كبيرا اتخذ له فيما بعد مسمى علم مقارنة الأديان " – نقلا عن مقال للدكتور عبد الله بن ابراهيم العسكر ، قسم التاريخ بكلية الآداب ،جامعة الملك سعود ، الرياض ، 22 مارس 2008 : موقع الجامعة : faculty.ksu.edu.sa/834/pages/topica cd6 aspx

**اختلف المؤرخون في تحديد اسم هذا الراهب – ينظر : رسائل أندلسية : فوزي العيسى : 220

2- نفسه : 220-221

أن نراسلك و ندعوك لتؤثـــــر المُلك الدائم على المُلك الزائل الفاني .. و ليس يسعنا أن نتراخى عن الاجتهـــــــاد في تتميم هذه المصلحة بجميل معونته .. و لهذا الأمر أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كـــــــــلاما إلهيا .. و يشرحون لديك حقيقـــــة النصارى ، و يقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لا ينبغي لنا الإيمان بأحد سواه ، و لا نرتجي النجاة إلا به ، فهو الإلـــــه الذي اتخذ حجـــــابا على صورتنا لينقذنا بدمه الطاهـــر من هلكة إبليس " [1] ، يخاطب الراهب المقتدر بأسلـــــــوب الواثق من نفسه الموقن بصحة كلامه ، بل العجب حين يخاطبه و كأنه شـــــــاب ضال عن طريقه ، أو أحد من الذي جاءوه يطلبون الغفـــــران ! و يواصل هذا الراهب فيقول " و لقد كنا [نود أن] نورد كثيرا من هذا القول لولا ما نتوقعه من تألمك بسماعه ، و في ذلك كلـــــه برهان الملـــــــــة المسيحية و بيان جلالتها ، و إن الإحاطة بكنهها مما يعجز دونه إدراك الإنسان " [2] ، و نحن لا ندري أي ألم يقصد ؟ أ هو ألم الخطيئـــــــة ؟ أم تراه ألم اكتشاف الحقيقة بعد طول ضلال ؟ !

و لقد ذكر الراهـــب في رسالتـــــــه هذه كل الأنبياء من آدم إلى عيسى عليهم السلام، بل و ذكر حتى الحواريين ، إلا النبي محمدا عليه الصـــــــلاة والسلام فـــلم يذكره إلا من بـــــاب أنه أضل بني إسماعيل و حكـــم عليهم بالجحيـــــم

1- رسائل أندلسية : فوزي العيسى : 221
2- نفسه : 221

و لأجل هذا فهو يدعو ابن هود أن يدرك نفسه و يصحح عقيدته و يعتبـــــــر مما مضى ، و يضيف قائـــــــــــلا " فتأمل أيها الحبيب ما يحق عليك تقديم العمل به و المسارعة إليه ، و اغتبط بما يدين به إخوانـــــــنا في هذا القطر ... و السلام عليـــك من سيدنا المسيـــــح الذي أذهب المـــــوت و قهر الشيطان ، و رحمة منه و بركة باستنقاذك من حبـــــــــائل إبليس التي كنت فيها متورطا إلى الآن " .(1)

هكذا أبدى الراهب حرصه على مصلحة المقتدر وخوفه عليه ، و قـــــد كان يؤمّل أن يتنصّر ابن هود و خلق كثير من ورائه .

رد الفقيه أبي الوليد سليمان الباجي :

مثلما تصدى الباجي للمذهب الظاهري ، تصدى كذلك للراهـــب الفرنسي، و ليس من شك في أن هذا الأخير أخطـــــــــر بكثير من ابن حزم و مذهبه ، فالمسألة ليست فقط اختلافات في بعض الأمور الفقهيـــــــــــة بل الأمر يتعلق بالديـــــــن الإسلامي الذي يريد هذا الراهب ضربه في عقر داره و من خلال أبنائه ، و قد استهل الباجي رده الموجه للراهب بشكره على نصيحتـــــــه التي هو أحوج إليـــــها ، مشيرا إلى أن فحوى تلك الرسالة لا يرقى لأن يخاطب به ذوو العقول النيرة الفطنة ، و لكـــــــن يصلح لمخاطبة ضعفاء النصارى الذين (*)

1- رسائل أندلسية : 223

*- كشفت هذه الرسالة عن التبادل الثقافي ، و التفاعل الحضاري الحاصل آنذاك بين الأندلس و البلدان الغربية عن طريق الوفود و الرسائل المتبادلة – ينظر : الجدل الديني بين المسلمين و أهل الكتاب في الأندلس :71

تنطلي عليهم مثل تلك الأفكـــــــــار المغلوطة ، و يضيف الباجي أن كثـــرة الرسائل التي أرسلها الراهب هي التي دعته إلى الرد ، على أنه لا ينتهـــــــج الأسلوب نفسه فيسب الأنبياء و ينتقص منهم كما فعل هو .

و يبدأ البـــــــاجي نقض كلام الراهب نقطة نقطة، و أولها افتتاحه بقوله : إن المسيح ابن الله – تعالى الله عما يصفون- فيقول " و إنا لنربأ بمثلك و نرفـــــع قدرك عما استفتحت به كتابـــــك من أن عيسى عليه السلام ابن الله تعالى ، بل هو بشر مخلـــــــــــوق .. لا يعدو عن دلائل الحدوث من الحركة و السكون و الزوال و الانتقال .. و أكل الطعام و الموت .. و إن الله تعالـــــــــــى خلق عيسى من غير أب كما خلـــق آدم من تراب ، و قـــــد حملت بعيسى أمّ و لم تحمـــــل بآدم أنثى و لا ذكـــر ، فإذا لم يكن آدم إلها – و هو الأب الأول – بل هو مخلوق، فعيسى أولى أن لا يكـــــــون إلها و هو من ذرية آدم وولده .. و إن هذا لواضح لمن جهل معنى الحدوث ، و لم يميز الخالق من المخلوق " (1) .

ثم تناول نقطة أخرى لا تقل أهمية ، و هي إحياء الموتى، التي اتخذهـــــــــا النصارى ذريعة لتأليـــه (عيسى عليه الســـــلام) ، و قد عمد البـــــــاجي إلى نقضها من خـــــلال ضرب أمثلة من التاريـــــــخ ، فقال " قد ظهر على أيدي

1- رسائل أندلسية : 226

سائر الرسل – عليهم السلام – من الآيات الواضحة و المعجزات الباهـــــرة مثلـــــما ظهر على يدي عيسى و أكثر، فلو جاز أن يدعى لعيسى بشيء مما ظهر على يديه من إحياء الموتى .. بأنه ابن الله تعالى لجاز أن يـــــدعى ذلك لإبراهيم ..و موسى ..و محمد [عليهم السلام]"(1) ثم يـــــرد الباجي على المسألة الثالثة و هي أنه لا يجب الإيمان إلا بعيسى وحده ، مبينا أن هذا الكـــــلام يناقض النصرانية نفسها فيقـــــول " و قد رأينا ما في كتابك ما خالفت فيه جميع أهل ملتك ، فإنه ليس في فرق النصارى من يقـــــول إن المسيح لا ينبغي الإيمان بأحد سواه ، بل هو الإيمـــــان بالأب عندكم واجب و الأب لم يتحد بالناسوت عندكم و إنمـــــا اتحد به الابن (*) ، فمن لم يؤمن بغير الابن كفر بالأب ، و قد تقدم في كتابك أن المسيح ابن الله ، و هذا نقض لقولك إنـــــه لا ينبغي الإيمان بغير المسيح الذي هو الابن "(2) .

هكذا بين الباجي مدى تناقض كلام الراهب مع الواقع و المنطق و العقـــــل ، بل و حتى مع شريعته هو !

و قد أظهر الباجي تمكنه كمناظر يلتزم بأدب المناظرة ، فيرد أقوال خصمـــه

1- رسائل أندلسية : 226- 227

*- يقول عبد الله الترجمان " و عندهم لا يكون دخول الجنة إلا به .. فيؤمنون بأن الله ثالث ثلاثة ، و أن عيسى ابن الله و له طبيعتان ، ناسوتية و لاهوتية .. و بعضهم يقول الثلاثة هم الله و عيسى و مريم " – تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب : 83

وكذلك أفاض ابن حزم في كتابه الفصل في الملل و النحل .. في الحديث عن عقيدة التثليث و أن الأب غير الإله الابن ، و كلاهما غير روح القدس مظهرا أكاذيب النصارى و أباطيلهم و هرطقتهم ..

2- رسائل أندلسية : 230

بأمثلة مـــــــــن الواقع يصدقها العقل ، و بأسلوب لين يبتعد عن التجريـــح و التعريض ، و لكنه يعذر الراهب فيما ذهب إليه ،ذلك أن كل ملة و فرقـــــة فرحة بما لديـــــــــــها ، " و كذلك تقول البراهمـــة الذين يكذبـــون الرسل ، و الدهرية الذين يدعون الأزل ، و الفلاسفة القائلـــــون بقدم العالم ، و الثنوية المثبتون لخلق النـــــــور و الظلام " (1) ، و يسترسل الباجي في محاورته مبينا أن الله تعالى بعث النبيين مبشرين و منذرين ، و أنهم جميعـــــا جاؤوا برسالة التوحيـــــد ، ثم يعود لنقض كلام الراهب الذي ادعى أن عيسى (عليه السلام) سينقـــذ البشرية بدمه الطاهر فيقول " و من أغرب ما تأتون به قولكم أنه بذل دمه في خلاص العباد ، و كيف يكون للرب دم، و الدم من الأجسام المحدثـــة المخلوقة ؟ و لو حررتم الكلام لزعمتم أنه دم الناسوت دون اللاهـــــــــوت و للزمكم أن تقولـــــــــوا إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله – تعالى - لكنكم حققتم أن إلهكم صلب و مات ، و هذه صفـــــة لا تصح إلا على محدث مخلوق " (2) .

و أنهى الباجي رده بإثبـــــــات نبوة محمد عليه السلام التي أنكـــــــــرها الراهب فقال " إن الله تعـــــالى بلطفه و حكمته و عطفه و نعمته بعـــــث محمدا (عليه الصلاة و السلام) فختم به الرسالة ، و أكمل به النبوة و جعله آخر

1- رسائل أندلسية : 231
2- نفسه : 233

المرسليـــــــن ، و بعثه إلى جميع العالمين .. ابتعثه الله من خير الأمم و هم بنو إسماعيل ، ثم من خير بني إسماعيل و هم قريش، قطب العرب و أفصحـــــــها ألسنا و أخلصها عنصرا .. فقـــــــــام منفردا فيهم يدعوهم إلى عبادة الرحمن و خلع الأوثان .. ثم أكرمه الله تعالى بالمعجز الذي فضله به على جميـــــــع النبيين و المرسلين ، و هو القرآن الذي تحدى به الإنس و الجن أجمعين ".(1)

و دعا الباجي الراهب أخيرا إلى اعتناق الإسلام متمثلا بقوله تعالى " قلْ يا أهـــلَ الكتابِ تعَالوا إلى كَلمةٍ سَواء بيْننا و بيْنكُم ألاّ نعبُد إلاّ اللّهَ و لا نشرك به شيْئا و لا يتّخِذ بعضُنا بعْضا أرْبابا من دُونِ اللّهِ فإن ْتولّوا فقولُوا اشهدُوا بأنّا مُسلِمُون " (2) .

لقد استطـــــاع الباجي بهذه الرسالة أن يرد ادّعاءات الراهب و ينقضها بما لا يفسح مجالا للاعتراض عليها (*) ، فالبـــــــــاجي يمتلك القدرة على مناظرة غيره و لا تنقصه في ذلك الحجج و الأدلة القطعية ، فضلا على اعتماده الأسلـــــــوب الهادئ البعيـــــد عن الغمز و اللمز و هو ما يكسبـــــــه احترام الآخر و يهيئه لقبول كلامه .

1- المرجع السابق : 237 و ما بعدها
2- سورة آل عمران : الآية : 64
*- كان من دواعي الجدل الديني التصدي لحملة التنصير التي انتشرت في الأندلس خاصة بعد ضعف ملوكها ، فلم تصبح هذه الحملات متوارية ولكنها كانت على الملأ و دون خوف من رد فعل المسلمين ، و ما رسالة الراهب لأحد ملوك الأندلس إلا دليل على درجة التضعضع التي وصل إليها المجتمع الأندلسي – ينظر : الجدل الديني بين المسلمين و أهل الكتاب : خالد عبد الحليم السيوطي : 104

العرض ، استوقفه قائلا :

فقلتُ لهُ دعْ عَنك تعْظيم وصْفها **فخمْرتكُم أغلى و خرْقتُنا أعلى

على أننا فيها رأينا شيوخنا** و فيها أخذنا عن مشائخنا شُغــلا

و فيها لنا العُذّال لاموا و أكثروا**و آذاننا في لبسها تترك العـذلا

فلمّا لبسْناها و همْنا بحُبّها **تركنا لها الأوطانَ و المال و الأهــلا (1)

إن عباءة الشاعر أو كما سماها خرقته ،هي أغلى من خمرة القسيس ، لأنـــــها رمز التدين و التصـــــــوف و هي " علامة الزهد في الدنيا و الطلب للآخرة .. إنه لباس التقوى الذي على كل مريد سالك أن يحترمه " (2) ، و يبـــــــــــدو أن الشاعر استطاع أخيرا إقنـــــــــاع القسيس الذي بدا متلهفا على هذه الخرقة فقال :

فقال عَسى تلك العَباءة هاتها **فقد أثبتت نفْسي لها الصّدق و العَدلا

فقلتُ له إن شئتَ لبس عباءتي** تطهّر لها بالطهر و اضحَ لها أهــلا

و بدّل لها تلك الملابسَ كلها **و مزّق لها الزّنّار و اهْجر لها الشــكلا (3)

فالششتري لما رأى تعلق القس بالعباءة عرض عليه أن يترك ما هو فيـــــه ، و يتطهر ليكون أهلا لـــــــها ، و قد رضي أخيرا و منحـــه الخمرة التي أراد :

فدُونكَ خَمْري قد أبحْتكَ شُربها **و ناوَلنيها في أباريقها تُجــلَى

فقلتُ لهُ ما هذه الرّاح مَقْصدي** و لا أبتغي منْ راحِكم هذه نَيلا

و لكنّها راحٌ تقادمَ عهْدها **فما وُصفَت بعدُ و لا عُرفَت قبْــــلا

1- الديوان : 62
2- التصوف الأندلسي : محمد العدلوني الإدريسي : 336
3- الديوان : 62

أقرّ بأنّ الله لا ربّ غيْره **و أنّ رسولَ الله أفضلُهم رســـلا

عليه سَلام الله ما لاحَ بارق** و ما دام ذكْر اللهِ بين الورى يُتلى (1)

و يبدو أن القسيس لم يفهم مـــــــــراد الششتري فمنحه خمرا معتقة (*)، و لكن ما ذاك أراد الشاعـــــر، إذ إن للمتصوفة " آدابا مخصوصـــــة بهم و اصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم "(2)، غير أن " الباحث في اللغة الشعرية الصوفية يكتشف دون مشقة (3)، ذلك الفرق بين التجربتين الشعريتين : بين تجربة عادية و أخرى معقدة ".

فالخمر عندهم هي تلك النشوة التي يشعرون بها و قد و صلوا إلى أعلى درجـــات الصفاء الروحي بعد التجرد التام من الدنيا ، فالشاعر أراد كما يبدو أن يقنع القـــس بترك دينه و اعتناق الإسلام بهذه الطريقة ، و المناظرة هنا جاءت في شكل حـــوار مشفر، فالمرسل هو الششتري ، و المستقبل هو القسيس ، و الموضوع هو الدعوة إلى اعتناق الإسلام ، و الحجج هي تلك التي قدمها الطرفان فالقس يرى أن خمرته لا تقدر بثمن و لكنها خمر حسية ، أما الششتري فعباءته التي ترمز إلى تدينـــــه لا تقدر بثمن كذلك، و الخمر التي يريـــــــدها ،هي حالة الانتشاء التي يشعر بها في ذلك الجو الإيماني (**) ، فكانت الكلمة الأخيرة له .

1- الديوان : 63

*-قد تكون الخمرة حقيقية و قد تكون رمزا للنشوة المسيحية "فللخمر وضع متميز في تراث الصوفية إذ كانت لديهم رمزا من رموز الوجد الصوفي "-الرمز الشعري عند الصوفية : عاطف جودة نصر : 357

2- مقدمة ابن خلدون : 433

3- الشعر الصوفي -دراسة موضوعاتية في شعر الششتري : بومدين كروم : 50-51

**-يذهب بعض الدارسين إلى أن القس هو الشيخ و الششتري هو المريد ، و المقايضة تلك هي ما يجب أن يبذله المريد من جهود لبلوغ أعلى المراتب – ينظر : شعر التصوف في الأندلس : سالم عبد الرازق سليمان المصري : 124

و قد يكون الأمر كذلك ، و لكن قوله : أقر بأن الله لا رب غيره **و أن رسول الله أفضلهم رســـلا يفتح الباب أمام كل التأويلات بما فيها تأويلنا مما يعني أن الششتري بالفعل كان يحاور القس كقس و ليس كشيخ

مناظرة بين ابن رشيق(ت 680هـ) و قسيس :

جرت هذه المناظرة في مرسية بعد سقوطها في يد الإسبان ، و قـــــد حرص القساوسة على مناظرة المسلمين بغية اقتلاع الإسلام من جذوره ، و منهم القسيس الذي أراد استدراج ابن رشيق(*) بطريقة ذكية،فقد عمد إلى إظهار تقديره واحترامه للقرآن و مع ذلك فإن هناك مسألة كانت تشغله ، و هي سبب " إعجاز القرآن " ، يقول : " أنتم تقولون إن من أعظم معجزات نبيكم القرآن العظيم الذي بأيديـــكم ؟

قلت له [ابن رشيق]: نعم .

قال : و أنتم تقولون إن نبيكم تحدى به العرب قاطبة في أحفل ما كانوا في الفصاحة فعجزوا .

قلت له : نعم .

... فقال : اسمع الآن ما أقوله : ..إن الكتاب المسمى بالمقامات قد أجمع أهل ملتكم على أن أهـــل الأدب عجزوا عن معارضته ، و كل من تعـرض لذلك لم يأت بشيء يقاربه ..ثم إن مؤلفه بعد ذلك تحدى أهل اللسان قاطبة بشيء منها ، رأى أنه لا يؤتى بمثله و زاد إلى ذلك بأن صرح بنفي الإتيان بمثله في المستقبل تصريحا لا يمكن إنكاره ، و ذلك قوله في المقامة السادسة و الأربعين : أنشد البيتيـــن و المطربين المشتبهي الطرفين ، اللذين أسكتا كل نافث ، و أمنا أن يعززا بثالث ،

*- أبو علي الحسين بن رشيق التغلبي ، أديب و فقيه ، و المناظرة في كتابه " الرسائل و الوسائل " .

فأنشده :

سِم سِمة يحسُن آثارها *** و اشكر لمَن أعطى و لو سِمْسمه

و المكرُ مهما اسْتطعتَ لا تأته *** لتنتقي السّؤدد و المَكرُمـــه

و قــد مضت بعض الأعصار و انقرضت الأجيال ، فلم يأت أحد لها بثالث كمـا قال لا في عصره و لا بعد عصره ...فينبغي أن يكون ما أتى به الحريري أيضا ، معجزة و إن لم يرد هو ذلك .. و أنتم مع ذلك لا تقولون إنه نبي " .[1]

فعلى غير عادة القساوسة الذين يستشهدون في مَناظراتهم بكتبهم ، استشهد هــذا القسيس بكلام العرب و بأشهر ما خلفه كُتابهم " المقامات " ظنا منه أنه سيفــحم خصمـــه بكلام من كلام أجداده ، و مع ذلك هل ظن القسيس أن بيتين من الشعر يعجز العرب عن الإتيان بثالث لهما حتى وضعه في مصاف المعجـــزات ، بل و تساءل عن عدم تسمية العرب لصاحبهما بالنبي قياسا على تسمية الرسول عليه الصلاة و السلام بذلك، لعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ؟ !

و قد حاول ابن رشيق تفنيد كلام القس بما أوتي من علم و لكن هذا الأخير أبـى إلا بيتا ثالثا لا غير ، حتى يسر الله على صاحبنا بيتا من الشعر فقال : " و مع هذا فقد زاد الناس على البيتين و لم يغفلوا عنهما ،فقال لي و أين هذا ؟ فوالله ما رأيت أحدا ادعى هذا و لا ذكره قط ، فقلت له : أنا أذكر بيتا ثالثا لهما و لا أذكر الآن قائلــه ،

1- المعيار المعرب : الونشريسي : 11 :156-157

و لم أر أن أنسبه لنفسي في الوقت .. ثم أنشدته :

و المَهر مهرُ الحور و هو التّقى *** بادرْ البُكرة و المَهْرمَه

فلما سمعه و أعدته عليه حتى فهمه فكأنني ألقمته حجرا ، و رأيت فيه من الانكسار لذلك ما لم أره عند سماع الحجج العقلية و المآخذ الأصولية، فأخذ في الثناء علي"[1].

و عجيب أمر القس فقد كان يكفيه بيت شعري من ارتجال ابن رشيق ليقتنع بإعجاز القرآن بعد أن شغله البيتين الشعريين ردحا من الزمن !

و كما يبدو فقد سيطر الهـدوء على المناظرة لاسيما من جانب القس الذي أظهـــر وداعة لا قبل للنصارى بها ، كما حـــاول التلطف و عدم الإساءة للإسلام و ما ذاك إلا رغبة منه في كسب ود الخصم و استمالته .

1- المصدر السابق : 11 : 157

مناظرة الشيخ ابن لب مع ذمي متحير :

لم يدخر النصارى جهدا في التشكيك في الدين الإسلامي ، لذلك كانـــــوا يعمـدون إلى تحدي الفقهـــاء بخاصة -على اعتـــبار أنهم حماة الدين – بغية تعجيزهم من خـــــلال الخوض في بعض المسائـــل التي استعصت عليهم و على الفلاسفة و المفكرين معا، إلا أن جوابها واضح بيّن في الإســـــلام ، و هذه أبيات لنصراني مجهول أطلق على نفسه لقب الذمي المتحير ، يقـــول فيها: (*)

أيا عُلمَاء الدّين ذمّيّ دِينِكُم** تحيرّ دلّوه بأوضَح حُـــجّـــــة

إذا ما قضَى ربّي بكُفري بزعْمكُم** و لمْ يرضَه منّي فما وجْه حِيلتي

قضَى بضَلالي ثم قال : ارضَ بالقضا **و هلْ أنا راضٍ بالذي فِيه شِقْوتي

دعَاني و سدّ البابَ دُوني فهلْ إلى** دُخولي سَبيل بيّنُوا لي قضيّتـــي

إذا شاء ربّي الكُفر منه مَشِيئة** فهلْ أنا راضٍ باتّباع المَشِيئـــــة(1)

تتضمن هذه الأبيات تشكيكا واضحا في العدالة الإلهية ، و ما هي إلا صـــــدى لصيحات الفلسفة القائلة : هل الإنسان مخير أم مسير ؟ و هل أفعاله بإرادتـــــه أم مفروضة عليه ؟ و الذمي يؤمن بالأخيرة فكيف يسبق في كـــــتاب الله أنه كافر ثم يحاسب على كفره و يطالب بالتسليم بالقضاء الذي فيه شقاؤه؟

---

*- المسألة التي أثارها هذا الذمي كانت من المسائل المنتشرة عند القدرية في المشرق ، ففي الأخبار أن قدريا سأل ابن عباس قائلا : لي مولى قادر على هدايتي و عصمتي و إرشادي فمنعني الهداية و العصمة ، أليس قد ظلمني و أساء إلي ؟ ..- ينظر : حز الغلاصم في إفحام المخاصم : شيث بن ابراهيم المعروف بابن الحاج القفطي – تح : عبد الله عمر البارودي : 55 و ما بعدها

1- ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية : عبد الحميد عبد الله الهرامة : 94

و قد أجاب هذا الذميّ الشيخ ابن لب[*] فقال :

قضَى الربّ كفرَ الكافِرين و لم يكن **ليرْضاهُ تكلِيفا لدَى كلّ ملّة

نهَى خلقَه عمّا أرادَ وقوعَه و انفاذه و المُلك أبلغُ حجّة**

فنرضَى قضَاء الربّ حُكْما و إنّماكراهتُنا معْروفَة للخَطيئَة**

دعَا الكلّ تكلِيفا و وفّق بعضَهم فخصّ بتوْفيق و عمّ بدعْوة**

فتعْصَى إذا لمْ تنتَهجْ طرق شَرعه **و إن كنتَ تمْشي في طريق المَشيئة

و مَا لمْ يُردهُ الله ليسَ بكائن **تعالى و جلّ الله ربّ البريّة (1)

إن الله تعالى – و هو العدل- دعا الناس جميعا لعبادته و أرسل إليهم الرسل مبشرين و منذرين ، و إن كان وفق بعضهم إلا أن الدعوة إلى الله كانت عامة بلا استثناء ، كما أن الله تعالى أمرنا باجتناب المعاصي، فكيف يعصى الإنسان و هو يعلم أن معصيته ستؤدي به إلى الهلاك ، ثم يعلق كل شيء بالمشيئة الإلهية ؟ (**)

هذا جانب من الحوار الذي كان دائرا بين المسلمين و النصارى ، و قد انتهج حينا طريقة الجدل المعتدل بلا تجريح أو تعريض ، و هو ما وقفنا عليه ، وعمد حينا آخر إلى الطعن و المكابرة ، و السب و القدح من قبل اليهود و النصارى

---

*- فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي الغرناطي ، نحوي من الفقهاء العلماء ، انتهت إليه رياسة الفتوى في الأندلس
- الأعلام : 5: 140 .

1- المرجع السابق : 95

**-نظم أبو الحسين الحضرمي المرادي أبياتا في المعنى نفسه الذي نظم فيه الذمي ، و لكن فرق بين مسلم راض بقدره و ذمي متذمر منه ، يقول : علمي بقبح المعاصي حين أركبها ** يقضي بأني محمول على القدر
لو كنت أملك نفسي أو أديرها ** ما كنت أطرحها في لجة الغرر
..و كان في علم ربي أن يعذبني ** فلم أشاركه في نفع و لا ضرر
يا رب عفوك عن ذنب قضيت به ** عدلا علي و هب لي صفح مقتدر
- برنامج شيوخ الرعيني : 85

على حد سواء(*) كما سنرى فيما يأتي .

ب ـ *الرد على الآخر* :

فرض حب الأندلس على الأندلسيين أن يتعايشوا فيما بينهم مهما كانت أديانهم " فضرورات الحياة في أحايين كثيرة تضطر الجميع إلى التسامح ، و في بعض الحالات إلى التلاقي و التعاون " (1) ، وهكذا فعلوا و لم يُسمع بمن يجهر بالطعن في الأديان حتى أقدم ابن النغريلة(**) علانية على الطعن في القرآن ، مظهرا عداء اليهود التقليدي للإسلام .

رد ابن حزم على ابن النغريلة :

قرب ملوك الطوائف اليهود منهم و استوزروهم ، و كان يوسف ابن إسماعيل بن النغريلة ممن استوزرهم باديس الغرناطي و أكرمهم و أنزلهم منزلة عالية(***) ، إلا أنه لم يتوان في إظهار كرهه للإسلام حيث ألف كتابا يسخر فيه من المسلمين ، و يتطاول على كتاب الله زاعما أن ثمة تناقضا في القرآن فانبرى ابن حزم الأندلسي للرد عليه .(****)(2)

---

*ـ لم يعرف المجتمع الأندلسي التعصب الديني من جانب المسلمين ، فقد تركوا لأهل الكتاب حرية العقيدة و التعبد ، بل إن كثيرا من اليهود و النصارى تقلدوا مناصب مهمة في الحكم ، و كثيرا ما كانت تحدث خلافات بين مسلم و مسيحي من الجند فيحكم غالبا للمسيحي – ينظر : الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه : مصطفى الشكعة : 75 ، و غابر الأندلس و حاضرها : كرم علي : 38

1ـ دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة " الطاهر أحمد المكي : 43

**ـ ورد في مغرب ابن سعيد : ابن نغرله و في ذخيرة ابن بسام : ابن النغريلى و عند دوزي : ابن نغداله وفي الأصل المخطوط من رسائل ابن حزم ابن النغريلة – ينظر : رسائل ابن حزم – تح : إحسان عباس : 07

***ـ " ذهب كثير من الناس إلى أنه لم يكن على دين آبائه و أجداده ، و أنه كان مستهترا يحتقر الأديان جميعا [خاصة] الدين المحمدي [الذي] كان يجهر بالغض منه ، و يعيب أحكامه " – ملوك الطوائف : دوزي : 163

2ـ ينظر : البيان المغرب : ابن عذاري : 3 : 265 ، هذا و قد تضاربت الآراء حول من سخر من المسلمين أهو إسماعيل أم يوسف ؟ و لكن المؤكد أن من قتل بسبب ثورة العامة هو يوسف ، انظر كذلك :

Al-bayano ' L- mogrib . par : Ibn –Adhari (de maroc) . R.P.A.Dozy : 1 :90-91

****ـ"لم تكن مناظرة ابن حزم لابن النغريلة هي الأولى له،فقد ناظر الطبيب الإسرائيلي إسماعيل بن يونس و دعاه للإسلام،كما أنه ناظر كثيرا من اليهود و لكن لم تسعفنا المراجع في توثيقها "– ابن حزم و جهوده في الرد على اليهود:121

و من جملة ما اعترض عليه اليهودي قوله تعالى " و إن تُصِبْهم حَسَنَـــــــــةٌ يقولـــــــوا هَذه منْ عِندِ الله و إنْ تُصبْهم سَيِّئة يقــولوا هَذه منْ عِندكَ "(1) ، فأنكر في هذه الآية تقسيم القائلين بأن ما أصابهم من حسنة فمن الله ، و ما أصابهم سيئة فمن عند محمد و أخبر أن كل ذلك من عند الله ... و يواصل ابن النغريلـــــة قائلا : و في آخر هذه الآية " ما أصَابكَ مِن حَسَنة فمِنَ الله و ما أصَابكَ منْ سَيِّئة فمِن نفسِك " (2) .. فعاد مصوبا لقولهم و مضادا لما قدم في أول الآية "(3).

فكان رد ابن حزم أن الآية المذكورة مكتفية بظاهرها عن تكلف تأويل .. و لكــن جهله أعمى بصيرته .. و بيـــــــان ذلك أن الكفار كانوا يقولون : إن الحسنات الواصلة إليهم هي من عند الله عز و جل ، و إن السيئات المصيبة لـــــــــهم في دنيـــــــاهم هي من عند محمد عليه السلام ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك بأن الحسنات السارة هي من عند الله تعالى بفضلـــــــه على الناس ، و أن كل سيئة يصيب الله تعالى بها إنسانا في دنياه ، فمن قبل نفس المصاب بها بما يجـــــــني على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى " (4) .

و المسألة الثانية التي اعترض عليها اليهودي هي قوله تعالى :" أم السّماءَ بنَاها رفعَ سَمْكها فسَوّاها و أغطش ليْلها و أخرَج ضُحَاها و الأرضَ بعْد ذلك دحَاها أخرَجَ

1-سورة النساء ، الآية : 78
2- سورة النساء : الآية : 79
3- رسائل ابن حزم : تح إحسان عباس : 3 : 43
4- نفسه : 3 : 43

مِنْها ماءَها و مَرْعاها و الجبَال أرسَاها " (1) ، فذكر في هذه الآيـــــــــة أن دحو الأرض و إخـــــراج الماء و المـــرعى منها كان بعد رفع سمك السماء و بعد بنائها و تسويتها .. ثم قال في آية أخرى " هُـــــو الذي خَلق لكُم ما في الأرض جَمِيعا ثم اسْتوى إلى السّماء فسَواهُن سَبْع سَمَاواتٍ و هُو بكلّ شيء علِيم"(2) .. فذكـــــــــر في هذه الآية ضد ما في الأولى ، و ذلك أن هذه التسوية للسمـــاء كانت بعد خلق ما في الأرض " (3) .

و رد ابن حزم فقال : أخبر الله تعالى أن تسوية السماء جملة و اختراعـــها كان قبل دحو الأرض ، و أن دحوه الأرض كـــــان قبل أن تقسم السماوات على طرائق الكواكب السبع، فلاح أن الآيتين متفقتان يصدق بعضهما بعضا " (4) .

و المسألة الأخرى التي اعترض عليها ابن النغريلة ، قوله تعالى " قـــــــلْ أئنّكُم لتكفُرونَ بالذي خَلق الأرضَ في يَوميْـــــــن " إلى منتهى قوله في الآية نفسها : " و قدّر فِيها أقوَاتَها في أربَعَة أيّام سَواء للسّائلِين " (5) ، فذكر في هذه الآية خلق الأرض في يومين، و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام فهذه ستـــــة

1- سورة النازعات : الآية : 27 إلى 32
2- سورة البقرة : الآية 29
3- رسائل ابن حزم : 3 : 46
4- نفسه : 3 : 46-47
5- سورة فصلت : الآية : 10

أيام ، ثم ذكر قوله تعالى " فقضاهُنّ سَبْع سَماواتٍ في يَومَين " (1) ، ثم ذكر قوله تعالى " و لقدْ خَلقْنا السّمَاوات و الأرض و ما بيْنَهُما في سِتّة أيّامٍ " (2) (3) .

- رد ابن حزم : هذه الآيات تكتفي بظاهرها عن تكلف تأويل لـــــها .. فسّر لنا تعالى تلك الأيام الستة فمنها يومان خلق فيهما الأرض و منها أربعــة أيـــــام قـــــدر في الأرض أقواتها ، و أنه تعالى قضى السماوات سبعا في يومين و قد صح بما تلونا قبل ، أن تسويتـــــــه تعالى السماوات سبعا ، كان بعد خلقه لما في الأرض جميعا " (4) ، و يتعجب ابن حزم من اعتراض اليهودي على هـــذه الآيات المحكمـــات ، و في كتابهم المزوّر يقولون " إن الله تعالى خلق الخلق في ستة أيـــــــام و استراح في اليوم السابع ، و هل تكون الراحة إلا لتعب و نصب قد خارت قواه و ضعفت طبيعته ؟ " (5) .

و يعترض ابن النغريلة على مسألة أخرى ، وهي وصف الله تعالى العســـل بأن فيـــــه شفاء للناس ، فقال و كيف هذا و هو يؤذي المحمومين و أصحاب الصفراء المحترقة ؟ (6)

- رد ابن حزم : إن الله تعالى لم يقـل العسل شفـــــاء لكل علة ، و إنما قال تعالى فيـــــه شفاء للناس و هذا لا ينكره إلا رقيع سليب العقل .. [و] قد وجدنا

1- سورة فصلت : الآية : 12
2- سورة ق : الآية : 38
3- رسائل ابن حزم : 3 : 47
4- نفسه : 3 : 48
5- نفسه : 3: 48
6- ينظر : م ن : 3 : 55

في اختلاطهم الذي يسمونه (التوراة) عن الله تعالى .. أنه إذا بلغ الغاية في مـــدح أرض القدس التي وعدهم بها قال : ألا إنها أرض تنبع عسلا و لبنا ، ووعدهم فيها بأكل عسل الصخور ، أفترى إذ ليس في العسل شفاء أصلا إنما وعدهم تعالى بما فيه الداء و البلاء لا بما فيه الشفاء؟ " .[1]

و قـــد بلغ مجموع ما رد عليه ابن حزم ثمان مسائـــل ، و بعد أن فرغ منها جميعا انتقل إلى عرض الأباطيـــل التي تضمنتها التوراة المحرفـــة[*] و مما يجدر ذكره ، أن ابن حزم " لم يظفر برسالة ابن النغريلـــة ، و إنما ظفر برد عليـــها و هذا ربما دل على أن الزمن بين كتابة تلك الرسالة و صـــدور رسالة ابن حزم قد تطاول "[2] ، و لا يعني هـــذا أنه لم تكن هناك مناظرات بين الطرفين، و من ذلك مثلا تساؤل ابن حزم عن قـــول إبراهيم عليه السلام إن سارة أخته ، فقال ابن النغريلة : إن لفظـــة أخت في التوراة بمعنى القريبة فقال ابن حزم : يمنع من صرفنا هذه اللفظة إلى القريبة قولـــه : لكن ليست من أمي و إنما هي بنت أبي فوجب أنـــه أراد الأخـــت بنت الأم ، فغلط ابن النغريلة و لم يأت بشيء .[3]

فابن حزم أخـــذ بظاهر كلام إبراهيم عليه الســـلام في أن الأخت بنت الأم ،

1- رسائل ابن حزم : 3 : 55-56

*- خصص ابن حزم في كتابه " الفصل " مباحث أظهر فيها أخطاء و أغلاط التوراة و تناقضاتها .

2- نفسه : 3 : 19

3- ينظر : م ن : 3 : 17

و في صحيح البخاري "قال النبي – عليه الصلاة و السلام – قال إبراهيم لسارة هذه أختي و ذلك في ذات الله عز و جل "[1] ، فالأخت هـــــــنا تؤخذ بالمعاريض[*] لا بالظاهـــــــر فكلنا أبناء آدم و الله تعالى خاطب الناس ببني آدم ، و هذا ما أراده إبراهيم عليه السلام .

فابن حزم ، كما سبق ، اعتمد في رده على ابن النغريلة على الأخذ بالظاهـــــر، و ذاك مذهبه الذي لم يحد عنه في مناظراته كلها .

و كتاب ابن النغريلة ذاك جنى عليـــــــه ، فلم تكن الردود كافية لإطفاء غضب المسلميـــــن بعد أن تجرأ هذا اليهودي على دينهم ، و كانت قصيـــدة أبـــــــي إسحاق الإلبيري التي أججت النفوس للانتقام منه ، كفيلة بإسكات هذا الصـــــوت النشاز[**] ، و مما جاء فيها قوله :

و يضحَكُ منّا و منْ دينِـــــنا ** فإنّا إلى ربّنا راجعُـــون[2]

" و يبـــدو أن صوت رسالة الإلبيري قـد ظل قويـا في الصدور ، و لم يخفـت صداه لدى مسلـمي الأندلس فيمـا تلا ذلك من حقب ، لأن اليهـود كانـــــوا يشكلـــــون دائما مصدر توجس و إزعاج طيلة فترة الحكم العـربي الإسلامي

1- صحيح البخاري : 3 : 401

*- " في المعاريض مندوحة عن الكذب " ، و هي قريبة أيضا من التورية .

**- يقول غرسية غومث " لا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم ، فكهربت العزائم و دفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، و شحذت السيوف للقتل ، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة " – مع شعراء الأندلس و المتنبي : 105

2- ديوان الإلبيري : 111

بالأندلس "[1] ، و لم تفتر لهم همة إلا بعد أن لفظت الأندلس آخر أنفاسها[*] .

رد أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت 582هـ) على شبهات القسيس القوطي :

تصدى ابن عبد الصمد الخزرجي للقسيس القوطي الذي أراد أن ينصره من خلال تشكيكه في دينه ، فقد أرسل إليه رسالة شبيهة برسالة الراهب للمقتدر – الآنفة الذكر – فزين له تعاليم النصرانية و في الوقت نفسه أطلعه على ما يراه من نقائص في الإسلام ، و من جملة تلك الشبهات :

- شبهة أن الرسول قال لقومه إنه لن يموت و لكن سيرفع .

- شبهة أنه رأى كتابا لمسيلمة الكذاب لو رآه العرب لارتدوا عن الإسلام.

- شبهة نفي معجزات الرسول عليه السلام ..[2]

و كان رد الخزرجي كالآتي :

- الرد على الشبهة الأولى : بيّن القرآن الكريم أن جميع البشر ميتون و أن النبي عليه السلام كذلك ، قال تعالى " إنكَ ميّتٌ و إنهُم ميّتوُن "[3]، و قال عليه الصلاة و السلام " بين قبري و منبري روضة من رياض الجنة " .

- الرد على الشبهة الثانية : تساءل الخزرجي كيف علم النصارى بأحوال

1- في الأدب الأندلسي : أشرف نجا : 81

*- من اليهود الذين حاربوا الإسلام أيضا يهودا اللاوي المعروف في طليطلة بأبي الحسن اللاوي ، و هو صاحب كتاب " الحجة و الدليل في نصرة الدين الذليل " ، و يقوم على قصة خيالية لملك أراد اختبار الأديان فأبعد الإسلام لأن معجزة القرآن العربية التي لا يفهمها غير العرب ، كما أبعد النصرانية و أقر اليهودية ، و هي قصة موغلة في الخيال و هو مما لا يعتد به في المناظرة الدينية – ينظر :مقال الجدل الديني في الأندلس : عبد الله العسكر . م س

2- ينظر : مقامع الصلبان : الخزرجي : 93

3- سورة الزمر : الآية 30

مسيلمة و جهلتها العـــرب ، و كيف عرفوا بكتابه على بعـدهم و عميت عنـــه العرب ؟ ، و نقل الخزرجي كلام مسيلمة الذي يثير الضحك كقوله : يـــــــا ضفـــدع نقي ما تنقين أعلاك في السمـــــاء و أسفلك في الطين .. أ فبهذا الكلام يرتد المسلمون ؟

- الرد على الشبهة الثالثـــة : إن هناك معجـــزة لا تزال إلى الآن و هي القـــرآن الكريـــم الذي تحـــدى الله تعالى به الإنس و الجن ، و قـــد عجـــز أساطيـــــن الفصاحـــــة و أرباب الشعر أن يأتوا بمثله ، و شهدوا بأنه ليس كلام شاعـــر و لا ساحر ، ثم إن من إعجاز القـــــرآن أيضا إخباره بالغيب، كوقعة الـــروم و عودة المهاجرين إلى مكة.. و يورد الخزرجي معجـــــزات النبي عليه الصلاة والسلام كنبع الماء من أصابعه الشريفة ، و تسبيح الحصى في يده و نســـــــج العنكبوت في الغار و غيرها ..(1)

غير أن أكبـــر شبهـــة أثارها القوطي هي تلك الشبهـــة التي يثـــيرها أعـــداء الإسلام إلى اليوم ، و هي أن الدين الإسلامي انتشـــــر بقوة السيـــــف(*) بخلاف النصرانية ، وقد رد الخزرجي عليه بأن الدفاع عن العقيدة اقتضى استعمـــــال السيف ، كمـــــا أن الأنبياء من قبل استعملـــوه ، ثم يفند قوله بأن النصرانيـــة انتشـــرت بغير سيف، و كأنـــه نسي ما جـــاء في كتبهم مـــن أن أول دعـــوتهم

1- ينظر : مقامع الصلبان : 94 و ما بعدها .

*- شبهة انتشار الإسلام بالسيف أقوى الشبهات التي يثيرها أعداء الدين على مر الزمن ، و منها مناظرة فخر الدين الرازي لأحد النصارى في هذه المسألة – ينظر : مناظرة في الرد على النصارى : فخر الدين الرازي : 55 و ما بعدها .

كانت بسبب القتال مع اليهود ؟ كما أشـــار أيضا إلى قسطنطين الذي نشـــر النصرانية بالقهر .. و ما لاحظناه هو تنويـــع الخزرجي في أدلته، فهو يعتمد على الشواهـــد التاريخية حينا ، و يرد كـــلام الخصم عليه حينا آخر ، و ذلك بجعله في خط الدفاع بعد أن كان المهاجم.[1]

و من الواضح أن الحرب الكلامية على الإسلام اشتدت ضراوة تبعا لسقوط مدن الأندلس ، و كانت المناظرة من أنجع الوسائل لذلك ، فقد عمد القساوسـة إلى " بث شبهاتهم شفهيا بين المسلمين الذين ظلوا يعيشون في المدن الداخلـة حديثا في الاحتلال النصراني ، فكانوا يلتقون بالعامة و يشككونهم في عقيدتهم ... أما العلماء و طلبة العلم فكان رجال الدين النصارى يختلون بهم و يستجرونهم إلى المناظرة في مسائل يرونها كفيلة بخلخلة العقيدة الإسلامية في قلوبهم " .[2]

و من الذين تصدوا أيضا لشبهـات المسيحين " أبو مروان بن مسرة اليحصبي (ت 522 هـ) ، فلقد اجتمع أساقفة النصارى في طليطلة و اتفقوا على الكتابة إلى مروان هذا ..يثنون على النصرانية و يطعنون في الإسلام ، و [سبب تخيرهم له أنه كان] عالي الذكر ، رفيع القدر ، و تلقي مثله لرسالة من النصارى يكسبـها دعاية عريضة بين المسلمين ..فيترتب على ذلك تناقلهم لخبرها ، و تشوقهم إلى

1- ينظر : المصدر السابق : 189 و ما بعدها .
2- جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين و الموحدين : 378-379

النظر فيها ..[و قد بادر أبو مروان] بالرد عليها و أحسن الجواب ..و لم يكتف بذلك و إنما شفعها بقصيدة دالية نظمها في معنى جوابه المذكور " (*)(1) .

و من هؤلاء الذين نافحوا عن الإسلام قبل سقوط الأندلس ، " عبد الله بن سهل الغرنـــــاطي (ت 571هـ) ، [فقد أتيح له] الالتقاء برجال الدين و طلاب العلم النصارى القـــادمين من حاضرتهم طليطلة ، فجـــرت بينه و بين قسيسهم عدة مناظرات ، استطاع ابن سهل أن يعلو فيها عليه "[2] .

ومن الفقهاء الذين تصدوا للنصارى : الفقيه أبو الأصبغ بن زروال الشعباني الذي رد على قصيدة نقفور عظيم الروم (**) التي أساء فيها للمسلمين و مطلعها :

مِن الملك الطهر المسيحي رسالة *** إلى قائم بالملك من بني هاشم

فكان رد أبي الأصبغ بقصيدة ميمية مطلعها :

من الملك المنصور من آل هاشم *** سليل السّراة المُنجبين الأعاظم[3]

وتجدر الإشارة إلى أن رسالة نقفور هذه (***) لم تحظ بردود في المشرق ، غير أن أول من تصدى لها بالرد في الأندلس كان ابن حزم في قصيدة ميمية طويلة منها قولـه:

مِنَ المُحْتَمِي باللهِ رَبّ العَوَالِمِ *** وَ دِين رَسُولِ اللهِ مِن آلِ هَاشِـم

1- المرجع السابق : 392 و ما بعدها

*- عنوان الرسالة : ميزان الصدق المفرق ، من أهل الباطل و أهل الحق – بنظر : فهرسة ابن خير : 374

2-- المرجع السابق : 395

**- لم يكن نقفور المذكور معاصرا للناظم ، و إنما هو الإمبراطور البيزنطي نقفور(359هـ) الذي كان قد بعث للخليفة المطيع لله العباسي (ت 363هـ) القصيدة المذكورة آنفا – ينظر : جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى : 397

3- ينظر : فهرسة ابن خير الإشبيلي : 368

***- سمى ابن كثير رسالة ابن حزم " الفريدة الإسلامية في الرد على الأرمنية " ، و قد علق قائلا : لم يبلغني عن أحد من أهل ذلك العصر أنه رد عليه جوابه ، إما لأنها لم تشتهر و إما لأنه أقل من أن يردوا خطابه.. و قد انتحى للجواب عنها بعد ذلك أبو محمد بن حزم الظاهري فأفاد و أجاد – ينظر : مقدمة ديوان ابن حزم تح : صبحي رشاد عبد الكريم .

مُحَمّد الهَادي إلى الله بالتُّقى *** و بالرُّشْدِ وَبالإسْلاَمِ أَفْضَلِ قَائِم

..إلى قَائِلٍ بالإفْكِ جَهْلاً وَضلّة *** عَن النّقفُور المُفْتري في الأعَاجِم

..أَلَمَ نَنْتزِع مِنْكُم بِأعْظَم قُوّة *** جَمِيع بلاد الشَّامِ ضَرْبَـــــة لازِم

وَمِصْرا وَ أرض القَيْروان بِأسْرِها *** و أندَلُسَا قَسْرا بِضَربِ الجَمَاجِم[1]

و مضى ابن حزم يفاخر حينا بإنجازات المسلمين و يدافع عن الإسلام حينا آخر، و كما يبدو فإن أبا الأصبغ المذكور جرى على نسق الفقيه الظاهري في الرد على نقفور بدليل مطلع قصيدته التي تشبه إلى حد كبير مطلع قصيدة ابن حزم[*] .

رد القرطبي (ت 656هـ) على مزاعم النصارى و توهماتهم :

أبلى علماء الأندلس بلاء حسنا في الدفاع عن الدين و رد شبهات النصـــارى ، و من هؤلاء الذين تصدوا بالحجة و البرهان لمزاعم أهل الصليب ، الإمام أحمد بن عمر القرطبي الذي ألف كتابا[**] يرد فيه - كما يقول - " على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية سماه كتاب تثليث الوحدانية ، بعث بـــه من طليطلة أعادها الله إلى مدينة قرطبة حرسها الله ، متعرضا فيه لدين المسلمين ..سائلا عما لا يعنيه ، و متكلما بما لا يدريه " [2] .

1- المرجع نفسه : المقدمة

*- لم يصلنا من قصيدة أبي الأصبغ إلا البيت الأول المذكور أعلاه .

**- عنوان الكتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد و الأوهام و إظهار محاسن دين الإسلام و إثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة و السلام " ، و قد اختلف الباحثون حول نسبة الكتاب للقرطبي : أهو القرطبي المفسر أم قرطبي آخر ؟ فالمؤرخ الألماني كارل بروكلمن نسبه إلى القرطبي محمد بن أحمد بن فرح المفسر ، و كذلك فعل فرناندو دي لاقرانجا ، غير أن مجموعة من المحققين توصلت إلى نسبة الكتاب لأحمد بن عمر القرطبي كمحمد بن الشريفة و سمير قدوري و غيرهما – ينظر : إثبات نبوة محمد عليه الصلاة و السلام : أحمد بن عمر القرطبي،تح : أحمد آيت بلعيد : 5 و ما بعدها ، أما أحمد حجازي السقا محقق كتاب الإعلام فبدا غير متأكد من صحة نسبة الكتاب إلى القرطبي المفسر من غيره و إن كان قد نسبه في الأخير إليه – ينظر : مقدمة كتاب حوار الأديان في الأندلس : 7 و ما بعدها .

2- الإعلام بما في دين النصارى من أوهام : القرطبي ، تح : أحمد حجازي السقا : 1 : 1

فالقرطبي بين ،بداية، سبب تأليفه هذا الكتـــاب الذي كان ردا على ما أتى به ذلك النصراني من مزاعم تنقصها الدقــة و الفهم الصحيح ، ثم بدأ في عرض المسائل المثارة واحدة واحدة و نقضها بالدليل و البينة ،و من تلك المسائل مسألة " الواسطة بين الله و موسى"،يقول صاحب التثليث: "ثم نقول لمن ناظرني من بقية المسلمين إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله و كلمه تكليما فكيف كان ذلك و أنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من إدراكه في الدنيا و الآخرة لأنه لا مفطور و لا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام ؟ فإن قلتم إنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جارحة النطق ، و وقعتم فيما أنكرتموه من الجسم ، و إن قلتم إن الله خلق له كلاما فقد أثبتم كلاما مخلوقـــا قائما بخلقه جوهرا في نفسه .." (1) ، و الملاحظ أن النصراني أراد سد كـــل الأبواب أمام أي أحد تسول له نفسه أن يرد عليه ، فقد قدم الشبهـــة بين يديه ثم تصور كل الردود الممكنة من المسلمين و نقضها فلا يبق إلا كلامه هو .

و كان رد القرطبي كالآتي " أما قولك إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله و كلمـــه تكليما ، فكيف يسوغ لك أن تجنح بما أنت منكر لأصله و لا تعترف بأنه كلام الله؟ ...ثم نقول إن الله تعالى كلم موسى بكلامه الذي هو صفته و سمعه موسى بالإدراك الذي خلقه الله له ، و قولك كيف ظلم و حيف ..فالســـؤال بكيف هنا هو سؤال عن حال موجود يناسب حال السائل فإذا قلت كيف زيـــد ؟ إنما معناه على أي حال هو

1- المصدر السابق : 1 : 105

من الأحوال التي تناسب أحوالنا ..فإذا قلت كيف سمع موسى كلام الله فكأنك قلت على أي حالة سمع موسى كلام الله من الأحوال التي نكون نحن عليها حين يسمع بعضنا من بعض ..فتأدب مع الله "[1] ، و يمضي القرطبي في الرد على كلام النصراني في هذه المسألة مستنكرا حينا سوء أدبه مع الله و مستصغرا حينا آخر قلة فهمه ، كما وضح له ما التبس عليه بخصوص إلحاق جارحة النطق بالله تعالى بأن الكلام هنا لا يستدعي اللسان و اللهاة و لكنه " وصف قائم بذات الله تعالى ليس بحرف و لا صوت ، و هذا معقول مفهوم فإنا نحس من أنفسنا كلاما قائما بذواتنا فنتحدث به مع أنفسنا ليس بحرف و لا صوت و هذا مما يجده الإنسان من نفسه بالضرورة "[2] ، و الحديث بعد هذا طويل فيه من الحجج الدامغة ما ألجم لسان النصراني و أسكته .

1- المصدر السابق : 1: 106-107-108
2- نفسه : 1 : 108

الرد على شبهة الهندي :

يذكر ابن عبد الملك المراكشي قصة مفادها وصول كِتاب إلى مالقة من مصـــر، زعم أهلـــها أنه وصلهم من أهـــل الهند ، و فيه تحذير من ريح عاصفة ستهب و سيهلك على إثرها ناس كثر[1] .

و تضمن هذا الكتاب قول أحدهم :

كُونُوا على حَذَرٍ بنيّ و ارتَقِبُوا *** كَواكِبَ الخَمْسِ في المِيزَان تَقْتَـــرن

مِنْ بَعْدِ عَامٍ ثمانين[*] القِرَان يُرى *** فَلاَ تَغرّنكُم الأشْغَال و المِهَـــــن

فَبعْدها سَتَهبُّ الرِّيح عَاصِفة *** تُبيدُ بعض بَني الدُّنيا و مَا سَكَنُـــوا

تَحَصَّنوا في كُهوفٍ في جِبَالكم *** شَهْرًا إذا مَا أتَاكُم ذلك الزَّمَـــن

فَلَيسَ يُنجي الوَرى مِنها إذا ظَهَرَت *** مِنَ الهَلاك حُصونُ الأرض وَ المُـدُن

فَإنْ أَعِشْ وَ شَهِدْتُ الحَالَ كُنت لَكُم *** نُوحًا إذ انتَشَأَت في عَصْرِه السُّفن

وَ إنْ أَمُت فافْعَلُوا ما قدْ أَمَرتكُم *** جهْدا فإنّ جَمِيع الخَلْق مَا فَطِنُـــوا

كُونُوا على حَذَرٍ عَامَيْن و انتَظِروا *** فإنَّها في جَمِيع الأرْض تمْتَحـــــن (2)

لقد أنزل هـــذا الهندي نفسه منزلـــة الأنبياء فأخذ ينبئـــهم بما ينتظرهم من أهوال و خطوب ، كما راح يبشرهم بتوليه حمايتهم و إنقاذهم مشبها نفسه بنوح عليـــه السلام ،و في حال سبق أجله فقد ترك لهم وصية ما إن يستمسكوا بها فلن يهلكوا !

1- ينظر : الذيل و التكلمة : 4 : 210

*- ادعي الهندي أن الكارثة ستحل من نصف ليلة الإثنين إلى نصف يوم الأربعاء من اليوم التاسع و العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين و ثمانين و خمسمائة للهجرة – ينظر : الذيل و التكلملة : 4 : 211

2- نفسه : 4 : 210-211

و يبدو أن هذه الترهات فعلت فعلها ، إذ راح بعض ضعاف النفوس يحفـــرون الخنادق ليعتصموا بها من ذلك الهول ، الأمر الذي حرك الفقيه أبا الـحجاج ابن الشيخ فقال :

سُبْحانَ مَن يَعْلَمُ الأشْيَاء قَاطِبَة *** فَعِنْدَهُ يتسَاوَى السِّرُّ و العَلَـن

هُو العَلِيمُ الخَبِيرُ الحيُّ جَلَّ فلا *** يَعْرُوه سَهْو و لا نَوْم و لا وَسَـن

وَ يعْلَمُ الغَيبَ لم يُطلِع بَرِيَّته *** عَلَيه فهو لَدَيه الدَّهر مُخْتَـــــزن

حَتّى النّبيُّون لا يَدْرونَ مَا بِغَدٍ *** إلا بوَحْي فَهُم أن يَعْلَمُوا قمـــــن

وَ هَذه حِكْمَة لَوْ لَمْ تكُن فَسَدَت *** أمُورنا و اعْتَرانا الضُّعفُ و الوَهن (1)

استهل أبو الحجاج رده بالتسبيح و التصديق بقدرة الله و علمه و تفرده بعلم الغيب ، كمقدمة لدحض ادعاءات هذا الهندي ، مبينا له و لمن صدقه أن الأنبياء أنفسهم لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم عليه الله تعالى ، و له حكمة في ذلك فلو أن النـــاس علموا ما ينتظرهم من أتراح و أفراح لوهنوا ...

ثم يناديه بصريح اسمه فيقول :

و أنتَ يا أيّها الهنديّ فُهْتَ بما *** يردّهُ العقلُ و القرآنُ و السّنـــنُ

أخبَرتَ أنْ ستَهبّ الرّيحُ عاصِفةً *** تُبيدُ بعضَ بنِي الدّنيا و ما سَكَنُوا

تكونُ يومَ كذا مِن شهْر عامِ كذا *** كذبتَ أنتَ لعَمْرُ الله مُفْتَتِـــنُ

... جَعلتَ للنّجمِ تأثيرًا فأنتَ به *** مُصدّقٌ و لقولِ الله مُمْتهـــــن (2)

رد أبو الحجاج على هرطقات هذا الهندي بأن ما جاء به لا يصدقه عقل و لا دين ،

1- المصدر السابق : 4 : 212

2- نفسه : 4 : 212

كيف و هو يستعين بنجم ، لا حول له و لا قوة ، فيصدقه و يمتهن كـــــلام الله ؟

و يواصل قائلا :

مِنْ أين تعلمُ ذا يا مُدّعي الغيْب في *** شعر ركيك يجَهْد النّفس يَتّزنُ (1)

نطقتَ بالكُفر فاسْكت فضّ فُوكَ فما *** تُصغِي لمَا تدّعي مِن باطل أذُن

تساءل الفقيه في تعجب عن مصدر غيبيات هذا المدعي ، و الأدهى من ذلك أنه قال ما قال في شعر ركيك لم يستقم له إلا بشق الأنفس ، فهو إذن استوجب الكفر و إن كان يبحث عن الشهرة و التفاف الناس من حوله ، فلا أحد أعــاره أدنى اهتمام .

و يتعجب أبـــــو الحجاج من علم الهندي بالغيب الذي كان النبي عليه الصلاة و السلام و بعده الصحابة الكرام بعلمه أولى، فيقول :

تُرى الرّسُول مَضَى لَمْ يَدْرِ ذَلِكَ أمْ *** دَرى وَلَمْ يُخْبِر الصّحْبَ الذينَ فَنُوا ؟

أم الصّحَابة لمْ تُخْبِر بِذَلِكُم *** للتّابِعِينَ وَ كلّ القَوْم مُؤْتمَـــــــــــن ؟ (2)

حَاشَاهُم أنْ يكُونُوا كَاتِمِينَ لِـمَا *** فِيه الصّلاح لَنَا : قَبِيحٌ أو حَسَـــــن

و يختم فيقول :

لا يعلمُ الغيبَ إلا الله مُنفردا *** أمّا النبيّون لولا الوحْي ما فَطِنُـــــــوا

هذا اعْتقادِي و أهلُ الحقّ كلّهم *** عليه و هو السّبيلُ الرّحْب و السّنن (3)

...يقولُ ذلِكُم ابن الشّيخ يُوسف *** وَ اللهُ المُوفّق و الهَادِي لَهُ المِنَـــن

1- المصدر السابق : 4 : 212

2- نفسه : 4 : 213

3- نفسه : 4 : 213

رد الفقيه و كله يقين أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، و ما أطلع أنبياءه عليه من غيبيات فمن باب الوحي و لولا ذلك ما علموا منه شيئا ، فالتصديق الخالص بأن علـــــم الغيب لله وحده هو اعتقاد كل مسلم هدي إلى الطريق المستقيم .

و بقدر ما أرعبت قصيـــــــدة الهندي بعض الناس ، أعادت قصيدة أبـــي الحجاج الاطمئنان إلى نفوسهم ، و بخاصة بعد مجيء الوقت الموعود و لم يحدث ما حدّث به ذلك الأفّاك (*) .

بهذه الطريقة الحجاجية استطـــــــاع أبو الحجاج رد الناس إلى جادة صوابهم ، و صرفهم عن تصديق تلك البدع و الخزعبلات الآتية من أقصى الشرق لتضرب الدين في الديار الأندلسية .

---

*- نظم أبو الحجاج قصيدة أخرى في هذا المقام يدعو فيها الناس إلى حمد الله ، و مما جاء فيها :

يا أيها الناس اشكروا ربكم ** لم يك لا خسف و لا ريح
و كذبة الهندي لم تتفق ** و كان ما قد قاله الريـــــــح
..الحمد لله الذي عنده الخير و من رحمته الريـــــــــح

- المصدر السابق : 4 : 213-214

المبحث الثالث : مناظرات شعوبية :

وجدت الشعوبيـــــــة أرضا خصبة في المشرق لتعدد الأجناس من جهة ، و ظهور فئة المولديـــــــن من جهة أخرى ، لاسيما في العصـــر العباسي حيث كان للأعاجم صولة، و على رأسهم الفرس " و لا نعتقد أن الصـــــــراع الذي كان بين المنصور و أبي مسلم ، و الرشيـــــد و البرامكة صراع سببه المنافسة فقط كما توحي بعض كتب التاريخ ، و إنما هو شعور الأعاجم بأنـــــــــــهم أصحـــــاب الفضـل و أنهم هم الأصل عـقلا و فكـرا و حضارة "[2] ، فالشعـور بالتفوق أدى إلى احتقـــــــــار العرب مما أجج النزعة الشعوبية ، و كان الأدب أفضل وسيلة يعبر بها هؤلاء الشعوبيون عن نزعاتهم ، و الجاحظ مـــــــــثلا ألف كتـــــاب البخلاء ليس لأن ظاهرة البخل أصبحت تخيفـــه بل لأن" المسألة تتعلق بصـــــراع بين نوعين من الأخلاق ؛ أخلاق العـــرب و قـــد جـبلوا على الكرم و البذل ، و أخلاق الأعاجم و قد طبعوا على حبس المال و البخل"[3] .

و قـــــــد أظهر المولدون عداء شديدا للعنصر العربي ، و لم يتوانوا عن الغض منه كلـــــما سنحت الفرص ، و في مقابل ذلك كانـــوا يمجدون العنصـــــــر

1- ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية: عبد الحميد الهرامة : 76
2- الصراع الأدبي مع الشعوبية : محمد علي الخطيب : 21
3- نفسه : 34

الأعجمي و يتباهـــون به كما فعل بشار بن برد (*) ، و أبو نواس (**) و غيرهـــــما .

فهل كانت الأندلس بمنأى عن الشعوبية ؟

يذهب الأستاذ فوزي العيسى إلى أن مشكلة الشعوبيـــــــــــة كانت موجودة في الأندلس بالنظـــــر لتعدد الأجـــناس ، و وجود طبقة المولدين (1) ، على حين يـــــــرى الأستاذ مصطفى الشكعة أن العصبية لم يكن لها مكان في الأندلس ، و من أجج نارها إنما هو ابن غرسية (2) ، و نحن نرجح الرأي الأخيـــــــــر ؛ فالأندلسيـــــــــون على الرغم من أن أغلبهم ليسوا عربا أقحاحا، فإننا لا نجد شاعـــــــرا منهم يشيد بأصله الأعجمي كما فعـــل بعض شعراء المشـــــرق (***) ، و على العكـــس من ذلك نجد الكثيرين منهم يتبـــاهون بالأصـــل العربي و إن لم يكونـــــوا كذلك . أما أكثر الفتن التي عرفتها الأندلس فكانت بداعي السياسة و التنافس على الرئاسة ، و لعل الرسالة الوحيدة التي حفظتها كتب التاريخ هي: **رسالة ابن غرسية** : و قـــــد خاطب فيها ابن الجزار (****) محتقـــرا العرب و مثنيا

---

*- كان بشار بن برد يهجو خصمه بالتعرض لنسبه العربي مفتخرا بالأصل الأعجمي – ينظر : تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري : 376

**- قاد أبو نواس ثورته الأدبية المعروفة التي دعا فيها إلى استبدال المقدمة الخمرية بالمقدمة الطللية ، ليس حبا في الخمر بقدر ما هو الرغبة في محاولة تغيير النموذج العربي ، و من أشعاره في ذالك قوله :

لا تبك ليلى و لا تطرب إلى هند ** و اشرب على الورد من حمراء كالورد

و قال أيضا : عاج الشقي على رسم يسائله ** و عجت أسأل عن خمارة البلد- الديوان : 255-256

و جدير بالذكر أن الكميت بن زيد سبق، في هاشمياته، أبا نواس في الدعوة إلى ترك المقدمة الطللية ، و منها قوله :

طربت و ما شوقا إلى البيض أطـــــــــرب ** و لا لعبا مني و ذو الشيب يلعب

و لم يلهني رسم و لا دار منـــزل ** و لم يتطربني بنان مخضّـــــب – الديوان : 512

***- لقد " خفت صوت العصبية للعرق ، و لم يتجاوز حد المفاخرات الشعرية التي كانت بدورها قليلة ، و إذا كان أحمد بن دراج ينتمي في أصله البعيد إلى البربر ،فإننا لا نحس بصدى من هذه البربرية في شعره " – الخصوصية الأندلسية :27

1- ينظر : الهجاء في الأندلس : 80 ، ولئن قامت ثورات لبعض المولدين فإنها سرعان ما أخمدت .

2- ينظر : الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه : 81

****- ورد في الذخيرة : ابن الخراز – ينظر : 3 : 458 ، و لكن فوزي العيسى أثبت الاسم بالجزار مستدلا في ذلك بأبيات من الشعر هجا فيها ابن غرسية ابن الجزار – ينظر : رسائل أندلسية : الهامش 114-115

على العجم (*)، و مما جاء فيها قوله " أحسبك أن أزريت و بهذا الجيل النجيب ازدريت ، و ما دريت أنهم الصهب الشهب ليسوا بعرب ذوي أينق جرب ، بل هم القياصرة الأكاسرة ، مجد نجد بُهم ، لا رعاة شويهات و لا بَهم ، شغلوا بالماذي (**) و المران عن رعي البعران ، و بجلب العز عن حلب المعز

..... أمّكم لأمّنا كانت أمَة ** إن تنكروا ذلك تّلفّوا ظلمَه

.. فلا تهاجر بني هاجر ، أنتم أرقاؤنا و عبدتنا ، و عتقاؤنا و حفدتنا ، مننا عليكم بالعتق ، و أخرجناكم من ربق الرق، و ألحقناكم بالأحرار فغمطتم النعمة، فصفعناكم صفعا يشارك سفعا اضطركم إلى سكنى الحجاز ، و ألجأكم إلى ذات المجاز .. بُصر صبر .. لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبحبحت عنهم سارة الجمال و الكمال ربة (***) الإياة .. شدهوا برنات السيوف عن ربات الشنوف (****) .. و بالأمر و الذمر (*****) عن معاقرة الخمر و الزمر " (1) .

فلم يدع ابن غرسية مذمة و لا نقيصة إلا نسبها إلى العرب " و واضح أنه يردد كثيرا من المثالب التي اتكأ عليها دعاة الشعوبية في المشرق كوصف العرب بالغلظة و الجلفة ، و امتهان المهن الحقيرة و الانغماس

---

*- إن احتقار العجم للعرب لم يكن وليد الفترة العباسية – و إن كثر فيها – بل ظهر قبلها بقرون ، و من ذالك مناظرة النعمان بن المندر و كسرى أنوشروان الذي رمى العرب بكل صغيرة ، و سلبهم مكارم الأخلاق وأسبغ عليهم مساوئها ، فرد عليه النعمان ردا عجب له كسرى و أعجب – ينظر : جواهر الأدب : الهاشمي : 1 : 135

**- الماذي : كل سلاح من حديد ، و المران : الرماح الصلبة .

***- الإياة : إياة الشمس : نورها و حسنها .

****- الشنوف : الأقراط تلبس في أعلى الأذن .

*****- الذمر : الحث على القتال .

1- الذخيرة : 3 : 458-459-460

في الشهوات و معاقرة الخمر "[1] ، و يواصل ابن غرسية في احتقار العـــــرب واصفـــــا إياهم بالعبيد و أبناء الزنا و الصعاليك الذين لم تسعـهم أرض ، و ما استقروا إلا بتفضل العجـــم عليهم ، ثم أين هم من " ذوي الآراء الفلسفيـــة الأريضية ، و العلـــــوم المنطقية الرياضية ..القومة بالموسيقى و الفوطيقا ، و النهضة بعلوم الشرائع و الطبائع ، و المهرة في علوم الأديان و الأبدان "[2] .

لقـــــد أفاض ابن غرسية في ذكر مفاخر العجم،و في مقابل ذلك احتقر العرب غاية الاحتقار فنسب إليهم كل الصفـــات الذميمة و الأخلاق الوضيعـــة ، و أنزلهم منزلة الحيـــوان بل أدنى من ذلك .. ثم إنـــــه أعلن ، اتقاء لثورة العامة ، أنه يستثني من العرب النبي العربي محمدا عليه السلام فقال " لكـــن الفخـــر بابن عمنا الذي بالبركـــــة عمنا ، الإسماعيلي الحسب الإبراهيمي النسب[3] ، الذي به إنـــــما انتشلنا الله تعالى و إياكم من الغواية و العمايـــة " ، و لعله نسي قول القائـــل " من أحب الله أحب رسوله المصطفى عليه السلام، و من أحب الرسول أحب العرب ، و من أحب العرب أحب اللغة العربيـــة التي بهـــا نزل أفضل الكتب على أفضل العرب و العجم "[4]،و لقد حركت هذه الرسالة التي استفزت مشاعر المسلمين ألسنة الغيورين على دينهم،فإنما طعـن

1- الهجاء في الأدب الأندلسي : فوزي العيسى : 86
2-الذخيرة : 3 : 462
3- نفسه : 3 : 462-463
4- فقه اللغة و سر العربية : 10

ابن غرسية في العرب ليطعن في الدين[*] ، و لقد ذكرت كتب التاريخ أن الردود على هذه الرسالة المغرضة استمرت على مدى قرنين من الزمن[**]،و ليس غريبا فرسالة مثل هذه تحمل كل أنواع القذف و القدح و التعريض،حريّة بأن يرد عليها بعشرات الرسائل،و لعل الكثير منها ضاع فيما ضاع من تراث الأندلس الوفير .

رد أبي يحي بن مسعدة (ت 572هـ) :

استهل ابن مسعدة رده بالانتقاص من شأن ابن غرسية ، و قد أبدى تعجبه من هذا الرجل الذي هاجم العرب بلغتهم ، و استشهد بأشعارهم ، و كان أولى به أن يتكلم بعجمته و رطانته ، ثم أخذ في احتقار الأعاجم قائلا" يا تبعة المجوس .. و عبدة التثليث و شردة أجزاء الثالوث .. كفى ما بين الملكانية و النسطورية من فساد الوضع ، و اختلاف في الأناجيل الأربعة بغير إسناد و لا قطع ، لهؤلاء جزء من الإله و لهؤلاء جزء .. أحقر بأمة لم تنقذ معبودها من الجذع .. و هات الحديث عن مريم ثالثة آلهتكم .. ما لكم قذفتموها بإنكار المهد قبل قذفها بيوسف النجار؟ .." [1] .

---

*- كانت النزعة الشعوبية في ذلك العصر " موجة من موجات الحملات الفكرية المحاربة للإسلام ، فالعرب هم الذين شع في وسطهم نور الدين الإسلامي ..وانتقاص قدرهم و احتقار شأنهم يعد ضربا من ضروب الهجوم على الإسلام ، بينما تعظيم العجم في المقابل إنما هو في حقيقته رفع من شأن النصرانية " – جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين و الموحدين : 278

**- ينظر : المرجع نفسه : 417 .هذا و قد ذكر ابن بسام في ذخيرته ثلاثة ردود لـ : ابن عباس و القروي و ابن الدودين ، أما فوزي العيسى فذكر أربعة ردود لـ:ابن مسعدة و القروي و ابن الدودين و مجهول ،و أما ابن خير الإشبيلي فأشار إلى رد ابن أبي الخصال في رسالة سماها " لمحة البارق " ، و من جهته أشار ابن عبد الملك المراكشي إلى رسالة أبي العلا القرطبي ، كما أتى ابن الأبار في التكملة على ذكر رسالة أبي مروان الأوسي ، و قد بلغ مجموع الردود على ابن غرسية مما حفظته كتب التاريخ سواء بذكر العناوين أو المتون كاملة أحدى عشرة رسالة – ينظر : المرجع نفسه : 417

1-رسائل أندلسية : فوزي العيسى : 137-138-139

لقد بين ابن مسعدة التناقض الواضح في شريعة النصارى ، و السفاســـــف التي يأتون بها عن آلهتهم ، فمن أولى بالانتقاد ؟

و يعقب على افترائه على أمنا هاجـــــر فيقول " و هبك هاجر أمة ، بخ بخ .. نكاح أم سفاح ؟ .. الفعـــــل السوء يبدأ بأمه في الفـــــرق بين السرارى و المهيرات (*) .. و أبنائهن الأنبيـــــاء و الخلفاء و الســـادة السراة ، ما يرفع الالتباس و يعرف بمنجبات الناس ، و سل عن سبط داود و سليمـــان ، و بني عبد المطلب و خلائفهم بني العبـــــاس ، على أن العرب لا تترجح للأمهات و لا تتبجح بذكر الحرمات " (1) .

و يتساءل ابن مسعدة قائلا " أين بناة الصروح و نماة السروح ، بل عصمـــة السفوح و لعقة الدم المسفـــوح ، متى ملكوا الأرضين ، أو أعطوا من جزيرة العرب ما رضين ؟ أ بعد أن استباحتهم الحبشان ، و ضربت عـــليهم الجزية و كانت أول خراج بالزمان ؟ .. أخدموكم بيوت النيـــران ، و قدموكم للحرث مع الثيران .. سواس الخنازير و حراس المجازير "(2)، فلما ادعى ابن غرسيـــة أن أجداده أشراف النسب و ورثة الملك ، كذبـــــه ابن مسعدة كاشفا له صفحات من تاريخ العجم الأسود .

رد أبي الطيب عبد المنعم القروي(ت 493هـ) :

---

*- السراري : الإماء و الجواري ، و المهيرات : الحرائر .

1- رسائل أندلسية : 140-141

2- نفسه : 149

افتتح القروي رده بامتهان ابن غرسية و احتقاره ذلك أنه ماكر جاحـــــــد ، يقول " أما كانت للعـــــــرب يد تشكرها و منة تذكرها ؟ أما جبرت نقيصتك ، أما رفعت خسيستك ؟ .. ألم تربّك فينا وليدا ؟ ألم تتخذك لها تليـــــــدا ؟ .. أما أنطقتك بعد العجمة ؟ أما أسلقتك عقب اللكنـــــــة ؟ .. هات أرنا مفاخرك نرك مساخـــــرك ، أنت صاحب الشهب الصهب و السنة شهباء ، و الجهام صهباء كذلك أنتم لا خيـــــر و لا مير .. ليس للسخـــــاء في الرومية اســـم ، ولا للوفـــــاء في العجمية رسم ، أين أنت عن السمر القمر .. قمم في الغمائـــم و همم في الغمائم ، سعروا عليكم نار الحـــرب بتلك الأينق الجرب ، فكسروا أكاسرتكم ، و قصروا قياصركم .. وطهـــروا الأرض المقدسة من أنجاسكم ، و المسجد الأقصى من أرجاسكم " [1] ، بين القروي جحود هـــــذا الرجل الذي أكرمته العرب فهجاها بشعرها و عيرها بلغتها ، ثم وضح له أن كل صفـــــة أسبغها على قومه هي في الحقيقة نقيصة لهم فهـــــو " يستخدم طريقة توجيه السلاح إلى نحر صاحبـــــــه ، فهو يقلب كل الأمجاد التي تغنى بها بتأويلها تأويلا يخالف ما ذهب إليه " [2] ، و لم ينس أن يذكره بالعـــــرب الأشاوس الذين أطاحوا بكسرى و قيصر، و الذين كان العجم يفـــــرون منهم إذ يقول " أليس شعاركم : الهـــــرب الهرب ، هذه العـــــرب .. عطفوا مغربين .. فما تركوا

1- الذخيرة : 3 : 470
2- النثر الأدبي في الأندلس : علي بن محمد : 2 : 549

من الأعاجم عاجما و لا ناجما .. حتى طرقكم طارقهم في هذا الطـــــــرف ، و رشقكم راشقهم في هذا الهدف ، و اقتحموا عليكم هذه البلاد فأوطأوها.."[1]

و يستمر القروي في نقض ادعاءات الشعوبي قائـــــلا :" فخرت بالرياضية و الأريضية ، صدقت .. هي كالرياض سريعة الذبول كثيرة الخبـــــول ... و كالأرض الأريضة ذات العرصة العريضـــــة ، لا بناء فيحل ، و لا فنـاء فيظل .. أما أقسام الطب للأجسام فقد جمعته العـــــرب في كلمتين ، فقالـت : المعدة بيت الداء و الحمية رأس الـدواء .."[2] ، ثم يذكر بـــــاقي العلوم التي فخر بها ابن غرسية فيقلل من شأنـــــها ، بـل و يتبرأ من بعضها كالموسيقى التي كان أول معلم لها إبليس[3] ، و يختم كلامه بحديث طويل عن أباطيل دينهم .

و لعـــــل هذا الرد هو أقوى الردود على تلك الرسالة ، ذلك أن القـــــــروي تعرض بالتفصيل لما ذكر من مثالب للعرب ، و دحض أكاذيب ابن غرسية الذي ألصق بالعجم صفـــــات ليست لهم ، و أحسن مـــا في الأمر طريقـــة القروي في رده هذا إذ عمد إلى " أجمل ما عند صاحب المقالة .. [ليجعل] منـــــــها منافذ تقود إلى عيوب العجم و مخازيهم "[4] .

المبحث الرابع : مناظرات الموريسكيين :

إن تعرض الموريسكيين لشتى أنواع الأذى من قبل محاكم التفتيش ، لم يثنهم

1- الذخيرة : 3 : 471-472
2- نفسه : 3 : 478 -479-480
3- نفسه : 3 : ينظر : 480 و ما بعدها .
4- النثر الأدبي في الأندلس : 2 : 549

عن الدفاع عن هذا الدين و لو خارج الأندلس[*] ، يشهد بهذا منـــــاظراتهم مع اليهود و النصارى في البلاد التي حطوا الرحال بها مطرودين أو مرتحليـــن . و لقد ذكرت المصادر بعضا من مجادلات الموريسكيين مع الإسبان، و منـــــها أن "عالما أندلسيا يدعى محمدا الأنصاري[**] كـــان ينتقل بين مجالس المناظرات في المـــــدن الإسبانية يحـــــاور القسس و الرهبان و الوعاظ النصارى ، ثم يجمع مناظراته في باب من مؤلفه " رسالة السائـــــــل و المجيب و روضـة نزهـــــة الأديب " و قد أشـــــار الأنصاري في مستهل ذلك الباب إلى دواعي تأليفه و ظروف المناظرات و تلبيس النصارى ، و مكابرتهم و خلطهم المعقـــول بالمنقول ، و اعتمادهم على بيان نصوصهم المحرفة التي ركز على دحضـــها "[1]

و من أشهر المناظرات الموريسكية :

مناظرة أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي[2] :

ألف أفوقاي كتابا بعنوان " ناصر الدين على القوم الكافرين "[***] و ضمنـــه

---

*- اشتدت الحرب المسيحية ضراوة قبيل سقوط الأندلس ، و لم يدخر القسيسون جهدا في الطعن في الإسلام بغية اقتلاعه من جذوره على إثر حرب الاسترداد ، حتى إنهم ادعوا أن الإسلام في إسبانيا تطعّم بالهرطقة المسيحية الأريوسية – ينظر : الإسلام في الغرب : روجيه غارودي : 24

**- محمد الأنصاري نزيل فاس أواسط القرن 9 الهجري ، كما ناظر النصارى أيضا محمد الفيسي (ت ق 14م) و له كتاب بعنوان " مفتاح الدين و المجادلة بين النصارى و المسلمين من قول الأنبياء و المرسلين و العلماء الراشدين الذين قرأوا الإنجيل " –نقلا عن : قواعد المناظرة لمحمد الكتاني من جامعة تطوان ، مجلة التاريخ العربي : موقع : www.attarikh-aladabi.ma/ html1 adad15 partie 9

1- ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية: عبد الحميد الهرامة : 76

2- وصل المؤلف إلى المغرب نحو سنة 1007 هـ أواخر عهد المنصور الذهبي ، و لا تتوفر لدينا سنة وفاته – ينظر : رحلة أفوقاي الأندلسي : 11

***- هذا الكتاب هو اختصار لكتابه السابق " رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب " ، كما ألف كتابا آخر لم يصلنا عنوانه: "العز والرفعة والنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" نقل فيه محاورته راهب نصراني بأسلوب المكاتبة .

مجـــــــــادلاته لليهود و النصارى خلال رحلاته إلى فرنسا و هولندا و غيرها و من مناظراته(*) مع اليهود هذه المناظرة التي مهد لها بذكر بعض الحقائق حولهم و عنهم يقول :" اعلم أن اليهود الذين هم بتلك البلاد كان أصلهم في قديم الزمـــان و في زمننا ببلاد الأندلس ، و أكثرهم ببرتغال ، و كانـــــوا في الظاهر نصارى ، و في خفاء منهم يهود ... و جميع اليهود فيهم من الكبر الخفي ما لا كنت أظن فيهم حتى رأيتهم بالبلاد المذكورة "(1) ، ثم يبين أفوقاي الطرق التي التمسها للـــــرد على اليهود الذين لا يقنعهم إلا كلام مأخوذ من كتبهم كما هو شأن النصارى [2] ، و من المسائل التي دارت حولها المناظرة مسألة محو الله تعالى ما يشاء و تثبيت ما يشاء ، يقول أفوقاي " نحن عندنا في ديننا يمحو الله ما يشاء و يثبت ، و عنده أم الكتاب ، قالوا : ليس ذلك عندنا ، قلت لهم عندكم في التوراة مسألة مثل ما قـال الله في القرآن إنه يمحو و يثبت ، قالوا : في أي موضع في التوراة ؟ قلنـــا : في الباب العشرين من كتاب الثاني للسلاطين "(3) ، و ذكر لـــــه قصة السلطان الذي مرض مرض الموت ، و حزن لذلك حزنا شديدا ، ثم زاده الله خمس عشرة سنة ، فمـــحا الحكم الأول و هو الموت و ثبت الثاني و هو تمديـد الأجل ، و من مناظراته معهم ما جرى بينه و بين اليهودي الذي ادعى أن عمر الإسلام قصيـــر إذ قال " إن كل

*- يجب مراعاة كون المؤلف موريسكيا تعلم العربية خفية ، و لذلك ستصادفنا أخطاء لغوية و كلمات عامية و أخرى مترجمة – ينظر : رحلة أفوقاي : 13

1- المصدر نفسه : 88

2- نفسه : 88

3- نفسه : 90

من يأتي بدعوة باطلة لم تبلغ و لا تدوم ألف سنة ، قلت له هذا قول حسن لأن دعوة نبينا صلى الله عليه و سلم جازت الألف سنة بأكثر من عشرين سنة . فلما أن سمع ذلك نزل عليه الخزي و الذل و التغيير ، و خاب ظنه فيما كان يرجوه "[1].

و من مناظراته مع النصارى ، قوله " قد سمعت ببلاد الأندلس قبل خروجي منها مرارا القسيسين والرهبان يذكرون الرؤيا التي رأى بخت نصر،و ما فسر النبي دانيال عليه السلام و يقولون إنه سيدنا عيسى عليه السلام هو الذي دلت عليه الرؤيا،و أن دينه عمر الدنيا ، و سلاطين دينه غلبوا سلاطين الدنيا ..[فكان رده] أما السلطان بخت نصر فكان في مدينة بغداد ، و النصارى لم تملك قط بغداد، و لا كان لهم فيها دار ملك كما كان للمسلمين .و أيضا أن السلطان رأى الحجر الذي هرس الصنم و عظم حتى ملأ الدنيا كلها ، و ذلك كان النبي محمد عليه الصلاة و السلام و أهل دينه لأنه هرس في مكة المشرفة الأصنام ... و لم يعبد صنم في البلاد التي دخلها الإسلام ، أما النصارى بعد سيدنا عيسى عليه السلام فلا يعبدون إلا أصناما "[2] .

إن أفوقاي في مناظراته مع اليهود و النصارى ينتهج منهجية معينة تقوم على الرد على هؤلاء انطلاقا مما ورد في كتبهم ثم نقضها وفقا لمعطيات تاريخية و عقلية يعرفونها تمام المعرفة .

1- المصدر السابق : 104-105
2- نفسه : 96

هكذا كانت حال المناظرة الدينية ، بفروعها في الأندلس ،و كما رأينا فقـــد استوفت- على اختصـــــارها و ضياع بعضها - صفحـــــات طويلة و هو ما يصدق قول القائـــل بأن شعب الأندلس شعـــــب متدين متمسك بدينه إلى أبعد حد ، معتز بعروبته أبا عن جد ، و ما الموريسكيـــون إلا دليل على شدة تعلـــق الأندلسيين بدينهم ، و ببلادهم التي أظهروا لها حبا منقطع النظير...

الفصل الثانـــــــي

مناظرات المدن و الأقاليم

يحدثنا التاريخ القديم عن نمط عيش العرب في الجاهلية ؛ في قبائـــــل متفرقـــة تحكمها العصبية التي كثيرا ما أشعلت حربـــا لم تبق و لم تذر ، و القبيلة الأقوى هي القبيلة التي تمتلك إعلاما قويا يمثله شاعر مفوه يحكي أمجادها و يدفع عنها أقاويل أعدائها (*) ، و من هنا نشأت الإرهاصات الأولى للمفاضلة بين المـــدن لاسيما بعد مجيء الإسلام و تبـــدل نمط العيش عند العرب من القبيلة إلى المدينة ،كما أن العصبية القبلية ظلت قائمة تتأجج من حين لآخر على نحو ما كان بين القيسية و اليمنية ..

و مما ألفه المشارقة في هذا الباب مناظرة بين مكة و المدينة ، و مفاخرة بين متنزهات القاهرة (**) ، هذا و قد ذهب الأستاذ قصي الحسيني إلى القـــول بأن المقامات البلدانية هي " النـــوع الثاني من المقامات التي لا سابقة لها في المشرق ، و رائد هذا اللون أبو بحر صفوان بن إدريس "(1)، و في هـــذا الرأي احتمالان : أولهما أن فن المناظـــــرة بين المدن في شكل مقامات لم يعرفـــــــه المشارقة ، و الثاني أن مناظرات المدن عموما لم تلق رواجا في المشرق إذا ما قورنت بنظيرتها في الأندلس ، فقد أكثر الأندلسيـــــون

*- كانت المناظرات من هذا النوع أحيانا سببا في دخول قبائل إلى الإسلام كما حدث مع وفد تميم الذين عرضوا أمام النبي عليه السلام شاعرهم و خطيبهم يفخران بمثالبهم ، فتصدى لهما ثابت بن قيس الخزرجي و حسان بن ثابت فأفحماهما فاعترف الوفد بهزيمتهم و دخلوا في الإسلام.ينظر : المستطرف في كل فن مستظرف : 152

**- مفاخرة بين مكة المكرمة و المدينة المنورة : محمد بن سليمان ، تح : محمد الششتاوي ، و في العصر المملوكي ألف عز الدين المقدسي مؤلفه الموسوم بـ " المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة "

2- فن المقامات : 49

في هـذا الباب و أفاضوا القــول فيه كما و كيفا ، فمن المفاضلــة بين مدن الأندلس نفسها إلى المفاضلة بين الأندلس و غيرها من الأمصار .

المبحث الأول : مناظرات المدن :

أ- مناظرة بين مدن الأندلس لصفوان بن إدريس (ت 598هـ) :

كتب صفوان بن إدريس هذه المقامة إلى الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي و هي مجادلة بين مدن الأندلس (1) ، و يبــدأ هذه المناظرة بالثناء على الأمير و إظهار الولاء له ، مبينا كيف تخاصمت مدن الأندلس من أجل أن يحظى ترابها بمواطئ نعله ، و كانت الكلمــة الأولى لحمص (*) التي " تنمرت غيظا و كادت تفيض فيضا و قالت : ما لهم يزيدون و ينقصون ، و يطمعون و يحرصون (إنْ يتّبعُــونَ إلا الظن و إنْ هُم إلا يَخْرصُون) (2) ، لي السهم الأسد و الساعــــد الأشد ، و النهر الذي يتعقب عليه الجزر و المد ، أنا مصر الأندلس و النيل نهري .. و النجــوم زهري .. لي ما شئت من أبنية رحاب و روض يستغني بنضرتــــه عن السحاب .. فأنا أولاكم بسيدنا الهمام و أحق (الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ) (3) (4) .

هذه إشبيلية تعلن ، و كلها ثقة ، أنها أحق من سواها بقرب الأمير لنضارة

1- زاد المسافر : 13 و ما بعدها .
*- حمص هي اشبيلية فقد كان الأندلسيون يطلقون على مدنهم أسماء مدن المشرق تيمنا بها .
2- سورة يونس : الآية : 51
3- سورة يوسف : الآية : 168
4- نفح الطيب : 1 : 168

روضها ، و عذوبة نهرها و جمال أبنيتها ، غير أن قرطبة لم يعجبها الأمر فنظرت إليها " شزرا (*) و قالت : لقد كثرت نزرا و بذرت في الصخـــــر الأصم بذرا ، كلام العدى ضرب من الهذيان ، و أنى الإيضاح و البيان ، متى استحال المستقبح مستحسنا و من أودع أجفان المهجور وسنا (أفمَن زُيّنَ لهُ سُوءُ عَمَلِه فرآه حَسَناً) (1) ..إن ادعيتم سبقا فما عنـــــد الله خير و أبقى ، لي البيت المطهر الشريـــــف و الاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف ...في جامعي مشاهد ليلة القدر فحسبي من نباهة القدر ، فما لأحد أن يستأثـــر علي بهذا السيد الأعلى و لا أرضى له أن يوطئ غير ترابي نعلا "(2)، فمثل سابقتها تفخر قرطبة بمعالمها و جامعها الذي يشهد فيه القيام و يكفي ذلك شرفا ، و في الوقت نفسه تنفي صفات الكمال التي ادعتـــها غريمتها ، و من ثمّ فهي أولى بأن يتخذها الأميـــر محل إقامة ، و تتدخل غرناطة قائلة :" لي المعقـــل الذي يمتنع ساكنه من النجوم و لا تجري إلا تحتـــــه جياد الغيث السجوم فلا يلحقني من معاند ضرر و لا حيف ، و لا يهتدي إلي خيال طارق و لا طيف ، فاستسلمـــــوا قولا و فعلا .. لي بطاح تقلدت من جداولها أسلاكا و اطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ، و مـياه تسيل على أعطافي كأدمع العشاق .. فأنا أولى بهذا السيد الأعـــدل و ما لي

*- الشزر من العداوة،يقول الثعالبي " فإن أعاره لحظ العداوة قيل نظر إليه شزرا " فقه اللغة و سر العربية : 96

1- سورة فاطر : الآية : 8

2- نفح الطيب : 1 : 168-169

به من عوض و لا بدل .. فما لكم تعتزون لفخري و تنتمون .. تبرءوا إلي مما تزعمون (ذلكُم خيْرٌ لكُم إنْ كُنتُم تَعلَمُون) (1) ، فغرناطة تفخـــــر بحصونها المنيعة و جداولها الغزيرة، و تدعو جاراتها إلى التسليم المطلق لها ، فهي أحق منها جميعا بأن يشرفها الأمير بالإقامة . ثم إن مالقة أبت الصمت و قامت معلنة رفضها لما يجري لاسيما بعد أن لاحظت تجـــاهل المدن لها و كأنها نسي منسي، فقالـــــــــت :" أتتركونني بينكم هملا، و لم تعطوني في سيدنـــــــا أملا ، و لمَ و لي البحر العجاج و السيل الفجاج ، والجنات الأثيرة و الفواكه الكثيرة ؟ لدي من البهجة ما تستغني به الحمام عن الهديل ، و لا تجنح الأنفس الرقـــاق الحواشي إلى تعويض عنه و لا تبديـــــــل ، فما لي لا أعطى في ناديكم كلاما و لا أنشر في جيش فخاركم أعلاما ؟ " (2) (3) .

شعرت مالقة باحتقار المدن لها ، فقد تطاولت للنضال و السجـــال دون أن تعيرها أدنى اهتمـــام و كأنها ليست أهـــلا لذلك ، و هذا ما أكده صاحب الرسالة بقوله " فكأن الأمصار نظرتها ازدراء فلم تر لحديثها في ميـــدان الذكر إجراء لأنها موطن لا يحلى منه بطائل ... و تأولت فيها قول القائل: (*)

1- سورة التوبة : الآية : 41
2- نفح الطيب : 1: 169
3- نفسه : 1 : 169-170
*- البيت للشافعي ، ينظر الديوان : 52

إذا نطقَ السّفيهُ فلا تجبْه *** فخيْرٌ من إجَابتهِ السّكـــوت (1)

و تعجبت مرسية كيف قامت هذه المدن تتفاخر في حضرتها فقالت" أمامي تتعاطون الفخر و بحضرة الدر تنقّقون الصخر ؟ إن عدت المفاخـــــر فلي منها الأول و الآخر .. لي الروض النضير و المرأى الذي ما له من نظير ... فمن دوحات كم لها من بكور و روحـــــات و من أرجاء إليها تمد أيدي الرجاء .. فانقـــادوا لأمري و حاذروا اصطلاء جمري و خلوا بيني و بين سيدنا .. فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم (و ما يُلقاهَا إلاّ ذو حَـــظ عَظِيم)[2] ، و تدخلت بلنسية لتعلن هي الأخرى أنها أولى بالأميـــــــر من قريناتها جميعا و تتساءل قائلة :" فيم الجـــدال و القراع ؟ و علام الاستهام و الاقتراع ؟ و إلام التعريض و التجريح و تحت الرغوة اللبن الصريح ؟ أنا أحوزه من دونكم .. لي المحاسن الشامخة الأعلام ، و الجنات التي تلفي إليها الآفاق يد الاستسلام ، و برصافتي و جسر به أعارض مدينة السلام ، فأجمعوا على الانقياد لي و السلام " [4] .

و يستمر عنصر التعجب في حوار المدن الأندلسية فكل مدينة تتعجب من سابقتها كيف ادعت الفضل و الكمال زورا و بهتانا ؟ و ها هي تُدميـــــــر

1- نفح الطيب : 1 : 170

2- سورة فصلت : الآية : 35

3- نفح الطيب : 1 : 170

*- مدينة السلام هي بغداد – ينظر : معجم البلدان : 3 : 46 ، و في الروض المعطار : سميت كذلك نسبة إلى وادي كان فيها يقال له وادي السلام ، و قيل أيضا لأنها مدينة الله – ينظر : 110

4- نفح الطيب : 1 : 170- 171

تنتفض قائلة " عش رجبا تر عجبا ، أبعدَ العصيان و العقوق تتهيأن لرتب ذوي الحقوق ؟ هذه سماء الفخـــــر فمن ضمنك أن تعرجي ، ليس بعشك فادرجي (*) .. أيتها الصانعة الفاعلة من أداك أن تطرّي و ما أنت ناعلة ؟ ما الذي يجديك الروض و الزهر ؟ أم ما يفيدك الجدول و النهر ؟ و هل يصلح العطار ما أفسد الدهر .. فإلام تبرز الإماء في منصة العقائل و لكن اذكري قول القائل :

بلنسيّة يبيني عَن القلْبِ سَلْوة ** فإنّكِ روضٌ لا أحِنّ لزهْـــــرك

و كيْف يُحِبّ المرْءُ دارًا تقسّمَت**على صَارمي جُوع و فِتنة مُشرك (1)

لقد خصت تُدْمير بلنسية (**) بالتحقير و أسبغت عليها أنواع الذل و الهـــوان ، مستدلـة بأبيات من الشعر نظمها صاحبها بعد سقوط المدينة في يد الإسبان.

إن ما يمكن ملاحظته في هذه القطعة النثرية أن الكاتب أحكم صياغتها فجعل المدن تناضل و تجادل دون أن تحدد خصما بعينه،بل كان أكبر همها أن تبدو الأفضل أمام الأمير ، عدا قرطبة التي ردت على إشبيلية و تُدْميـر التي عقبت على بلنسية ، و ما ذلك إلا من باب حسن الاستهلال و الختـام . إلى هذا الحد فضّ النزاع و انتهت الجلسة دون تحديد المنتصر فيها، فقـــد

---

*- يضرب هذا المثل لمن يتعاطى ما لا ينبغي له – ينظر : محيط المحيط : بطرس البستاني : مادة عشش .

1- نفح الطيب : 1 : 171- 172

**- أبدى صفوان موقفا سلبيا من بلنسية و كان أولى به أن يظهر وطنيته على غرار ابن حزم و الشقندي ، و لكنه غلب طموحه الشخصي إرضاء للأمير – ينظر :الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي : فوزي عيسى:160

" هيأ الكاتب لكل مدينة مشتركة في الجدال ما تفخر به وتراه يؤهّلـــها لاحتضان الأمير الموحـــــدي ، و نهج فيها منهج الجغرافيين والرحالة فوصف سبعاً من مدن الأندلس هي :إشبيلية وقرطبة، وغرناطة، ومالقة، ومرسية، وبلنسية، وتدمير "[1] ، و كأن الكاتب أراد أن يعرض للأميـــــر محاسن المدن الأندلسية ،التي حازت الجمـــال و البهاء و ما عليه إلا أن يختار أيها شاء ، و بهذه الطريقة الجدالية ابتعد عن الطريقة الكلاسيكيـــة الإلقائية التي تبعث على الملل ، و هو هنا نحسبه أصاب هدفين اثنيـــن : التقرب من الأمير ، وإظهار البراعة اللغوية .

ب-مناظرة بين شاطبة و مرسية :

وقعت هذه المناظـــــرة بين ابن مغاور الشاطبي(ت 587 هـ) الذي فضل شاطبة ، و علي المكناسي الذي فضل مرسية ، في حضـــــرة الوزير المردنيشي" و قد حدد ابن مغاور مذهب شاطبة في الافتخـــار على لسانها حيث قال : و مذهبنا في الافتخار يوم الفخار ، مجتمـــع النادي و ملتقى الحاضر و البـــــــادي ، ما ينفذ البصر ، و يسمعه مفاضلة الجماد على الجماد ، لا مفاضلة السواد على السواد ، مـــــا للمساكين و السكان ، و الأوطـــــان و القطان ... متى ولدت الوهدة

1- عن مقال " مناظرة بين مدن الأندلس " : هناء دويدري ، مجلة الموقف الأدبي، دمشق ، العدد288

نشزا ، و الموهنة عـــزا ، و نسجت العنكبـــوت خزا و قـــزا .. متى انشقت رحم الخنفساء عـــــن سروج الرؤساء ، و ليس في عـــــادة الانشاء أن تركض السباع في أرحام الشاء :

و إنما أمّهات النّاس أوعية*** مُسْتودعات و للأنسَاب آباء (1)

فشاطبة تعرّض بمرسية بأنها أقـــــل شأنا ، و أصغر و أحقر من أن تتطاول و تتفاخر على خط واحد معها ، أما هي فيكفيهـــا فخرا ، إذ تقول، " إن الله تعالى بدأ في الاعتبار فقال " أفلا يَنظرُونَ إلى الإبـل كيْف خُلقَت و إلى السَّماءِ كيْف رُفعَت و إلى الجبَال كيْف نُصِبـــت " (2) فالله نصبني حيـــن سطحها ، و نشزني حين بطحـــها ، فلي القـدم و الأزل ، و كأني لم أزل ، فهل جهلت أن ربّها حين سوى البسيطـة مهادا ، أرساني و نظرائي أوتـــــادا ، فاستقرت بي حين مـــادت ، و لولاي غرقت أو كادت " (3) ، فشاطبة تدعم فخرها بأن الله فضلها إذ هي سبب استقرار الأرض و ارتكازها ، و لولاها لغرقت مرسيـة ، كما غرقت من قبل ، و في هذه النقطة تحديدا عيّرتها قائلة " أعولي نفسك و نوحي ، فقبل الركن بك ما افترعك طوفان نوحي ، فغادرك

1- النثر الأندلسي في عصر الموحدين : 213
2- سورة الغاشية : الآيات 17-18-19
3-النثر الأندلسي في عصر الموحدين : 214

سربا و مجالا للسيول و منسربا ، فهل أنت إلا صبابة للرزايـا "[1] .

و قد وجدنا في هذه المناظرة تحاملا من الكاتب-المتكلم باسم شاطبة- على مرسية إذ أسبغ عليها مختلف الصفات السيئة ، مصورا إيـــاها في أحقر صورة ، و كـأن مرسية هذه ليست هي نفســـــها مرسية صفـــوان بن ادريس الذي أفاض في مدحـــــها و الثناء عليهـــا في مناظرته السالفة الذكر ؟ و ليس غريبا فكل كاتب يتعصب لرأيه، و يتكلم وفق ما يمليه عليه شعوره،و ما مُدح عند واحد،ذم عند غيره

ج- مناظرة بين مالقة و الحمراء لعمر المالقي الملقب بالزجال :

هذه المقامة[*] لا تختلف كثيرا عن سابقاتها ، فالزجال(ت844هـ) أنشـــأها للتقرب من الأمير الغالب بالله ، و لأنه مالقي فطبيعي أن تكون الكلمـــة الأولى لمالقة التي خاطبت الحمراء قائلة:" إلى حمراء الملك و قلعته و مقر العز و منعته .. أبقاها الله على تعاقـــب الزمان منزل أمان و دار إيمان .. مالقة المستمسكة بذمتها الوثيقة المتشوقة إلى أخبارها تشوق المحبة الشفيقة ..و إلى هذا يا سيدتي و يا عدتي [تقصد الحمراء]..أمتعنا الله و إياك بحياة من استنقذنا من الورطات ، و ردنا إلى الصواب مما كان منا من الغلطـات .. مولانا الغالب بالله "[2] ، فمالقة تعلن ولاءها و طاعتها لغرناطة بما يعنـــي

1- نفسه : 215

*- سمى المالقي مقامته " مقامة في الوباء " .

2- أزهار الرياض في أخبار عياض : المقري : 1 : 125

طاعة الحاكم إلا أنها تعاتبها على كلام وصل مسامعها فتقول " يا سيدتي الحمراء لو كنت حاضرة لكان لي معك حديث طويل ، و احتجاج ينصره نص و تأويل .. بلغني أنك قلت مالقة ليس بها زرع ، و بقليل المقام يضيق بها صدر و ذرع .. و عز علي هذا الكلام ، و لكني سلمت و السلام لي في الاعتصام بالتوكل على الله ، ما يزيد على سبع مائة عام و ما أشغلت فيها فكرا و لا قلبا بادخار قوت و لا باحتكار طعام ..قالت النملة : افتخاري بادخاري ، قالت العصفورة : توسلي بتوكلي .. فلما جنّ الليل أقبل السيل فخرجت النملة بالعوم ، و بقيت الحبوب بين الدوم ، فنزلت العصفورة و سجدت و التقطت من مدخر النملة كل ما وجدت ، و قالت خسر المحتكر و ربح طالب الرزق المبتكر "[1] ، فمالقة تعاتب الحمراء على نعتها بالجدب و قلة الخصب ، و ضربت لها مثلا بحكاية النملة و العصفورة ، و قد جاء دورها الآن لتعاتبها و تلومها في أمر أعظم و أخطر ، و هو قلة حرصها و عدم تدبرها العواقب بخصوص الوباء الذي حل بأرضها ، و كيف أنها لا تخشى على الأمير من هذا الأمر الخطير ، تقول :" سمعت يا سيدتي أن هذا السقم أعظم تأثيره إنما هو في قطع الأكباد من صغار الأولاد .. و هذا إلى كتبي لك أعظم داع ، فإن الأولاد سوائم و الوالد راع و الراعي لا

1- المصدر السابق ، 1: 130-131

يترك غنمه في طريق سبع ضار ، و لا قريب من حريق النار .. قبّلي عني يد مولانا تقبيلا و يا ليتني وجدت إلى ذلك سبيلا ، و أخبريه أني في خدمته على نيتي الأولى ، عاكفة على شكر منته الطولى ، أدام الله حياطة البـــلاد و النفوس بحفظه و حياطته ، و أسمعني البشارة بقدومه على محدث مالقــة من حمراء غرناطة ، و يحفظه في النفس و الأولاد و الملك و البلاد بمنّــه و فضله " [1] .

و " المناظرة كما بدت دعوة من الزجال لأمير المؤمنين بترك الحمـــراء نظرا لتفشي المرض بها .. و هي دعوة صريحة للتقرب من الغــالب بالله من خلال هذا التفاخر ، و تبيان عيوب الطرف الآخر و مساوئه .. و هـــو رجاء الزجال و أمله بأن يزور أمير المؤمنين مالقـــــة " [2] ، و ما نلاحظه في هذه المناظرة غياب الحمراء كمحاور و الاكتفاء بمخاطبتها عن بعــد ، و لعل الكاتب تقصّد ذلك لترجيح كفة مالقة ..

وما هذا بالأمر الغريب فالأندلسي كـــــان متعلقا بمسقط رأسه تعلقا شديدا فضلا عن تعلقه بالبلد الأم ، و هو ما وقفنا عليه في مناظرات الأندلسييـــن بين مدنهم التي فاخروا بخصوبة أرضها ، و نقـــــاء هوائها ، و رجاحة عقول أهلها.. فقد " جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب،

1- أزهار الرياض : 1 : 132
2- المناظرات الخيالية : 153

بين الفقيه أبي الوليد بن رشد ، و الرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، و إن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية ، قال : و قرطبة أكثر بلاد الله كتبا " (1) ، فابن رشد فاخر بأن قرطبة بلد العلوم و لذلك تأتيها الكتب من كل حدب و صوب ، و " مدح إشبيلية من حيث مكانتها الموسيقية ، حيث أراد ذمها " (2) .

هذه بعض من مناظرات المدن التي حفظتها الكتب و لا شك أن الكثير منها هو في حكم الضائع (*) ، و هي و إن اختلف أبطالها و تباينت أزمنتها و أمكنتها فإن هدفها واحد لا تكاد تحيد عنه ، و هو التقرب من ولي الأمر و قد وجدنا الكاتب يصرح بذلك حينا، و يضمنه في أثناء الجدال و السجال حينا آخر بطريقة فنية مميزة .

و ليس غريبا فهذا النوع من المناظرات ،الذي تطبعه روح المنافسة ،عرف انتعاشا في فترة ملوك الطوائف ، تلك الفترة التي شهدت تطورات على كل الأصعدة ، و نزاعات كانت الدافع القوي لذيوعه و انتشاره .

1- نفح الطيب : 1 : 154

*- ذكرت كتب الأدب العديد من المناظرات الخيالية لكنها لم تصلنا كمناظرة الخريف و الشتاء لأبي الحكم البرهاني الإشبيلي (ت 549هـ) ، و مناظرة بين الأحجار الكريمة لمسلمة المجريطي (ت 398هـ) – ينظر : المناظرات الخيالية : 310

2-التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق في آثار ابن سعيد المغربي : محمد جابر الأنصاري : 67-68

المبحث الثاني : مناظرات إقليميـــــــة :

كان قلب الأندلسي، بداية ، معلقا بالمشرق – الأرض الأم – و لطالمـــا عبر عن شوقه إليها ، و سرعان ما تبدلت الأمور و صارت الأندلس أحب البلاد إليه لدرجة أصبح الخروج منها ضربا من العذاب و الشقاء .

و تعلق الأندلسي بأرضه تعلق نادر قل أن نجد مثيلـــه في المشرق ، و لعل السبب راجع إلى شعوره المستمر بأنه سيفقد هذه الأرض يوما ، و لأجـــل ذلك فهو يتفانى في حبها (*) .

و ليس غريبا ، و الحال كذلك، أن يبالغ الأدباء في وصفها و تفضيلها على بقاع الأرض جميعا ، يقول المقري " محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة ، و مجاري فضلها لا يشق غباره ، و أنى تجـــــارى و هي الحائزة قصب السبق في أقطار الغرب و الشرق " (1) ، و لا تعجب إذا رأيت من يختصـــر مدن العالم كلها في الأندلس فهي " شاميـــــة في طيبها و هوائها ، يمانية في اعتدالها و استوائها ، هندية في عطرها و ذكائها ، أهوازية في عظـــم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها .. فيها آثـــــار عظيمة لليونانيين أهل

---

*-تعلق الأندلسي بمسقط رأسه تعلق نادر ، فهو يشعر بالغربة بمجرد أن ينتقل إلى مدينة أخرى أندلسية فكيف إذا غادر الأندلس ؟ فالأندلسيون "يشق عليهم الاندماج في مجتمعات غير مجتمعهم لذلك أكثروا من الشكوى و التذمر و الحنين إلى الديار التي خلفوها وراءهم "-ينظر :الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح :243

1- نفح الطيب : 1 : 127

الحكمة و حاملي الفلسفة "[1] .

أما الشعراء فقد أفاضوا في تفضيل الأندلس على سائر البقـــاع ، فهذا ابن خفاجة لا يرى الجنة إلا فيها ، إذ يقول :

يا أهلَ أندلسٍ للّهِ دَرّكُم **ماءٌ و ظلٌّ و أنهارٌ و أشجَـار

مَا جَنّة الخلْد إلا في دِيارِكُم** و هَذه كُنتَ لوْ خَيّرْتَ أخْتار (2)

و انظر إلى قول ابن سفر المريي[*] :

فيها خَلعْتُ عذاري ما بها عِوض **فهي الرّياضُ و كلّ الأرض صَحْراء (3)

هذا غيض من فيض ، و لو أننا أتينا على ذكر كل ما نظم في وصـــــف الأندلس ، لوجدنا أنفسنا قد خرجنا عن موضوعنا الأساس ، فالذي يعنينا هو ما أثبت من مناظرات في هذا الباب بين الأندلسيين و غيرهم ..

أ- رد ابن حزم على ابن الربيب في فضل الأندلس :

كان التنافس قائما بين الأندلس و الشمال الإفريقي ،و قد أظهر الأندلسيون تفوقا واضحا ، و إعجابا شديدا بأرضهم الغناء ، و هو ما خلق الشعـــور بالازدراء في الضفة الأخرى و لذلك لم يكن غريبا أن يظهـــر بين الحين

1- نفح الطيب : 1 : 129

2- الديوان : 364

*- المريي : نسبة إلى مسقط رأسه المرية .

3- نفح الطيب : 1 : 202

و الآخر من يحاول انتقاد الأندلس و رجالها ،و من هؤلاء ابن الربيب الذي راسل أبا المغيرة بن حزم(*) معاتبا إياه على " تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ، و مآثر فضلائهم و سير ملوكهم .. [و يضيف] : فكرت في بلادكم .. مع كثرة علمائها و وفور أدبائها و جلالة ملوكـــها .. و[أنتم] مع ذلك في غاية التقصير ، و نهاية التفريط من أجـــل أن علماء الأمصـار دونوا فضائل أمصارهم ، و خلدوا في الكتـــب مآثر بلدانهم .. فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائنـــا و ألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا و بينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب، لـــو نفث من بلـــدكم مصدور لأسمع من ببلـــدنا في القبور، فضلا عمن في الدور و القصور "(1) .

كلام ابن الربيب - كما يبدو- فيه نوع من الحدة ، فهو ينكر على الأندلسيين تقاعسهم عن تخليد مآثر علمائهم ، و فضائل بلادهم و لقد وقعت الرسالـــة بين يدي ابن حزم(**) ، ففهم مقصود ابن الربيب و رد عليه ردا يوازيه من حيث الحدة(***) ، حتى لا تسول لأحد نفسه أن يشكك في مآثـــر الأندلسيين ، و بعد أن أنهى ابن حزم تقريعه لابن الربيب أخذ يعدد فضائل الأندلـــس

---

*- هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم (ت 438هـ)

1- فضائل الأندلس و أهلها : صلاح الدين المنجد : 1-2-3

**- رد أبو المغيرة ابن حزم على هذه الرسالة ، لكن رده لم يكن شافيا كرد الحافظ ابن حزم ، أو ربما لأن ابن بسام حذف جزءا كبيرا منها – ينظر : الذخيرة : 1 : 85

***- تعد هذه الرسالة من أعظم شواهد التفوق العلمي للأندلسيين منذ بداية عصر الإمارة إلى عصر المؤلف نفسه ، و هي بلا شك تعطينا دليلا حاسما على نضوج الشخصية الأندلسية – الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس : سعد عبد الله البشري : 107-108

فقال :" فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتبا جمة منها : كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس و مراسيها و أمهات مدنها "[1] ، ثم إن ابن حزم لا ينتهج في رده ترتيبا معينا فكلما عنّت له فكرة قالها ، فهو يذكر مثلا قرطبة و يفيض في وصفها ، و تمكن أهلها ثم يتعجب من انتقاد ابن الربيب للأندلسيين و هم أولى بالانتقاد فيقول " هذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفا غير (المغرب عن أخبار المغرب) ، و حاشا تآليف محمد بن يوسف الوراق فإنه ألف في أخبار تيهرت و وهران و تنس و سجلماسة .. و محمد هذا أندلسي الأصل و الفرع "[2](*) ، فأهل القيروان كذلك مقصرون نحو بلدهم ، فلم يخلد آثارهم إلا رجل هو أندلسي الأصل .

ثم يعرج ابن حزم إلى نقطة أخرى و هي أن بغداد و البصرة و الكوفة على عظمة هذه المدن لم تؤلف فيها كتب خاصة بها ، و إنما توجد أخبار عنها متناثرة في كتب المؤرخين .[3]

و في سابقة لم نكن نتوقعها أرجع ابن حزم سبب قلة التواليف إلى عدم تقدير أهل العلم – و لعله يقصد نفسه – و قد استشهد بالمثل السائر " أزهد

1- نفح الطيب : 4 : 142

*- قدم ابن حزم أدلة و حججا للتأكيد على صحة نسب محمد الوراق إلى الأندلس– المصدر نفسه، 4 : 144-145

2- المصدر نفسه، 4 : 144

3- نفسه : 4 : 145

الناس في عالم أهله .. [وإن] أندلسنا خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم .. إن أجاد قالوا سارق مُغير و منتحل مدع ، و إن توسط قالوا متى كان هذا ؟ و متى تعلم ؟ و في أي زمان قرأ ؟ " ، و يبدو أن هذا الكلام كان مجرد تنفيس عما شعر به من اضطهاد جراء تبنيه المذهب الظاهري ، و سرعان ما استدرك ذلك و أخذ يعدّ التواليف التي غابت عن ابن الربيب ، إما قصدا أو تجاهلا ، و منها " كتاب الهداية لعيسى بن دينار .. و منها كتاب أبي إسحاق بن مزن في تفسير الموطأ و الكتب المستقصية لمعاني الموطأ .. و في تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد .. و منها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجاري .. و منها في الحديث مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ .. و منها تاريخ أحمد بن سعيد .. و منها في اللغة الكتاب " البارع " الذي ألفه إسماعيل بن القاسم .. و مما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في " أخبار شعراء الأندلس " .. و مما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم الإفليلي لشعر المتنبي .. و من الأخبار تواريخ أحمد الرازي في أخبار ملوك الأندلس .. و منها كتاب " الطوالع في أنساب أهل الأندلس " .(*)(1)(2)

هكذا نقض ابن حزم كلام ابن الربيب من وجهين : الوجه الأول حين رد

1- المصدر السابق ، 4 : 146

*- و يؤيد هذا قوله : أنا الشمس في جو العلوم منيرة *** ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع*** لجد علي ما ضاع من ذكري النهب- الديوان :77

2- نفسه : 4 : 147 و ما بعدها

انتقاده عليه و عامله بالمثل متسائلا بدوره عن تواليفهم ، و الوجه الثاني حين أطلع ابن الربيب – و هو المخاطب مجازا- بالكتب التي سجلت مآثر الأندلس و رجالها (*) ، و التي يبدو أنه لم يطلع عليها أو تجاهلها عمدا .

ب - تفضيل الشقندي (ت 629 هـ) للأندلس على عدوة المغرب:

اشتد التنافس بين المغاربة و الأندلسيين في عصر الموحدين ، " و على الرغم من أن الأندلس كانت تابعة للمغرب سياسيا إلا أنها كانت تتفوق عليه ثقافيا ، و أدبيا و كان الأندلسيون يعتزون بهذا التفوق و يتباهون به أمام المغاربة " الذين (1) لم يكونوا يفوتون فرصة دون إثارة مواضيع من قبيل: من الأفضل ، و من الأحسن ؟ و من المناظرات التي جرت تلك التي كانت في مجلس أبي يحي ابن أبي زكريا صاحب سبتة ، بين الشقندي و أبي يحي بن المعلم الطنجي ، حيث عمد كل واحد إلى الفخر ببلاده ، غير أن رسالة ابن المعلم لم تصلنا (**) ، أما رسالة الشقندي فوصلتنا كاملة (***) ، و لا نظن ذلك إلا تغاضيا من قبل المؤرخين الأندلسيين عن ذكرها ، و قد استهل الشقندي مناظرته بحمد الله ثم أخذ في المقارنة بين البريّن مع إبداء

---

*- يرى بعض الباحثين أن ابن حزم الأندلسي برسالته في فضل الأندلس يكون قد وضع أساسا جديدا لمفاخرة البلدان ، فهو يرى أن العلم وحده هو ينبوع الفضائل ، و أن العلماء وحدهم هم الذين يحق للبلدان أن تتفاضل بهم و هذا يعد تطورا جديدا في أدب المفاضلات بين البلدان – النثر الأندلسي في عصر الموحدين : علي الغريب محمد الشناوي : 201

1- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين : فوزي عيسى : 70

**- " رسالة ابن المعلم التي رد بها على الشقندي ما تزال مفقودة ، و مثلها رسالة المكناسي في المفاخرة بين بلاد الأندلس و بلاد العدوة" – ابن مغاور الشاطبي حياته و آثاره : محمد بن شريفة : 95-96

***- ترجم هذه الرسالة إلى الإسبانية غارثية غومث واضعا لها عنوانا مثيرا (الأندلس ضد البرابرة) : Andalucía contra Berbería

تعجبه إذ كيف يعقل أن يقال " الليل أضوء من النهار ؟ ..[ويخاطبه فيقول] كيف تتكثر بما جعله الله قليلا ، و تتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلا ؟ مـــا هذه المباهتة التي لا تجوز ؟ و كيف تبدى أمام الفتاة العجوز ؟.. أقن حياءك أيها المغرد بالنحيب..المتحبب إلى الغواني بالمشيب الخضيب " [1]،فالشقندي يوصد ،من البداية، أمام خصمه أبواب الاعتراض ، فالمقـــارنة أصلا لا تجوز لانعدام التكافؤ ، و مع ذلك فلا مانـــــع من الرد على جرأتـــــه في الانتقاص من الأندلسيين ، يقـــــول :" أما قولك الملوك منا ، فقد كان الملوك منا أيضا و ما نحن إلا كما قال الشاعر :

فيومٌ عليْنا و يومٌ لنا ** و يومٌ نُسَاء و يومٌ نُسَرّ

.. و قد نشأ في مدتهم من الفضلاء و الشعراء ما اشتهر في الآفـــــــاق ، وصار أثبت في صحائف الأيـــــام من الأطواق في أعناق الحمام " [2] ، ثم يعرض الشقندي فترات الحكم التي مرت على الأندلس و كذلك حكامـــها ؛ فبعد انتهاء فترة الخلافة تولى الحكم المنصور بن أبي عامر " الذي بلـــغ في بلاد النصارى غازيا إلى البحر الأخضر، و لم يترك أسيرا في بلادهم من المسلمين ، و لم يبرح في جيش الهرقل و عزمة الإسكندر ، و لمـــا قضى نحبه كتب على قبره :

1- نفح الطيب : 4 : 164-165
2- نفسه : 4 : 165

آثارهُ تُنبيكَ عَن أوصَافِه ** حَتى كأنكَ بالعَيانِ تَـــــــراه

تا اللّهِ لا يأتي الزّمانُ بمثلهِ ** أبدًا و لا يَحْمي الثغورَ سِواه

.. و لما ثـــار، بعد انتثار هذا النظام ، ملوك الطوائف و تفرقوا في البلاد ، و كان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، إذ نفقوا سوق العلوم ، و تباروا في المثوبة على المنثور و المنظوم..و سمعت عن الملوك العربية بنو عباد و بنو صمادح و بنو الأفطس و بنوا ذي النون و بنو هود" [1] .

و يثني الشقندي في حديث طويل على هؤلاء الملوك ، ثم يسأل ابن المعلم بمن يفخرون " أ بسقوت الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطي [*] ؟ أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا لـــه ذكرا [2] " ، و يعرّض بابن تاشفين – مفخرة المغاربـــة - لأنه لا يفقه الشعر ولا يحسن اللغة العربية ،ضاربا المثل بالأبيات التي أرسلها له المعتمد فلم يفهمها [3] .

وانتقل بعد الفخر بالملوك إلى الفخر بالعلماء ، فقال: " و إنك إن تعرضـــت للمفاضلة بالعلماء فأخبرني هل لكم في الفقه مثـــــل عبد الملك بن حبيب .. و مثل أبي الوليد الباجي و مثل أبي بكر بن العربي ، و مثل أبي الوليد بن رشد الأكبر ؟ .. و هل لكم في الحفظ مثل أبي محمد بن حزم .. و هل لكـم

1- المصدر السابق : 4 : 166

*- الأصل أن يقال البلغواطي نسبة إلى قبيلة بلغواطة بفتح اللام و إسكان الغين ، و العامة تنطقها بالراء فتقول برغواطة – ينظر : المطرب : ابن دحية : 86

2- نفح الطيب : 4 : 167

3- نفسه " ينظر : 4 : 168

في حقاظ اللغة كابن سيدة صاحب كتاب المحكم .. و هل لكم في علـــــوم اللحون و الفلسفة كابن باجة .. و هل لكم في الطب مثل ابن طفيل .. و مثل ابن زهر ؟ .." [1] ، و مضى الشقندي يعد علماء الأندلـــــس الذين تبحروا في مختلف العلوم و الفنون ، إلى أن وصـــــل إلى طبقة الشعراء فخصهم بكلام طويل ، و فاخر بهم، ذلك أنهم استطاعوا أن يعارضوا كبار شعـراء المشرق ، و هو ما عجز عنه شعراء عدوة المغرب ، بـــل و راح يعرّض بكبير شعرائهم أبي العباس الجراوي الذي به يفاخرون [*] ، يقول :" أولى لكم أن تجحدوا فخره ، و تنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها خليفة :

إذا كانَ أملاكُ الزمانِ أراقِما ** فإنكَ فيهُم دائمَ الدّهر ثعْبان [**]

فما أقبح ما وقع ثعبان و ما أضعف ما جاء دائم الدهر .. فسبحان من جعل روحه و نسبه و شعره تتناسب في الثقالة " [2] .

و انتقل الشقندي بعد هذا إلى المفاخرة بمدن الأندلس ، فإشبيلية " غابة بلا أسد و نهرها نيل بلا تمساح .. و أما قرطبة فكرسي المملكة في القديـــم ، و مركز العلم و منار التقى و محل التعظيم .. وأمـــــــا جيان فإنها لبلاد

1- المصدر السابق ، 4 : 168-169

*- يقول فوزي عيسى " فأبو العباس الجراوي و هو شاعر بربري لم يتصد للدفاع عن قومه ، و لم يرد هجاء الأندلسيين لهم و هو ما كانت تفرضه طبيعة انتمائه و عصبيته لقومه " – الهجاء في الأدب الأندلسي : 67

**- لعل الشاعر أراد أن يعارض النابغة حين مدح النعمان بن المنذر بقوله :

فإنك شمس و الملوك كواكب ** إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

2- نفح الطيب : 4 : 185

الأندلس قلعة .. و أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس .. و مطمح الأنفس .. و أما مالقة فإنها قد جمعت بين منظر البحر و البر بالكروم المتصلـــة ، و البروج التي شابهت السماء "[1] ، و يذكر مـــدنا أخرى كمرسية و بلنسية و ميورقـــة ... و ما تمتاز به كل مدينـــــة ، و ما اشتهر من علمائها ... ولئن ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى القول بأن الشقندي تعصب على طـــول الخط للأندلسيين[2] ، فإننا نرى أن الشقندى تكلـم وفق ما تمليه عليه وطنيته ، فضلا على أنه كان في مجال المناظـــــرة ، و هو ملزم بالـــــرد على خصمه الذي انتقص من فضل الأندلس و أهلها .

هكـــــذا عبر ابن حزم و الشقنـــــدي عن أندلسيتهما ، و أظهرا حبا شديدا و إخلاصا قويا للأندلس ، على أن بعض الدارسين أعطوا للمناظرتيـــــن بعدا سياسيا ، " فابن الربيب كان شيعيا متحيـــزا للفاطميين ، بينما كان ابن حزم و الشقندي متحيزين للبيت الأموي "[3] ، و هو ما يكسبها قيمة أخرى .

ج - تفضيل مالقة على سلا لابن الخطيب (ت 776هـ) :

من الأدباء الذين أنجبتهم الأندلس فبرّوا بها لسان الدين بن الخطيـــب الذي كتب مقامة فضل فيها مالقة على سلا[*] " تعصبا لها ، و تحزبا لوطنـه،

1- المصدر السابق، 4 : 187...193

2- ينظر : ظهر الإسلام : 3 : 24

3- العلاقات بين الأمويين و الفاطميين : 342

*- مالقة هي العاصمة الثانية لبني الأحمر بعد غرناطة ، و قد وصفها صاحب المسالك بأنها بديعة كثيرة الفواكه تختص بعمل صنائع الجلد و التين الذي يجلب منها يعم البلاد شتاء و صيفا .. ، و سلا هي مدينة بأقصى المغرب قصدها ابن الخطيب عندما نفي عام 1360م – ينظر : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمري : 4 : 145 و مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : أحمد مختار العبادي : 57

فهو لا يرى في الدنيا من يفضل الأندلس أو يساويـــها .. [وقد] استحضر شخصية مفترضة توجه إليه سؤالا يكون جسرا للوصول إلى غرضـــــه ، و يجعل من نفسه بطل المقامة "[1] .

و يبدأ ابن الخطيب بالثناء على مالقة ، و بأنه لا مجال للمقارنة بينها و بين سلا فهي " أرفع قدرا و أشهر ذكرا .. و أبعـد التماسا من أن تفاخـــــــر أو تطاول "[2]، و يبرر ابن الخطيب تحيزه لمالقـــــة على أساس شروط لا تتوفر عليها سلا و هي " الأمور التي تتفاضل بها البلدان ..و تعرفها حتى الولائد و الولدان .. : المنعة ، و الصنعة ، و البقعة ، و الشنعة ، و المساكن والحضارة و العمارة .."[3]، " أما المنعة فلمالقة حرسها الله فضل الارتفاع و مزية الامتناع ؛ أما قصبتها فاقتعدت الجبل كرسيا ، و رفعها الله مكانا عليا .. و سلا على ما علمت سور حقير و قور إلى التجنيد و التشييد فقير "[4] فالمنعة إذن لصالح مالقة ذات الحصون المنيعة و الأبراج المرتفعة ، أما سلا فلا حظ لها من ذلك كله ، و يعرج إلى النقطة الثانية و هي الصنعـــة ، و عنها يقول " مالقة حرسها الله طراز الديباج المذهب ، و معدن صنائع الجلد المنتخب .. و صنعاء صنائع الثياب ، و محج التجار إلى الإيـــاب .. و أي صناعة في سلا يقصـــــد إليها ، أو يعـــول عليها ... أو يتجمل بها

1- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب : عبد الحليم حسين هروط : 94-95
2- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : 57
3- نفسه : 57
4- نفسه : 58-59

في عيد ؟ "[1] ، فالصنعة كذلك حازتها مالقة ، و تأتي النقطة الثالثـــة و هي البقعة و عنها يقول :" خص الله مالقة بما افترق في سواها ، و نشـــر بها المحاسن التي طواها ،إذ جمعت بين رمث الرمال و خصب الجبـــال .. و سلا بلد الرمال و مراكب الجمـــال ، بطيحة لا تنجب السنابل ، و إن عرفت المطر الوابل .."[2] ، أما عن الشنعة فعنها قـــال: " مالقة دار الملك في الروم ، و مثوى المصاعب و القروم .. و ذات ملك في الإسلام ، غني بالشهرة عن الإعلام ، سكنها ملوك الأدارسة الكرام و الصناهجة الأعلام ، ثم بنو نصر أنصـــار الإسلام .. و أين سلا من هذه المزية و الشنعـــة العلية ؟ "[3] .

و بهـــذا جعل ابن الخطيب مالقة تتفوق على سلا على كل المستويات ، و هو يرى نفسه موضوعيا غير متحيز، فهذه " حجج لا تدفع و دلائـــل إنكارها لا ينفع "[4] ، و من باب الوفاء رأى أن يطيب خاطـــر سلا ببعض الكلام الطيب فقال " و لسلا الفضـــل لكن على أمثالها و نظرائها من بلاد المغرب .. إذ لا ينكر فضل اعتدالها و أمنها من الفتن .. و مدفن الملـــوك الكرام بجبالها "[5] ،" و من العجب أننا نلاحظ أن ابن الخطيب و على الرغم

1- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : 59
2- نفسه : 60
3- نفسه : 60-61
4- نفسه : 65
5- نفسه :66

من حبه لبلاد المغرب و لمدينة سلا بالذات التي لجأ إليها في أوقات محنته فإن شعوره الوطني جعله يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات ، و يتحيـــز إلى المدينة الغرناطية مالقـــة ، فيجعلها المفضلة على الدوام ، و قد يرجع هذا الشعور إلى روح المنافسة التقليدية القديمة التي كانت سائـــــدة بين الأندلسيين و المغاربة " (1) ، وابن الخطيب لم يكـــن لينقم على بلاده نظير محنته تلك فهو كما قال الشاعر :

بلادي و إن جَارَت عليّ عَزيزَةٌ** و أهلِي و إنْ ضَنّوا عليّ كِرام

1- المرجع السابق : 11

د- المفاضلة بين المشرق و المغرب الإسلامي لابن سعيد (ت 685 هـ) :

دارت المناظرات السابقة بين العدوتين : الأندلس و المغرب ، و قد عمد أصحابها إلى إثارة نقاط التفوق في الإنجازات و التاريخ المتعلق بكل عدوة ، فراحوا يفاخرون و يناضلون ، و قد بدا واضحا تمكن الأندلسي من مناظرة خصومه ، سلاحه في ذلك ثقته العالية بنفسه و حبه الكبير لبلاده . و ابن سعيد ، و بحكم رحلاته الكثيرة التي ولدت لديه شعورا مستمرا بالغربة ، راح يسترجع ذكرياته بالأندلس و يقارن بينها و بين بلدان المشرق التي حط الرحال بها ، على أنه يجب التنويه إلى أن ابن سعيد لم يتخذ التعصب لبلاده عنوانا ، و إنما كما قال :" لم تزل البلاغة في كل عصر بالمشارق و المغارب ... و المنصف من أطال عنان الاختبار دون اقتصار ، و لم يخص بالفضيلة عصرا من الأعصار ، و لا مصرا من الأمصار "[1] .

و لعل ابن سعيد أراد بهذا الكلام أن يبين توجهه المحايد و الموضوعي في الحكم على الأمصار مشرقها و مغربها ، و لكن هذا لا يعني بأي حال أن يلتزم الصمت أمام من يُعرّض ببلاده ، أو ينتقص من قدرها ، و يؤيد هذا قوله: " و المناظرة بين المشرق و المغرب تحتمل كتابا و قد صنفته

1- عنوان المرقصات و المطربات : 03

بالشام لضرورة دعت إلى ذلك من شدة اتخاذ المشارقة على المغاربة من كل جهة ... و سميت الكتاب الذي وضعته في ذلك (الشهب الثاقبـــــــة في الإنصاف بين المشارقة و المغاربة) " (*) (1) ، و " ابن سعيد في هذا الكتـاب يعتمد على المقارنات الجغرافية و التاريخـية و الاجتماعـية ، و يتجنب إطلاق الأحكام الذاتيـــة التي لا تستند إلى أساس ، و هو لا يتردد في ذكر فضائل المشرق ، و في تفضيله على المغرب في بعض الأمور " (2) .

و " ابن سعيد لم يفرق بين الأندلسيين والمغاربة ابتداء من عنوان كتابـــه (الشهب الثاقبـــــة)، حيث جمع فيه العدوتين تحت مصطلح "المغاربة"، ولم يترفع عليهم بقلانس "الأندلسيين"، ولم يذم أحدا، وإنما انتقد أوضاعـا رآها؛ على الأقل في هذا الكتاب، عملا بما التزمه " (3) .

و لا يعني هذا بأنه غير متحزب لبـــــــلاده بل على العكس تماما ، فمتى استشعر ازدراء لأندلســـــــه هب منافحا مدافعا ، و من ذلك رده على ابن

---

*- لم يصلنا ها الكتاب كاملا أو لعله لا يزال حبيس المخطوطات ، و ما ذكر منه فشيء قليل في نفح الطيب : 1 : 203 ، و الباقي مذكور في كتاب ابن فضل الله " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " الذي خصص فيه جزءا للرد على ابن سعيد في كتابه المذكور . و قد " نقل ابن سعيد في هذا الكتاب بمهارة وذكاء النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة، في الوقت والمكان المناسبين، من خندق ما بين "البرين" أو العدوتين"، في جلباب واحد باسم المغاربة، إلى عقر دار المشارقة، على قدم مساواة المفاضلة معهم، وبالذات إلى دمشق، حيث أصبحت مركزا علميا للشرق كله، بعد أن كانت بغداد تحتضر آنذاك، والقاهرة كما رآها ابن سعيد اسمها أعظم منها " – نقلا عن مقدمة كتاب ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة : د / جاسم العبودي : مجلة الحوار المتمدن ، العدد 2678 ، 15-06-2009

1- التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق : 137 و النص موجود في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله : 3 : 76

2- التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق : 138

3-نقلا عن : ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة : جاسم العبودي ، مجلة الحوار المتمدن ، م س

حوقل(**) الذي وصف الأندلس قائلا : " و من أعجب ما في هذه الجزيـــــرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلـــــها ، و ضعة نفوسهم ، و نقص عقولهم ، و بعدهم من البأس و الشجاعة و الفروسية و البســالة ، و لقاء الرجال ، و مراس الأنجاد و الأبطال "(1) ، و لعمري إنه لوصـــف للعبيد أقرب ، فقد سلب ابن حوقل أهل الأندلس كل مزية و نسب إليهم كل نقيصة ، فرد ابن سعيد قائلا : " ليت شعري إذ سلب أهـــل هذه الجزيرة العقول و الآراء و الهمم و الشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم و عقولـهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمئة سنة و نيّف ؟ و من الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخـــــلها و خارجها ؟ و إني لأعجب منه إذ كان في زمـــــــان قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام و الجزيرة و عاثوا كل العيث في بلاد الشـــام ، حيث الجمهـــور و القبة العظمى ...و فعلوا فيها ما فعلوا ،و بلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة "(2).

من أجل ذلك تعجب ابن سعيد من ابن حوقل الذي ازدرى الأندلس و أهلها، و كان أولى له أن يزدري بلاد الشام التي تكالب عليها العجم من كل جهة ، فعاثوا فيها فسادا ، لم يمنعهم في ذلك توسطها بلاد الإسلام ، وعلى العكس

**- هو أبو القاسم محمد بن حوقل الموصلي ، صاحب كتاب " صورة الأرض "

1- صورة الأرض : ابن حوقل : 104-105

2- نفح الطيب : 1 : 204

من ذلك فإن الأندلس ظلت قائمة صامدة أمام كل محاولات العـــــدو على الرغم من وجودها وحيدة منفردة في بحر تتربصها فيه الأعين بلا كـلل .

و يمضي ابن سعيد في المفاضلة بين مدن الأندلس و غيرها من الأمصار التي زارها بناء على موقعها الجغرافي و حظها من الحضارة و العمران ، و منها قوله :" و لقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراهـا التي تكدر العين بسوادها ،و يضيق الصدر بضيق أوضاعها،و في الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمـــة الممصرة من مثلها ، و المثال في ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم و بعض آخـــر مدينة شريش ، و هي في نهاية من الحضارة و النضارة "[1].

ثم يفصل في الأمر فيقول:" منذ خرجت من جزيرة الأندلس و طفت في بر العدوة ، و رأيت مدنها العظيمة كمراكش و فاس و سلا و سبتة ، ثم طفت في إفريقية و ما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجايـــة و تونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية و القاهرة و الفسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق و حلب و ما بينهما ، لم أر ما يشبـــه الأندلس "[2] ، فابن سعيـــــــد يجزم بأنه لا توجد مدينة – من تلك التي زارها – تفضل

1- المصدر السابق : 4 : 198

2- نفسه : 4 : 201

الأندلس ، غير أنه يستثني من ذلك وجود شبه طفيف في فـــاس و مراكش و دمشق من حيث نضارة الأشجار و جمال التشييد .

و مع ذلك فنحن لا نجد في كلام ابن سعيد انتقاصا أو ازدراء لبلاد المشرق كما فعل ابن حوقل ، و كما رد ابن فضل الله العمـــري (ت 749 هـ)على " الشهب الثاقبة " ، فلقد ذهب في تعصبه كل مذهب ،فقال :"وكيف تستوي بلاد جنوبها الهند ؟ وهم من أهل العلم والحكمة، مع صفاء الألوان، وحسن الصورة وكمال التخطيط ... ببلاد جنوبُها حثالة السودان؛ المحـــــــــترقة ألوانهم، المشوّهة صورهم ، المختلفة تخاطيطهم ، غاية الجهالة ، والنفوس البهيمية، لا عقول لهم ولا إفهام، هم أقرب شبهاً من بني آدم بالأنعام ..." (1)

و في كلام العمري تجنّ واضح على بلاد لا ناقة لها و لا جمل في ما يدور بين المشرق و المغرب،ثم كيف يعير الأندلس بألوان و أشكال جيرانها؟ !

و ليس غريبا فقـــد درج المشارقة على امتهان المغاربة (*) و وصفهم بأحقـر الصفات التي لا تليق إلا بالعبيد ، كقولـــهم : "وهل وصل إلى الغرب من السؤدد، إلا ما فضل عن الشرق،أو لبس إلا ما أعاره من الخليع المبتـــذل؟

1- ابن فضل الله في رده على الشهب الثاقبة : د / جاسم العبودي : مجلة الحوار المتمدن ، م س .

*- كان المشارقة ينظرون نظرة ازدراء لكل ما هو ات من الغرب الإسلامي ، و بخاصة البربر الذين وصفوهم بأحقر الصفات ، و يؤيد هذا قول مؤلف " مفاخر البربر " : " لما كانت البربر عند كثير من جهلة الناس أخس الأمم و أجهلها ، و أعراها من الفضائل..رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام و رؤساءهم و ثوارهم و أنسابهم .."- مفاخر البربر : مؤلف مجهول : 31

لما دخل عبد الرحمن الداخـــــــل، إلى جزيرة الأندلس، واجتمع إليه من شذاذ القوم من نفضتهم مزاود المشارق، ولفظتهم أسرة الملك، فحينئذ صار الناس بالغرب ناساً ، وإلا كانوا كالبهائم السائمـــة . فمن ذلك الوقت تكلموا باللغة العربية، وامتازوا بالنطق على الحيوان "[1] ، و نحـــن نعتقد أن حنق المشارقة على بلاد الأندلس مرده إلى طبيعة الحكم ؛ ففي الأولى كـــــان عباسيا و في الثانية أمويا خالصا ، وصحيـــــح أن العباسيين قضوا على الأمويين في المشرق ، و لكن هذا لم يمنع من بناء دولة أموية قويـــــة في الأندلس ،على يد أحد الفارين من قبضتهم ، ضاهت بغداد أيام عزهـــا و استمرت كذلك بعد انتثارها .

و لو وضعنا ابن سعيد و العمري في كفتي ميزان لوجدنا الأول أقرب إلى الإنصاف من الثاني ، و دليلنا في هذا أن كاتبنا المغربي أقر بفضائـــــل المشرق في عدة مواضع منها " تفرده بأخـــبار أصيلة كبيان فضائل جند المشارقة وتفوقهم على جند المغاربة، وقـــد ساقتـــــه موضوعيته فيه إلى التشهير بفرسان الأندلس. ويمكننا أن نعده مدخلا حسنا في أدب المناظرة، حيث سخر فيه مادته لتصوير الحياة الاجتماعية والأدبية، التي لا تخلـــو

1-ابن فضل الله في رده على الشهب الثاقبة : د / جاسم العبودي : مجلة الحوار المتمدن ، م س

من جديد معتبر، كما في ملاحظاته الدقيقة بعين عالم اجتماع لأحوال البلاد المشرقية ومقارنتها بالبلاد المغربية "[1] ، بينما انظر إلى قول العمري " إن كان لبعض ملوكهم [المغاربة] تلذذ،فلعله لا يبلغ ما لبعض سوقة المشارقة، والمغاربة لا لهم ظاهر ولا باطن "[2] .

و لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا :إن ابن حزم و الشقندي و ابن سعيد، لم ينظروا إلى المشارقة أو المغاربة ،على حد سواء، بعين الامتهان و الاحتقار ، كما لم ينزلوهم منازل العبيد ،على نحو ما فعل العمري في رده على ابن سعيد، الذي كلفه ثناؤه المعتدل على بلاده و وفاؤه لها عداء أكثر من واحد .

هكذا إذن ،سارت المناظرات الإقليمية في اتجاه واحد لا تحيد عنه ، و هو إظهار الحب الكبير، و الإخلاص الشديد للأندلس، و الاستماتة في الدفاع عنها بأسلوب المناظرة .

1- نقلا عن مقدمة كتاب ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة : د / جاسم العبودي : مجلة الحوار المتمدن ، م س .

2- م ن

الفصل الثالـــــــث

المناظرات الأدبية و الفلسفية

المبحث الأول : مناظرات فلسفية :

لم تعرف الفلسفة في بداياتها الأولى بالأندلس انتشارا كبيرا ، كما لم تلق الحظوة التي لقيتها نظيرتها المشرقية ، فالعامة رفضتها و جاراها الحكام في ذلك ، فضيقوا الخناق على الفلاسفة و اضطهدوهم ، و لم تكن النقمة على الفلسفة محصورة في الطبقة الجاهلة فحسب ، بل تعدتها إلى طبقة المثقفين (*) ، فقد " كان أهل هذه الجزيرة لما ألفوا الفقه و النوازل المالكية ، اعتقدوا أن كل جديد فيه خرق للإسلام و لهذا نفروا من علم الكلام و المنطق .. فلم يبق علم لم يتناوله علماء الإسلام حتى كثر التأليف فيه ، و المناظرة بينهم بسببه في المجالس ... إلا صناعة المنطق ...[كانت] مرفوضة عندهم مطروحة لديهم ، لا يحفل بها و لا يلتفت إليها .. و يرمون العالم بها بالبدعة و الزندقة " (1) .

و على الرغم من أن الفلسفة قد عني بها بعضهم فإن الرفض ظل قائما، بل كانت سببا في التناظر العنيف بين مؤيدي الفلسفة و المنطق و بين

---

*- حذر الكثير من العلماء و الأدباء من الفلسفة و ذموا متعاطيها ، و من هؤلاء أبو بكر بن قسوم إذ قال :
ألا قبح الرحمن شر عصابة ** تدين بأقوال الغواة و تقتدي
تصدق ما قال اب سيناء ضلة ** و تكذب قول الهاشمي محمد – الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة : ابن عبد الملك المراكشي : 6: 246
و في السياق نفسه يقول أبو زيد الفازازي :
...و لكم إمام قد أضر بفهمه ** كتب تبث من الضلال كتائبا
فاقذف بأفلاطون أو رسطاليس ** و ذويهما تسلك طريقا لاحبا
– برنامج شيوخ الرعيني : أبو الحسن الرعيني : 104

1- المناظرة في أصول التشريع الإسلامي : مصطفى الوظيفي : 151

نفاتها، و هو الأمر الذي عمق الخلاف بين الباجي الذي يعد الفلسفة بدعـــــة (1)
و ابن حزم الذي يتبنى المنطق الفلسفي في مذهبه .

و جدير بالذكـــر أن الخـــــلاف بين ابن حزم و الباجي لم يكن منصـــــبا على الفلسفـــــة في ذاتها ، و إنما لاعتمـــــاد الفقيه الظاهري على المنطـــق الذي يرفضه المالكية ، وهكذا ظل حال الفلسفـــــة في الأندلس بين مد و جـــزر ، (**)

تظهر بقوة معلنة عن وجودها حينا ، و تختفي في صمت حينا آخر .

و مما زاد في تأليب الناس على الفلسفة انتعاش الحركـــــة الصوفية و بخاصة (***)
" كتب الغزالي التي هدم بها الفلسفـــــة و عزز الصوفية [التي كانت] أمضى سلاح امتشقه المؤمنون ، و أمتن دعامة استندوا إليها لمهاجمة رجال الفكر". (2)

و لا نبالغ إذا قلنا إن الكثير من المناظـــــرات الفلسفية ضاعت فيما ضاع من (****)
تراث الأندلس ، أو أهملها المؤرخون عن قصد نظرا لتوجهات بعضهم .

غير أن كل ممنوع مرغوب ،و ليس من شك في أن الناس تعاطوا الفلسفة جهرا و سرا ، وأن مناظرات كثيرة جرت بين المؤيدين و المعارضيـــــن ، أو بين الفلاسفة أنفسهم ؛ فالفلسفة أكثر العلوم التي تتبنى الجدال و السجال وقد قيـــل :

1- ينظر المرجع السابق : 156
** ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن ابن حزم هو أول من مزج منطق اليونان بعلوم المسلمين – ينظر : نظرية القياس الأصولي : سليمان داوود : 241
2 - تاريخ الفلسفة الإسلامية : 603
***-إن إجلال الأندلسيين للزهاد و المتصوفة لا يعني بأي حال قبولهم غير المشروط للتصوف " فهم يرفضون كل خروج عما هو مألوف لديهم ، ولأن سلطة الفقهاء كانت كبيرة اتهموا بعض المتصوفين بنشر أفكار فلسفية إلحادية بين تلاميذهم ، كابن مسرة و غيره " – ينظر : الاتجاه الديني في الشعر الأندلسي : محمد صغير – أطروحة ماجستير : 48
****- حارب رجال الدين المسيحي الفلسفة بعد سقوط الأندلس ، و قد عمدوا إلى حرق عشرات آلاف المجلدات من كتب الفلسفة العربية بما فيها كتب ابن رشد التي لم ينج منها إلا الشيء النزر – ينظر : تاريخ الفلسفة الإسلامية : 604

" لا يزال المرء فيلسوفا ما ناظره غيرُه ، أو ناظر غيرَه "[1].

جهود الفلاسفة الأندلسيين :

اطلع الأندلسيـون على كل ما أنتجه المشارقة بما في ذلك النتاج الفلســـفي ، فقد " قرؤوا فلسفة الكندي و الفارابي و الغـــزالي ، و كثـــرت في الساحـــة الأندلسية الشـــــروح و الردود على كتب المشارقـــة ، و قد ألف ابن طفيل قصته المشهورة حي بن يقظان متأثرا بقصة مماثلة كتبها ابن سينا "[2].

و يبدو أن الأندلسييـــن ولعوا بإسقاط الفلسفـــــة على باقي العلوم و الفنون الأخرى كما فعل ابن حزم حين مـــزج المنطق بالفقه ، فالبطليـــوسي[*] مثلا (ت521هـ) كانت له اجتهاداته الفلسفية التي جعلته يعالج مسائل نحوية انطلاقا من توجهاتـــــــه تلك ، فقد دخل " في حوار لغوي فلسفي مع بعض علماء النحو الذين أخذوا الآيات على ظاهرها حتى كفّروا من قال بأن (قائمـــــا) هي حال في قوله تعالى " شهدَ اللّهُ أنه لا إلهَ إلا هُو و الملائِكَة و أولوُ العلْم قائمًا بالقسْط " (3) و تتلخص حجـــة هؤلاء النحويين، في أن الحـــــال : صفة متنقلة و فضلـــة في الكلام ، لذا فإن من المحال إعراب (قائمـــا) بأنها حال لأننا حينئذ نجـــوّز الانتقال و الحركة على الله ، فضلا عن كون القيام بالقسط

1- في أصول الحوار و تجديد علم الكلام : 67

2-الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطليوسي : حسن عبد الرحيم علقم : 48

*- يذكر المؤرخون البطليوسي على انه أديب أكثر منه فيلسوفا .

3- سورة آل عمران : الآية 18

صفة الله تعالى لم يزل موصوفا بها و لا يزال "، و كان رد البطليوسي كالتالي :[1]

"إن النحويين لم يريدوا بقولهم إن الحال فضلة في الكلام بأنه يستغنى عنها في كل موضع على من يتوهم ممن لا دراية له بهذه الصناعة .. و أما القيام الذي وصف الله تعالى به نفسه في هذه الآية فليس يراد به المثول و الانتصاب لأن هذا من صفة الأجسام تعالى الله عن ذلك ، و إنما المراد القيام هنا ، القيام بالأمور و المحافظة عليها ".[2]

و لعل أهم الردود الفلسفية ، رد ابن رشد على الغزالي ؛ فعلاقة الأندلس بالمشرق لم تكن دائما علاقة تبعية ، ولكنها في أحايين كثيرة كانت علاقة تحدّ و إثبات للذات الأندلسية.

رد ابن رشد (ت 595هـ) على الغزالي (ت 505هـ) :

ألف أبو حامد الغزالي كتابه الشهير " تهافت الفلاسفة " الذي انتقد الفلسفة و متعاطيها انتقادا شديدا[*] ، و جدير بالذكر أن الغزالي قبل أن يقدم على نقده ذاك انكب على الفلسفة دراسة و فهما ، " فلا يتوقع ممن يقدم على معرفة ما تورط فيه الفلاسفة من أخطاء أن يكون خالي الذهن عن الفلسفة ، جاهلا بها ، فإن مناقشة المذهب قبل فهمه – كما يقول الغزالي – رمي

1- الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطليوسي : 65

2- نفسه : 66

*- هذا الكتاب وضعه الغزالي في الرد على الفلاسفة و على رأسهم ابن سينا و الفارابي و من لف لفهما – ينظر : معارك أدبية : عبد اللطيف شرارة : 39

في عمايـة "[1] .

و مما عابه الغزالي على الفلاسفة – والمسلمين منهم بخاصة –انسياقـــــــهم وراء الأسماء اليونانية كسقراط و أفلاطـــــون و أرسطو .. بل ذهب إلى أكثر من ذلك حين كفرهم لأنهم خالفوا الدين [2] .

لقـــد كـــان لهـــذا الكتاب أثر قوي في تأليب الناس على الفلاسفـــة سواء في المشرق – موطن تأليفه – أو في الأندلس ، و لكـــــن " إذا كان الغزالي أعنف متكلم هاجم الفلسفة و الفلاسفة ،فإن ابن رشد أعظم فيلسوف تصـــدى للدفاع عن الفلسفة [*] فأعاد [لها] بعض ما فقدتـــــه من رونقها و بهجتها نتيجة للضربات التي وجهها إليها الغزالي " [3] .

و ابن رشد لم يدرك الغزالي، فكتابه الموســـــــوم بتهافت التهافت ألفه بعد قرابة قرن من صدور كتاب تهافت الفلاسفة ، و تقوم طريقته في الـــــرد على إيراد أقوال الغزالـــــي و حججه و تفنيدها بحجج أخرى ، و من تلك المسائل : **"إبطال قولهم في أبدية العالم و الزمان و الحركة "** ، قال الغزالـــــي " .. إن العالم عندهم كما أنه أزلي لا بداية لوجوده فهو أبدي لا نهاية لآخـــــره ، و لا

1- معيار العلم :أبو حامد الغزالي ، تقديم : سليمان دنيا : 17

2- ينظر : تاريخ الفلسفة الإسلامية : 488

*- دافع ابن رشد عن الفلسفة دفاعا مستميتا حتى إنه جعل تعلمها واجبا في الشريعة ، فالفلسفة تتبنى النظر و البحث و التأمل في الموجودات ، وكذلك دعت الشريعة إلى ذلك ..ينظر : فصل المقال فيما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال : ابن رشد : 22 و ما بعدها ، و إذا كان هذا رأي ابن رشد فإن لبعض العلماء رأيا آخر ، فهؤلاء اتهموه بالانحراف عن العقيدة و أن كتبه " مسطورة في الضلال ..ظاهرها موشح بكتاب الله ، و باطنها مصرح بالإعراض عن الله " – المثقفون في الحضارة العربية : محنة ابن حنبل و نكبة ابن رشد : محمد الجابري : 119

3- مقدمة كتاب تهافت التهافت : 13

يتصور فناؤه و فساده بل لم يـــــزل كذلك و لا يـــــزال أيضا كذلك .. فإنهم يقولون إن العالم معلـــول و علته أزلية أبدية ، فكذلك المعلول مع العلـــــة ، و يقولـــــون إذا لم تتغير العلة لم يتغير المعلول ، و عليه بنوا منع الحدوث .. و مسلكهم الثاني أن العالم إذا عدم فيكون عدمه بعد وجوده ..ففيه إثبـــــات الزمان ، و مسلكهم الثالـــث أن إمكان الوجـــــود لا ينقطع فكذلك الوجود الممكن يجـــــوز أن يكون على وفق الإمكان إلا أن هذا الدليل لا يقوى ، فإنا نحيل أن يكون أزليا و لا نحيل أن يكون أبديـــــا ، لو أبقاه الله تعالى أبدا إذ ليس من ضرورة الحادث أن يكون له آخـــر ، و من ضرورة الفعل أن يكون حادثا و أن يكون له أول "[1] .

و يرد ابن رشد على هذه النقطة قائـــلا: " أما قوله إنما يلزم عن دليلهم الأول من أزلية العالم فيما مضى يلزم عنه فيما يستقبل فصحيـــــح ، و كذلك دليلهم الثاني و أما قوله إنه ليس يلزم في الدليل الثالث في المستقبل مثل ما يلـــزم في الماضي على رأيهم فإنا نحيل أن يكون العالم أزليـــــا فيما مضى و لسنا نحيل أن يكون أبديا فيما يستقبـــــل .. فليس كما قال لأنه إذا سلم لهم أن العالم لم يزل إمكانه ، و أن إمكانه يلحقه حالة ممتدة معه ، يقـــــدر بها ذلك الإمكان كما يلحق الموجود الممكن إذا خرج إلى الفعل في تلك الحال، و كان يظهـــــر

1- تهافت الفلاسفة : أبو حامد الغزالي : 124

من هـــــذا الامتداد أنه ليس له أول ، صح لهم أن الزمان ليس له أول "[1].

و يضيف الغزالي في المسألة نفسها فيقول " و أما مسلكهم الرابع فهـــــو محال لأنهم يقولون إذا عدم العالم بقي إمكان وجوده ، إذ الممكـــن لا ينقلب مستحيلا و هو وصف إضافي فيفتقر كل حادث بزعمهم إلى مـــادة سابقة ، و كل منعدم فيفتقر إلى مادة ينعدم عنها فالمواد و الأصول لا تنعدم ، و إنما تنعدم الصور و الأعراض الحالة فيها "[2].

و يرد ابن رشد فيقول :" أما إذا وضع تعاقب الصور دورا على موضـــوع واحد ، ووضع أن الفاعل لهذا التعاقب فاعل لم يزل ، فليس يلزم عن وضع ذلك محال ، و أما إن وضع هذا التعاقـــب على مواد لا نهاية لها أو صور لها نهاية في النوع فهو محال ، و كذلك عن وضع ذلك من غير فاعل أزلي أو من فاعل غير أزلي ، لأنه إن كانت هناك مواد لا نهاية لها و جـــد ما لانهاية له بالفعل و ذلك مستحيل "[3].

و إذا كان الغزالي فيما سبق انتقد أفكار الفلاسفة على العمـــوم دون تعيين فيلسوف بعينه ، فإنه هذه المرة انتقد فيلسوفـــــا على وجه التحديد و هو جالينوس الذي قال بعـــدم زوال الشمس ، و لو كانت كذلك " لظهر عليها

1- تهافت التهافت : ابن رشد : 89
2- تهافت الفلاسفة : 125
3- نفسه: 92

ذبول في مدة مديدة ، و الأرصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنيـــــن لا تدل إلا على هذا المقدار ، فلما لم تذبل في هذه الآماد الطويلـــــة دل أنها لا تفسد ، [و] الاعتراض عليه من وجوه : الأول أن شكل هذا الدليل أن يقـــال: إن كانت الشمس تفسد فلابد أن يلحقها ذبول لكن التالي محـــال فالمقدم محال و هو قياس يسمى عندهم الشرطي المتصـــل ، و هذه النتيجة غير لازمة لأن المقدم غير صحيح ما لم يضف إليه شرطـــا آخر ، وهو قوله إن كانت تفسد فلابد أن تذبل فهذا التالي لا يلزم هذا المقـــدم إلا بزيادة شرط و هو أن يقال إن كانت تفسد فسادا ذبوليا فلا بد و أن تذبـــل في طول المدة ..و لا يسلم أنه لا يفسد الشيء إلا بالذبول .. بل الذبول أحـــد وجوه الفساد و لا يبعد أن يفسد الشيء بغتة و هو على حال كماله "[1] .

و كان رد ابن رشد كالآتي " قلت : الذي عاند به هذا القول في هذا الوجـــه هو أن اللزوم بين المقـــدم و التالي غير صحيح ، و ذلك أن الفساد ليس يلزم أن يذبل إذ كان الفســـــاد يقع للشيء قبل الذبول و اللزوم صحيح إذا وضع الفساد على المجرى الطبيعي ، و لم يوضع قسرا ، و سلم أيضا أن الجـــرم السمـــاوي حيوان و ذلك أن كل حيوان يفسد على المجرى الطبيعي فهو يذبل قبل أن يفسد ضرورة "[2] ، و المسألـــــة الأخرى التي رد فيها ابن رشد على

1- تهافت الفلاسفة : 14

2-تهافت التهافت : 93

الغزالي هي " في إبطال إنكارهم لبعث الأجساد مع التلذذ التام " ، يقـــول :
" زعم الغزالي أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد (*) ، و هذا شيء مـــا وجد لواحد ممن تقدم فيه قـــــول ، و القول بحشر الأجساد أقل ما له منتشر في الشرائع ألف سنة ، و الذين تأدّت إلينا عنهم الفلسفـــة هم دون هذا العدد من السنين ، و ذلك أن أول من قال بحشر الأجســـاد هم أنبياء بني إسرائيل ، وثبت ذلك أيضا في الإنجيل ..بل القوم يظهـــر من أمرهم أنهم أشد الناس تعظيما لها و إيمانا بها.. و ذلك أنهم يرون أن الإنسان لا حياة له في هـــذه الدار و لا في الدار الآخرة إلا بالفضائل النظريـــة ، و أنه و لا واحد هذين يتم إلا بمعرفة الله تعالى " (1) ، و يختم ابن رشـــد ردوده بالقول بأن الغزالي أخطأ على الشريعة و على الحكمة على حد سواء (**)(2) .

و النتائج التي يمكن أن نستشفـــها هي أن الغزالي هاجم الفلاسفة مقدما أدلة نقلية أكثر منها عقليـــة و إن لم يصرح بذلك ،ففي الشريعة الإسلامية العالم يفنى و الشمس و كل المخلوقـــات ، و الناس سيبعثون و يحاسبون كما أخبر بذلك القرآن و السنة ، أما ابن رشد فعـــمد إلى نقض كلام الغزالي و الدفاع عن الفلاسفة دفاعا مطلقا حتى في الأمور الـــمسلم بها عند المسلمين (***) ، و إلا

---

*ينظر : تهافت الفلاسفة : 282
1- تهافت التهافت : 393-394
2- نفسه : 398
**- بلغ مجموع المسائل التي رد فيه ابن رشد على الغزالي ست عشرة مسألة .
***- كان ابن رشد أوفى إطلاعا على مؤلفات أرسطو مما أعانه على خوض معركته مع الغزالي دون التقيد بابن سينا أو غيره – ينظر : معارك أدبية : عبد اللطيف شرارة : 41

فإن أكثر الفلاسفة ينكرون البعث .. و على العموم فقد توفر في كـــــــــــلام الغزالي و ابن رشـــــــد بعض من شروط المناظـــرة على الرغم من تباعد الفاصل الزمني بينهما ، أما أسلوب الحـــــوار فتراوح بين الهدوء و التحامل ، فالغزالي هاجم الفلاسفة جميعهم دون استثنـــــــــــاء ، أما ابن رشد فكان رده موجها للغزالي(*) على وجه التحديد، لذلك وجدناه يبدو متحاملا عليه فيتهمـــــه حينا بالخطأ على الشريعة ، و حينا آخر بالتخليط و عدم الفهم .

و يواصل ابن رشد ، في كتابه " فصل المقـــــــال " ، في الدفاع عن الفلسفـة و متعاطيها ممن كفرهم الغزالي ، يقول " فإن قلت : فإذا لم يجب التكفير بخـــرق الإجماع ، إذ لا يتصور في ذلك إجماع ، فما تقول في الفلاسفة من أهل الإســـلام كأبي نصر و ابن سينا ، فإن أبا حامد قد قطع بتكفيرهما ..." (1) "فالكاتب هنا في مقام النظر و المناظرة في قضية فكرية فقهيـــة تتحدد فيها أسماء الخصوم و موضوع الخصومة و نتيجة حكم سابق يريد مراجعته تمهيدا لنقضه " (2) ، و لم تكن الحجـــة بعيدة عن ابن رشد أو مستعصية ، فهي موجودة في كلام الغزالي نفسه ، يقـــول :

---

*- انتقد أبو بكر يحي بن محمد التطيلي (ت 629هـ) رد ابن رشد بشدة فقال :

كلام ابن رشد لا يبين رشاده *** هو الليل يعشي الناظرين سواده
و لاسيما نقض التهافت إنه *** تضمن برساما يعز اعتقـــــاده
أتى فيه بالبهت الصريح مغالطا *** فما غير البحر الخضم ثماده
وحاول إخفاء الغزالة بالستها *** فأخفق مسعاه ورد اعتقـــــاده

- الإحاطة : 4 : 417

1- فصل المقال : 36

2- نقلا عن مقال " الخطاب الحواري في فصل المقال " لمعجب الزهراني ، مجلة الرافد ، دار الثقافة و الإعلام ، الشارقة:43

" الظاهر من قوله في ذلك أنه ليس في تكفيره إياهما في ذلك قطعا ، إذ قد صرح في كتابه " التفرقة " (*) أن التكفير بخرق الإجماع فيه احتمال " (1) ، و تكفير العباد أمر من الخطورة بمكان و لا يبنى على احتمال أو شك ، و يتضح هنا وقوع الغزالي في التناقض بين كلامه في " تهافت الفلاسفة " ، و كلامه في " التفرقة " ، و هذا ما حاول ابن رشد إظهاره و صوغ حجته انطلاقا منه .

هذا و قد لجأ " ابن رشد إلى المفارقة الساخرة في مواضع قليلة من فصل المقال لكنها على درجة عالية من الأهمية من حيث فعاليتها الفكرية " (2) ، و قد استعان في ذلك بأمثلة ،أقل ما يقال عنها أنها ساذجة إمعانا في استصغار حجج خصوم الفلسفة،إذ يقول" إن مَثَل مَن منع النظر في كتب الحكمة مَن هو أهل لها ، من أجل أن قوما من أراذل الناس قد يظن بهم أنهم ضلوا من قبل نظرهم فيها ، مَثَل من منع العطشان شرب الماء البارد العذب حتى مات من العطش لأن قوما شرقوا به فماتوا ، فإن الموت عن الماء بالشرَق أمر عارض ، و عن العطش أمر ذاتي و ضروري " (3) ، و لا يكتفي ابن رشد بضرب الأمثلة لدحض حجج من يدعي أن تعاطي الفلسفة يؤدي إلى الكفر ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يعرّض بالفقهاء منتهجا الأسلوب الساخر ذاته فيقول " فكم من فقيه كان الفقه سببا لقلة تورعه ،

---

*-العنوان الكامل للكتاب هو : فيصل التفرقة بين الإسلام و الزندقة .

1- فصل المقال : 37

2- الخطاب الحواري في فصل المقال : م س : 45

3- فصل المقال : 30

و خوضه في الدنيا ، بـــــل أكثر الفقهاء هكذا نجدهم ، و صناعتهم إنما تقتضي الفضيلة العلمية ، ما عرض في الصناعة التي تقتضي العملية "[1] ، و " هكذا تصل السخرية حد الفضح و التشنيع ، لا لمجرد أن الأمر يتعلق بالخصوم الأشد عـداء للفلسفة و أهلها ، بل و لأنهم أيضا الأشد خطرا على الحكمة و على الشريعة ، بل و على حياة الناس الذين تعودوا وضع هذه الفئة الاجتماعيـــة في منزلة عالية لا يستحقها غيرهم "[2] ، وابن رشد هنا تحول من المدافع إلى المهاجم ، و من المتهـــم إلى القاضي الذي حكم أخيرا للحكمة و برّأها مما نسب إليها ،و حاكمَ من قدح فيها.

1- المصدر السابق : 30
2- الخطاب الحواري في فصل المقال : م س : 47

المبحث الثاني : مناظرات أدبية :

تختلف المناظرات الأدبية(*) عن سابقاتها لتميزها بالهدوء على العمـــــــوم ، و لاتسامها بروح المنافسة و الرغبة في إظهار التفوق بعيدا عن القدح و التجريح .

المعارضات :

إذا كان الأندلسي بدأ مشواره الأدبي مقلدا و محاكيا نظيـــــره المشرقـــي ، فإن الأمر اختلف حين اكتشف أندلسيتـــه ، و قد " راح الكتاب الباحثون عن صيغ فنية جديدة يرتادون آفاق المعارضة تحدوهم رغبة صادقة في إقامة الحجـــــة على أن مِن بين الأندلسيين من يوضـــــع مع أعلام المشارقة في كفتي ميزان"(1).

والمعارضة في الشعـــــر أن ينظم شاعر ما قصيدة فيأتي شاعر آخر قـــد أعجب بجانبها الفني و صياغتـــــها الممتازة ، فينظم قصـيدة أخرى من بحر الأولى و قافيتها و موضوعهـــــا ، و يحـــــرص على أن يضاهي القصيدة المعارضَة أو يتفوق عليها ، دون أن يكون فخره صريحا ، فالمعارضـــــــة تحمل في معناها " المماثلة التي ترتكـــــــــز على غريزة المحاكاة و المقابلة التي تجسد غريزة المنافسة التي فطر الإنسان عليها "(3) .

و المعارضة تختلف عن المناظـرة في أسلوبها الذي يبتعد تمامـــــا عن

---

*- دارت المعارك الأدبية في العصر الأموي حول جماعة الشعراء الفحول :جرير و الفرزدق و الأخطل ، و قد حدثت خصومات أدبية جعلت كل جماعة تفضل شاعرا ما بالنظر إلى جودة شعره ، و تواصلت المعارك الأدبية في العصر العباسي حول بشار و أبي نواس ثم أبي تمام و البحتري ثم المتنبي – ينظر : تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى القرن 4هـ: محمد زغلول سلام : 17-18

1- الحوار الأدبي بين المشرق و الأندلس : أيمن محمد ميدان : 100

2- ينظر : تاريخ النقائض في الشعر العربي : 07

3- الحوار الأدبي : 165

التجريح و التعريض ، أو المفاخـــــــــرة علنا – كما يفعل أكثر المناظرين – و هي لا تقتصر على الشعر فحسب بل نجدها في النثر كذلك ، فقـــــد عارض " ابن عبد الغفور الكلاعي أبا العلاء المعـــــــري في أربعة كتب ، و عارض أبو المغيرة ابن حزم بديع الزمان الهمذاني ..

على أن الأندلسييـــــــن عارضوا بصفة أكثر كبار الشعراء المشارقـــــــة .

معارضة ابن شهيد للبحتري :

يقول البحتري :

ما على الرّكْبِ من وُقوف الرّكاب *** في مَغاني الصّبا و رسْمِ التّصَابي

.. عيّرتْني المشيب و هي بدَته *** في عذاري بالصّدّ و الاجتنـــاب

لا تَربه عارًا فما هُو بالشيْب *** و لكنّه جَلاء الشبـــــــــــــاب

و بياضُ البازي أصْدق حُسْنا *** إن تأمّلت مِن سَواد الغُـــــرَاب(1)

أما ابن شهيد فقال :

هذه دارُ زينب و الرباب *** .....(*)

قد تركْنا الصّبا لكلّ غَويّ *** و انسلَخنا مِن كلّ ذام و عَاب

و انقطعْنا لوَاعِظات مَشِيب *** آذنتْنا حَياتها بذهَـــــاب

و إذا مَا الصّبا تحمل عَنا *** فقبيحٌ بنا ارْتضاءُ التّصابِـــي(2)

1- الديوان : 08

*- يقول محقق الديوان : جاء المقطع الطللي مبتورا و السبب راجع إلى ضياع شعر كثير من شعر ابن شهيد : الديوان :77

2- الديوان : 85

لقد عدّ ابن شهيد " الميل إلى لهو الصبا بعد أن اشتعل الرأس شيبا غوايـــــــة يجب الابتعـــــــــاد عنها ، بيد أن المطلع على حياة الرجل يجد تناقضا بينها و بين ما ذهب إليه ، و لعل التبرير الوحيـــــــــد هو أن ابن شهيد يريد إثبات الجدارة عن طريق مخالفة فكرة البحتري لا أكثر "[1] ، و نحسبه وفـــق في ذلك .

معارضة ابن زيدون للمتنبي :

يقول المتنبي :

بمَ التّعلّل ُلا أهلٌ و لا وطنٌ *** و لا نديمٌ و لا كأسٌ و لا سَكن

..فما يدومُ سُرور مذ سُررتُ به *** و لا يردّ عَلَيك الفائِتُ الحزن

.. يا مَن نعِيت عَلى بُعد بمجْلِسه *** كلّ بما زعَم الناعُون مُرتهَن(2)

و يقول ابن زيدون معارضا :

هلْ تذكُرونَ غَريبًا عادَه الشّجَن *** مِن ذكْركُم و جَفا أجْفانهُ الوسَن

يا ويْلتاهُ أيبْقى في جَوانحِه *** فُؤادهُ و هُو بالأطلالِ مُرتهَـــــــن

و أرّق العَين – و الظلمَاء عاكِفة *** ورْقاء قدْ شفّها – إذ شَفّني – حَزن

بمَ التّعلّل لا أهْل و لا وطنٌ *** و لا نديمٌ و لا كأسٌ و لا سَكـــن(3)

فابن زيدون عارض المتنبي في هذه القصيدة معارضـــــــة حسنة حتى إننا لا نكاد نميز أيهما أجـــــود ، و الملفت للنظر أن ابن زيـــــدون جعل من بيت المتنبي الأول خاتمة لقصيدته ، و كأنه يريـــــــد أن يشير إلى إمكانية قراءتها

1- المعارضات في الشعر الأندلسي : 341
2- الديوان : 471-472
3- الديوان : 162

عكسيا ؛ أي من الأسفل إلى الأعلى دون أن يختل المعنى أو يتبدل .

فالمتنبي الذي شغل الدنيا بشعره عارضه ابن زيدون ليثبت بأنه جدير بأن يوضع في صف واحد مع المتنبـــــي ، و في المقابل هناك من حاول معارضتـــــه ولكنه فشل ، فقد ذكـــر صاحب الذخيرة قصة أبي عبد الله بن شـــــرف الذي أراد أن يعارض المتنبي في مجلس المأمـــــون بن ذي النون بعـــــد أن رأى القوم أثنوا عليه ، فمكث زمنا يحاول و لم يأت بشيء .(1)

و قد تنافس ملوك الطوائف في جمع الشعراء و الأدباء من حولـــــــهم ، حتى يطيروا بذكرهم و يخلدوا آثـــــــارهم ، و لم يكن هدفهم ضمان الريادة على الصعيد الأندلســـــي فحسب بل راموا التفوق على ملوك المشـــــرق أيضا ، فكثيرا ما كانت " تنطوي المعارضـــــة على بعد سياسي لاسيما حين يكلـف أمير أو حاكم أندلسي شاعرا بمعارضة شاعر مشرقـــــي ، فإنه إن نســـــب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي يكـــــــون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق ".(*)(2)

فقد أنشد بحضرة أحد ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق و هي :

و ماذا عليْهم لو أجابوُا فسَلّموا ** و قد عَلمُوا أني المشوّق المتيّم

سَروا و نجومُ الليْل زهرٌ طوالع ** على أنهّمُ بالليْل للنّاس أنجُـــم

1- ينظر : الذخيرة : 4: 14

2- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة : منجد مصطفى بهجت : 270

*- كثرت معارضات الأندلسيين للمشارقة كمعارضة أبي بكر الأشبوني لأبي فراس الحمداني ، و معارضة ابن دراج لأبي نواس ، و معارضة ابن هانئ للمتنبي ... و غيرها كثير كثير .

و أخْفوا على تِلك المطايا مَسِيرَهُم ** فنمّ عَليه في الظلامِ التبسّم

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها ، و قـــــــال : هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله ، و بالحضرة أبوبكر يحي بن هذيل فقال بديها :

عَرفتُ بعرفِ الرّيح أيْن تَيَمّمُوا ** و أينَ استقلّ الظاعِنُون و خَيّمـــوا

خلِيلي ّ ردّاني إلى جَانبِ الحِمَى ** فلسْت إلى غيْر الحِمى أتيَمّـم

... نظرتُ إلى أجْفانهِ و إلى الهَوى ** فأيقنتُ أني لسْتُ منهُنّ أسْلـم(1)

و لعل هذه القطعة الارتجالية ضاهت الشعر المذكور سلفا،بل وربما فاقته من حيث جودة الصياغة و دقة التشبيه و لطف المعنى .

عكســـــت المعارضة إذن رغبة الأندلسي في إثبات التفوق أمام نظيـــره المشرقي (*) ، و لئن كانت المناظـــــرة تبتعد بشروطها عن المعارضة إلا أنهـا أحيانا تقترب منها حين يتوفـــر شرط إفحام الآخر و إثبـــات التفوق عليه ، و إذا كانت الحجج مطلوبة في المناظرة فإنهـــا لا تكون كذلك في المعارضة لأن حجج الشاعـــر تكمن في قدرته على صياغة الأسلـــوب ، و استحضار المعاني ، و الإبحار في الخيال لإقناع المتلقي بجودة شعره .

و لم يكتف الأندلسيون بمعارضة المشارقة بل راموا أبعد من ذلك ، فقد كـــان هدفهم التالي إثبات التفوق عليهم ليس في الشعر فحسب بل في ضروب الأدب كله

1- نفح الطيب : 4 : 136

*- إن الإعجاب الشديد بأبي تمام و المتنبي ولّد اتجاها معاكسا راح ينتقد هؤلاء و يباهي بشعراء الأندلس ، و من ذلك مدح أبي بكر بن عبد الصمد لابن زيدون قائلا : فإن زهدت طيا في حبيب ** فقد زهدت في كعب إيادا ، و من ذلك قول ابن خفاجة يطري على شعر أحد أصدقائه : برعت فرعت فمن ذا حبيب ** له الويل أم من أبو الطيب – ينظر : أبو تمام و أبو الطيب في أدب المغاربة : محمد بن شريفة : 75 و ما بعدها .

فابن حزم مثلا يضاهي بشعراء الأندلس فحول شعراء المشرق ، فيقـــــول : " لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شـــأو حبيب والمتنبي ، فكيف و لنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، و أحمد بن عبد الملك بن مروان ، و أغلب بن شعيب ، و محمد بن شخيص ، و أحمد بن فرج ، و عبـــد الملك بن سعيد المرادي ، و كل هؤلاء فحل يهاب جانبه ، و حصان ممســـــوح الغرة" (1) ، والأندلسيون أيضا أهل بلاغة ، يقول " و لنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، و له من التصرف في وجوه البلاغة و شُعبها مقدار ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو و سهل " (2) ، فشأو ابن شهيد في البلاغة شأو كبير ، و هو إلى جانب هذا ناقد مفوه يرى الأندلسيين أصحاب فضل و سبق في الشعر ، فقد وصف أبا المخشي فقال : " و أما أبو المخشي فإنه قديم الحوك و الصنعـة ، عربي الدار و النشأة ، و إنما تردد بالأندلس غريبا طارئا ، و هو من فحـــــول الشعراء القدماء و المتقدمين " (3) ، و كذلك فعل الشيء نفسه ابن بسام في ذخيرته ، ففضل أدباء عدوة الأندلس إلى حد المبالغة أحيانا ، و كأنه لم ينقم عليهم ذات مرة تقليدهم الأعمى لكل ما هو مشرقي، و لكن يبدو أن نداء الوطن أقوى من أي نداء .

1-تيارات النقد الأدبي في الأندلس : مصطفى عليان عبد الرحيم : 291
2-نفسه : 291
3-نفسه : 292

مناظرة حول الترجيح بين البديع (398هـ) و الصابي (384هـ) :

لقي بديع الزمان الهمذاني و الصابي عناية في المشرق و كـــــــــذلك في الأندلس ، فقد قام كل من أبي محمد القاسم صاحـــــب بونت و أبي عبد الله بن أبي الخصال (ت 540هـ) للسجـــــال حول أيهما يستحق الريادة في الأدب ، فقال صاحب بونت :" البديع و الصابي فرسا رهان جريا منـــه إلى مـــــدى فأدركاه .. هذا يبلغ شأوه عفـــوا و ذلك يجهد إليه عدوا .. فالبديـــــع إذا رفع أبدع و الصابي إذا صاب أصاب " (1) ، فأبـــــو محمد القاسم كما نرى بدأ حديثه بالاعتراف بفضل كل من الأديبين ، ثم رجـــــــح كفة البديع لأنه يبلغ مراده بسهولة ، على حين لا يدرك الصابي غايته إلا بعد جهد ، و يضيف قائـــلا : "غير أن البديع أعرق نزعـــــــا و أفصح ، و الصابي أوسع بابا في ميدان الإسهاب و أفسح ، لا جرم أنهما فارسا الحلبة بالإجماع ، و إماما القـــــوم في حسن الاختراع " (2) .

أما ابن أبي الخصـــــال فرد عليه قائـــلا : " وقفت لك منذ أيام على نفثات غر ، و كلام بين البديـــــع و الصابي حر .. تناوله خاطـــــرك من علـــو .. لكنك والله جرعت الصابي منه صابـــــا ، و ملأت صدور شيعه أوصابـــا .. "ينظرُونَ من طرفٍ خَفِي " (3) ، لا يستقـــــل لهم لواء و " لا يرْتدّ إليْهم طرْفهم

1- رسائل و مقامات أندلسية : فوزي عيسى : 196
2- نفسه : 197
3- سورة الشورى : الآية 45

و أفئِدتهُم هَوَاء"(1)[2]،فابن أبي الخصال ينتقد صاحب بونت انتقادا شديـــــــدا لأنه فضل البديع على الصابي ، و المقارنة أصـــــــلا لا تجوز لانعدام الكفاءة بينهما إذ يقول :"فالموازنة كالمباراة إنما تكـــــــون بالوفاء و مقارعة الأكفاء بالأكفاء و لذلك أبت قريش إلا أقتالها "[3] ، و يضيف قائـــــــلا: " و أبو الفضل و إن كان كما سمي بديعا .. لا يقاس بأبي إسحـــــــاق رأسا ، و لا يجعل له سلما و لا بأسا ..و أبو إسحاق معين القول ، مقـــــدم على الهول .. إن غضب حسبت الناس غضابا .. و إن رضي عاد المشيب شبابـــــــا ، و فتحت السماء أبوابا "[4] ، وابن أبي الخصال يتحيز تحيزا واضحا للصابي و كمـــــــا نرى فهو يثني على الصفات الخارجية أكثر من ثنائه على كتاباتـــــــه ، حتى ليخيل إلينا الصابي فارسا لا كاتبا ، و يضيف قائـــــــلا :" و أنا لا أعدل الهزل بالفصل و لا الخيزرانة بالنصل ، و لا أرغب عن الهدى و لا أضع السيـــــــف موضع الندى"[5] ، " و في هذا هجـــــــــوم على طريقة البديع و تلاعبـــــــه بالألفاظ و موضوعاته التي طرقـــــــها مما سماه أبو عبد الله تشخيص الأوهـــــــام المستحيلة و الأخاليق "[6] ،هذا و قـــــد أشار ابن أبي الخصال إلى نقطة فاصلة

1- سورة ابراهيم : الآية 43
2– رسائل و مقامات أندلسية : 200
3- نفسه : 201
4- نفسه : 202
5- نفسه : 206
6- تاريخ النقد الأدبي : محمد رضوان الداية : 343

في تاريخ الأدب الأندلسي "، و هي تتعلق بتقليد المشارقة و ترسم خطـــــاهم .. قال : و هل نفس التكلف إلا ما دفع البديـــــع إليه ، تبعناه معشـــــر الضعفاء عليه حين عدلنا عن المنهج و دخلنا تحت الحرج "[1] .

الواقـــــــع أن هذا النوع من المناظـــرات مما يكون موضوعه ترجيح كفة شخص على آخر، يفتقـــر – في الغالب – إلى الموضوعيـــــة ،إذ لا يمكن بأي حـــــال أن نفصل الميولات الشخصية للمتناظرين عن الآراء التي يبديانـــــها حول المتناظر حولهما ..

مناظرة بين النثر و الشعر للسرقسطي :

لقـــــد أجرى السرقسطي مناظرة فاضل فيها بين النثر و الشعر في شكـــــل حوار دار بين ولدي السدوسي[*] حبيـــــب و غريـــــب ، أما حبيب ففضل الشعر قائلا :" ألم تر أن الشعر أصعـــــــب مرتقى ، و أغرب منتقى ، و أبرع لفـظا ، و أسرع حفظا ، و أوســـع مجازا ، و أنصع إيجـــازا .. و هل سمعت بنثـــر تخلـــع عليه اللحون ، أو تراق عليـــــه الأعساس و الصحون ، فتنشق دونه الجيوب و تبرز من ضمائر الغيـــــوب .. أما النثر فعنان يرسل ، و بـــيان ينســـــل .. و حوض مورود و ثوب مهرود ، و حمى مستباح "[2] ، فالشعـــر

1- المصدر السابق : 355

*- السدوسي هو أحد أبطال مقامات السرقسطي

2- المقامات اللزومية : أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي : 373 و ما بعدها

يفضل النثر عند حبيب من و جه أنه صعب المرتقى لا يتيسر لأي كـــان ، و في الوقت نفســـه هو سهـــل الحفظ و من ثم فقد جمـــع بين السهولة و الصعوبة في آن واحد ، بينما النثـــر حمى مستباح يقصده جميع الناس لسهولته ، و هو كلام طويل لا إيجاز فيه و لا جمال ، أما غريـــب فله رأي آخر ،فالنثر " أطوع عنانا و أنفذ سنانا ، به تملك الممالك و تسلك المســالك ، و تخدم الرياسة و تقام السياسة ، و تصان الأحوال و تحفظ الأمـــوال ..به تتحلى الرسائل و تنتحل الوسائل فينجح الطالب و السائل .. و لو كـــان بالنظم شرف يكتسب أو فخار يحتسب لما رفع عنه شريف قدره ، و حمـى لسان الشريف عن ذكره " (1) ، فغريب يرى أن الصعوبة ليست مقياسا للجودة و على العكس من ذلك فإن النثر أسهـل و أيسر و لذلك يقصده الناس ، كما أن الدولة لا تقام إلا به إذ هو عمـــادها ، ليس كالشعر الذي لو كان فيه خير لما ترفع عنه ذوو النفوس الكبيـــرة ، و طال الجـــدال دون أن يقتنع واحد بكلام صاحبه حتى تدخـــل السدوسي قائلا: " فلا تفضلا قائلا على قائل إلا بفضل فاضـــل و طول طائل .. و خـــذا في كل الأحوال بالأعدل الأقسط و ميلا إلى الأسهل و الأبسط " (2) ، و السدوسي لم يفصل في الأمر إذ لا ناقـة

1- المصدر السابق : 375-376
2- نفسه : 378

له في هذه المعركة و لا جمل ، بل راح يشكو قلة ذات يد الأدباء " فقـــــال و الخطاب لبنيه : تشاغلتما بالآداب و المعـــــــارف و غفلتما عن الأحداث و الصوارف ، و أنـــــا دونكما أرامي و أناضل و أزاحم الأيام و أعاضل ، و هذا العلم قد أضاعته الضوائع و ذعرت سربه الروائـــــــــع ، فجادله الحاضرون و أدرك من حديثه ما أراد " .(1)

فصاحب المقامة أثار هذا الصراع التقليدي بين الشعر و النثر(*) لغاية مـحددة هي الشكوى من حال الأديب الذي كسدت بضاعته .

رد الكاتب أبي الأصبغ ابن أرقم على ابن سيدة (ت 458هـ) :(**)

كتب أبو الأصبغ بأمر من إقبال الدولة(***) رسالـــة إلى مصر فانتقده ابن سيدة مصححا عليه بعض الأمور ، و من جملـــة ذلك : أن ابن الأرقم كتب "الحمد لله تيمنا بحمده ، وتحديا لحده ، الهادي من ارتضـــاه سبل رضاه ، الـــحادي من انتقاه إلى علم تقاه ..فأنكر[ابن سيدة] تحديا ووضع مكانه تصديـــــا " .(2)

فكان رد ابن الأرقم كالآتي " يكفي في هذا قول بشار في سيبويـــــــــه :

أسيبَويه يا ابنَ الفارسيّة ما الذي ** تحدّيتَ من شتْمِي و ما كُنت تَنبذ

1- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : رضوان الداية : 363

*- " كان الشعر يلاقي منذ نشأته أعداء يحملون عليه ، و يقاومون انتشاره ، و يهيبون بالناس إلى نبذ الشعراء .. و تلك أولى المعارك الأدبية التي عرفها التاريخ .. فأفلاطون يخلص في الكتاب العاشر من جمهوريته إلى طرد الشعراء و إغلاق أبوابها دونهم " – معارك أدبية : عبد اللطيف شرارة : 17

**- توفي في عهد المعتمد بن عباد.

***- هو إقبال الدولة علي بن مجاهد خلف أباه على إمارة دانية و حكمها من سنة 436 إلى 486هـ

2- الذخيرة : 3 : 237

و قال صاحب العين : حدا بمعنى تبع فإذا بنيت منه تفعّلت قلت تتبـــــعت "،[1] وابن الأرقم أتى بالشواهد التي تؤيد صحة قوله ، ذلك أن التحدي هنا بمعنى التتبع و ليس المنافسة كما ظن ابن سيدة الذي أنكر عليه أيضا قولـــــــه : الحادي إذ " ليس من صفات الله و لا يجوز أن يوصف إلا بما وصف بـــه نفسه تعالى،أو بما وصفه رسوله و بدّل الحادي بالمرشد [فرد أبو الأصبغ] ما أعظم هذا السهو ، و ما أضيق هذا الشأو ، و ما أقبح هذا البهت ، و مـا أخشن هذا النحت .. و ماذا على من قال الحـــمد لله منقذنا .. و سائقنا لما يحب و يرضى .. و ليس شيء من هذا في القـــرآن ، و لا في حديثه عليه السلام ، و اسم الفاعل العامل في ما بعده كالفعـــل يجري مجراه ، و ينحو منحاه و أفعالنا كلها لله تعالى .. قال أبـــو بكر الباقلاني : يوصف الله تعالى بما لا يقع إجماع المسلمين على منعه .. و قـــال أبو عبد الله محمد بن عمر المرزبان : الحمد لله الهادي حمده برحمته ، و المـــوجب من بره برأفته ، و الموجب ليس من صفات الله في القرآن و لكنه أجراه مجرى الفعـــل كما فعلنا نحن .. قال أصحاب اللغة : الحادي بمعنى السائـــق .. و المرشد ليس في القرآن فأتوا بما أنكروه ، و أثبتوا ما ردوه "[2] .

1- المصدر السابق : 3 : 237-238
2- نفسه : 3 : 237-238

و استمر ابن الأرقم في الرد على ابن سيدة مستشهدا بالقرآن و الحديـــــــث و أشـــــــعار العرب و مأثورها ، مشيرا في كل مرة إلى جهل منتقده و عدم إلمامه باللغة .

رد ابن السيد البطليوسي على أبي بكر بن العربي :

ألف البطليوسي شرحا لشعر المعري ، إلا أن أبا بكر انتقده انتـــقادا لاذعا أظهر فيه عدم تمكن صاحب الشـــــروح ، و جهله لبعض الأمور اللغويـــة و النحوية ، فرد عليه البطليوسي فقـــال:" وجدناك – أعزك الله – لما انتهيت إلى قول المعري :

أراني في الثلاثة من شجُوني ** فلا تسأل عن الخبر النبيـــث

لفقدي ناظري و لزوم بيتي ** و كون النفس في الجسد الخبيث

كتبت منكرا لروايتنا ، متوهما التصحيف علينا الذي قرأته شجوني بالشيـــن المعجمة ، فأي مدخل ههنا للشجون أبقاك الله ؟ و هل هذا إلا من التصحيـف الطريف ؟ إنما وصف المعري أنه مسجون في ثلاثة سجـــــــون .. فجعل جسمه سجنا لنفسه ، وبيته سجنا لشخصه ، و عماه سجنا لبصره ".(1)

و البطليوسي يتعجب من موقف ابن العربي و كيف سولت له نفسه أن يتهمه بعدم العلم ، فلم ينتبه إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تصحيفا ،و في مسألـــة أخرى انتقده على قوله السماوة بدل السماءة ، يقول صاحب الشروح " لمـــا

1- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : 348-349

انتهى بك النظر إلى قوله :

فذكّرني بدْر السّماوَة بادنا **شَفا لاحَ من بدْر السّماوة بال

أنكرت السمـــــاوة الثانية ، و كتبت السمـــــاءة بالهمزة فلم أنكرتها علينا ؟ أحسبت أنـــــها لا تقال أم حسبت أنها أليق بالبيت ؟ و كلا الأمرين لنا فيـــه الظهور عليك لأن أهل اللغـــــة حكوا أنه يقال سماء و سمـــــاءة ، و سماوة و سماة .. و أما عن طريق الترجيح فإن السمـــــاوة أحسن الوجهين : أحدهما أنه أفصح اللغتين لأنها أكثـــــــر استعمالا .. و يدل على ذلك أنـــــــهم قالوا في الجمـــع سماوات .. و لا يكادون يقولون سماءات ، و الوجه الثانـــي أنها أليق بالبيت لمـــا تقدم في صدره من ذكر السماوة الأخـــرى ، فأفسدت على الرجل التجنيس الذي جرى إليه .. فما هذا الخـــــلاف و العناد و أين النظـــر الحسن و الانتقاد ؟ " [1] ، و هكذا مضى البطليوسي في الرد على ابن العربـــي مستشهدا بالقرآن و كلام العرب و شعر المعري نفسه ، و كانت حججه كمـــا بدت قوية مقنعة ، و بهـــــذا انتصر لنفسه كما أراد من خلال تسميـــة رده برسالة الانتصار .

مناظرات نحوية :

اضطلع الأندلسي في فنون الأدب كما اضطلع في اللغة و غريبها ، وكانت له اجتهادات و سجالات في المسائل النحوية على غرار ما كان واقعا في المشرق ،

1- المرجع السابق : 349-350

بل إن هناك من علماء اللغة الأندلسيين من تصدى بالرد على نحاة المشرق و على نظرياتهم و قواعدهم التي استنبطـــــوها بعد بحـــــث و تمحيص ، فابن مضاء الأندلسي(ت 592هـ) مثلا ألف كتابا سماه " الرد على النحاة " ، و فيه تعرض للمسائل النحوية التي أثارها ابن جني و سيبويه و غيرهما منتقدا إياها حينا و مفندا حينا آخر ، و من الأمثلة على ذلك مسألة " تقدير الضمائر في الأفعال " ، فقـــد " وضع النحاة أصلا هو أن الفاعل لا يتقدم على فعله ، فإذا تقدم نحو : زيد قام ، فلا يعربون المتقدم فاعلا ، بل يعدونه مبتدأ ، و يقدرون في الفعل ضميرا مستترا يكون هو الفاعل ... و تقدير النحاة للفاعل المستتر يدل على أن الفعل عندهم لا يدل بلفظه على الفاعل ، إذ لو كان كذلك لما أضمروا فيه فاعلا ..و قد ناقش ابن مضاء دلالة الفعل ، و انتهى إلى أن الفعل يدل بلفظه على فاعل مبهم ..قال : ألا ترى أنك تعرف من الياء التي في " يعلم" أن الفاعل غائب مذكر ؟،و من الألف في "أعلم" أنه متكلم ... و تعرف من لفظ " علم " أن الفاعل غائب مذكر ، و على هذا فـــلا ضمير ،لأن الفعل يدل عليه بلفظه كما يدل على الزمان،فلا حاجة بنا إلى إضمار".(1)

و قد دعا ابن مضاء إلى حذف ثلاثة أمور من النحو و هي : العوامل النحـــوية ، العلل و التمارين ، مقدما آراء من تقدمه ثم الحجج التي يراها أصلح و أقرب إلى الصواب في تحد جديد للمشارقة .

1- الرد على النحاة : 29

و من أمثلة المناظرات النحوية أيضا: استعمالات (ماذا) : أهي للاستفهـــام أم للتكثير؟ " و في هذا جرت مناظـــرة بين الأديـــب البليغ الحافظ أبي بكر بن جيش و أبي زكريا يحي بن علي (ت 700هـ)، قال الحافظ أبو بكر:

بماذا على كل من الحق أوجبت

فاعترض عليه أبو زكريا بما نصه : استعـمل ماذا في البيت تكثيـــرا و خبرا و المعروف من كـــــلام استعمالها استفهاما ، فجاوبه بقوله : أمـــا استعمالها استفهاما كما قال فكثير .. و أما استعمالها في ألسن فصحـــــاء العرب للكثرة فكثير لا يحتاج إلى شاهد " (1) ، فالحـــافظ وافق أبا زكريا في أن ماذا تستعمـل للاستفهام و هـــو أمر مفروغ منه ، و لكنـــها أيضا تستعمل للخبر بغرض التكثير ، و قـــد ساق إليه عدة شواهـــد كقوله تعالى: " قل انظرُوا مَـــاذا في السّماواتِ والأرض و مَا تُغنِي الآياتُ و النذُر عَن قومٍ لا يؤمِنُون " (2)

و قوله عليه السلام " ماذا أنزل الليلة من الفتن " ، ووقع في الحماســـــة :

ماذا أجالَ وثيرَة بن سماك ** من دمْع باكية عليه وبَاك

.. و قول المتنبي :

1- نفح الطيب : 5 : 281
2- سورة يونس ، الآية: 101

و ماذا بمصر من المضحكات** و لكنه ضحك كالبكا "[1]

سار أبو بكر على طريقة علماء اللغة في الاستشهاد بالقـــــــرآن و الحديث و كلام العرب و شعرها ، وقد بدا واضحا تمكنـــــه من الجدال و رد حجج الخصم من خلال إيراد حجج مُسَلم بها و شواهد متفق عليها .

مناظرة ذات طابع فكاهي :

تتخذ بعض القصص الفكاهية القائمة على أساس الرد بالمثـــــــل بين الشعراء نوعا من المناظرة الأدبية، إذ يجد كل واحد من الخصمين نفســـه مدفوعا بالرد بمثل أسلوب الأول ، من ذلك ما ورد عن ابن شهيـــــد الذي كتب إلى منافسه عبد الملك بن جهور معرضا به و قد كان يلقب بالحمـار، فقال :

أتيناكَ لا عن حاجَة عَرضَت لنا ***إليك و لا قلبٍ إليك مشُوق

و لكننا زُرنا بفضل حُلومنا ***حمارا تولى بِرّنا بعُقُـــــــــوق

فراجعه ابن جهور يغض منه بما كان يشيع عن جده الذي كان بيطـــــارا فقال:

حَجبْناك لمّا زرْتنا غيْر تائقٍ*** بقلبِ عدوّ في ثيابِ صَديق

1- نفح الطيب : 5 : 282 و ما بعدها

و ما كانَ بيطار الشّام بموضِع*** يُباشر فيه برّنا بخلِيــق "(1)

و من المناظرات الفكاهية الساخرة أيضا ما ورد في رسالة التوابع و الزوابع لابن شهيد ، حيث تصدت مجموعة من البغال تساجل أخرى من الحميـــــر بمقطوعات شعرية ، " فتقدمت بغلة شهباء تنشد شعرا لأحد البغال و هـــــو :

على كل صبّ منْ هواه دليلٌ *** سَقام على حرّ الجوى و نُحول

و ما زالَ هذا الهَوى داءً مُبرّحا *** إذا ما اعتَرى بغْلا فليسَ يزول

بنفسي التي أمّا مَلاحظ طرْفها *** فسحْر و أما خدّها فأسِـــيل

تعبتُ بما حملتُ من ثقل حبّها *** وإنّي لبَغلٌ للثقالِ حَمُـــــول

ثم أنشدت شعرا لدكين الحمار و هو :

ذهبت بهذا الحب منذ هويث *** و راثت إرادتي فلست أريـــــث

كلِفتُ بإلفي منذ عِشرين حِجة *** يحُول هَواها في الحَشا و يَعيث

.. و ما نلتُ منْها نائلا غيرَ أنني *** إذا راثتْ رثتُ حيث تـــــــروث

فقال الحكم للمنشدة : ما هويث ؟ قالت هو هويت بلغـــــة الحمير ، فقـــال والله إن للروث رائحة كريهة و قد كـــــان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعـــــر ، فقالت فهمت عنك و أشارت أن دكينا مغلوب " (2) .

" و هكذا نرى أن هذا التحكيم الطريف قد انتهى بحكم أطـــرف ، يهزأ فيه ابن شهيد، بطريقة حاذقة غير مباشرة ، بالبغال و الحمير و أنف الناقة جميعـــا " (3) .

1- الفكاهة في الأدب الأندلسي : 191-192

2- التوابع و الزوابع : 148-149

3- السخرية في النثر العربي : منى الصلح : 100

هذا و لم تخفت المناظرات الأدبية حتى بعد سقوط دويلات الطوائف ، بل لعلـــها ازدادت حدة بازدياد الحنين لكل ما هو أندلسي ، " و قد بدت واضحة عند كثير من أدباء عصر الموحدين ، فنحن نرى ابن دحية أندلسيـــا قوي الشعور بأندلسيته ، يعتز بشعراء قومه و يندد بالمشارقـــــــــة – و بخاصة أهل العراق – حين ينتقصون من أقدار أدباء الأندلس .. " (1) ، و من ذلك قـــــوله في يحي بن الحكم الغزال : " كنـــــا نعجب بقول البحتري و نستغربه في قوله لجعفر المتوكـل :

فلو أن مشتاقا تكلف غير ما *** في وسعه لسعى إليك المنبر

حتى رأينا قول الغزال :

هفا به الوَجد فلو منبر *** طار لوافى خطفة الكوكـــــب

إلى جميل الوجه ذي هيبة *** ليست لحامي الغابة المغضب(*)

و علمنا أنه سبق إليه بزمانه .. " (2) ، و يمضي ابن دحية في عرض شعر الغـزال الذي " لو روي لعمر بن أبي ربيعة أو لبشار بن برد ...لاستغرب له ، و إنـــما أوجب أن يكون ذكره منسيا ، أن كان أندلسيا ، و إلا فما له أخمل ؟ و ما حق مثله أن يهمل " (3) .

و يبلغ غضب ابن دحية من المشارقة مداه ، فيقول " يا لله لأهل المشرق ! قولـة

1- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين : فوزي عيسى : 69

*- الأبيات موجودة في الديوان : تح : محمد رضوان الداية : 41

2- المطرب : 134

3- نفسه : 145

غاص بها شرق ...لئن أرهفت بصائرهم البصرة و أرقتها الرقتان ، فقد درجـــنا نحن بحيث مرج البحرين يلتقيان ، فإن منهما مخرج اللؤلؤ و المرجان ، و ننشد ما قاله بعض شعرائنا :

نراحُ لفضل أن يكون لديكم *** فما لكم تأبون إن كان عنـــــــــدنا ؟

فلا تحسدونا أن تلاح بأفقـــكم *** لنا طالعات من هناك و من هنا

و إن كنتم في العد أكثر مفخرا *** فلا تظلمونا في القليل الذي لـــنا "[1]

و ظل ابن دحية هكذا يعرض أشعار الأندلسيين و المغاربة مظهرا في كل مـــرة تفوقهم على المشارقة ، و لا ينسى و الحـــال تلك أن يذكر أهل المشرق بسبق الأندلسيين في الموشحات ، و عنها يقول " هي زبدة الشعـــر و خلاصة جوهره و صفوته ، و هي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشـرق ، و ظهروا فيها كالشمس الطالعة ، و الضياء المُشرق "[2](*) .

هذا هو ابن دحية الذي تصدى بمطربه للمشارقة ، فتحداهم حينا و استفزهم حيـــنا آخر ، فشعراء الأندلس يقفون في خط واحد مع شعراء المشرق ،بل و ربما فاقوهم في أحايين كثيرة .

هكـــذا كانت حال المناظرة الأدبية شأنها شـــأن الأنواع الأخـــرى، تتخذ حينا

1- المصدر السابق : 145

2- نفسه : 204

*- و عن الموشحات أيضا نذكر قصة ابن سعيد المغربي و هو في حضرة الملك الناصر سلطان الشام ، الذي علق على شعر للمشارقة قائلا : هذا طراز لا تحسنه المغاربة ، فأجابه ابن سعيد على الفور بقوله : كما أن الموشحات طراز لا تحسنه المشارقة ، و المحاسن قد قسمها الله تعالى على البلاد و العباد " – ينظر : المقتطف من أزاهر الطرف : 228

شكل مقامة و حينا آخر شكل رسالة ، و ثالثة شكل رد .. ثم هي تختلف عموما عن سابقاتها من حيث كونها لا تبحث عن إقناع الآخر برأي أو مذهـــــب ، أو الدفاع عن عقيدة أو فكـــرة ، بقدر ما كـــان همّ أصحابها إقنـــــاع الآخر بل و إجباره ، أحيانا ، على الاعتـــــراف بالفضل و التفوق وإثبات الجدارة، كما كان منهجها دفاعيا في أغلب الأحيان .

الفصل الرابـــــع

مناظرات الجمادات و النباتات

لقد سمّيت المناظرات التي تجري على ألسنة غير البشر، من نباتات و أشياء بالمناظرات الخيالية ، تمييزا لها من المناظرات الواقعية التي تقع على ألسنة بني البشر ، و نحن هنا لا نقصد الخيال بمعناه الواسع المطلق و إنما الوجه الآخر للواقع " فالخيال لا ينشيء تركيبات غير حقيقية ، و إنما يظهر المعاني المخبوءة في الأشياء ، فعمله عمل التأويل يعمد إلى إخفاء الظاهر و إظهار الباطن ، و يمس بكيميائه الأمور المحسوسة و يجعلها رموزا روحية فكرية "[1] .

و قد بدأ هذا النوع من المناظرات منذ العهد السومري و البابلي مجسدا في شكل أساطير[2] ، كما كان له حضور قوي في المشرق على نحو ما كان عند الجاحظ و غيره[*] .

والمتتبع للمناظرات الخيالية بالأندلس[**] يقف على أمر هو أن الأندلسيين لم يعنوا كثيرا بها ، أو ربما ضاع جلها ، و لعل أكثر ما تكلموا بلسانه هو الزهر بأنواعه و أشكاله ، و ما عدا ذلك فقليل،على نحو ما نجده من مناظرات بين

1- دراسات فنية في الأدب العربي : عبد الكريم اليافي : 399
2- ينظر : المناظرات الخيالية في أدب المشرق و المغرب و الأندلس : رغداء ماردينى : 260
*- اشتهر الجاحظ في العصر العباسي الأول بهذا النوع من المناظرات كمناظرته بين الباز و الديك و غيرها – ينظر : الحيوان : الجاحظ : 2: 362
**- ازدهرت المناظرات الخيالية على غرار باقي الفنون في القرن الخامس الهجري أيام دول الطوائف .

المباني و الأدوات و حتى المدن ، و لتكن مناظرة السيف و القلم فاتحة هـــذا الباب على اعتبار أنها اليتيمة العصمـــــاء التي تجاوز صيتها ربوع الأندلس.(*)

المبحث الأول : مناظرات بين الجمادات :

أ- مناظرة السيف و القلم لابن برد الأصغر (ت 440هـ) :

شغلت ثنائيـــة السيف و القلم بال الكتـاب و الشعـراء على مر الزمـــن و ذلك لأهميتهما في تسيير شؤون البلاد و العبـــاد ،يقول ابن خلدون : "اعلم أن السيف و القـــلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره "(1)، فهو يرى أن الحاجـة إلى السيف تكون في أول الدولة تمهيدا للأمور، فإذا مـــا استتبت، احتيج إلى القلم في تسيير شـــؤون البلاد من جباية و ضرائـب و مراسلات ، ثم تعود الحاجة إلى السيف مجددا لحمايتها .(2)

فابن خلدون طرق هذا الباب من غير أحكـــــام مسبقة ، ولم يكن هدفه الانتصار لطرف على آخـــــر ، و إنما عالج الأمر بموضوعية و لم ينتصر للقلم وهو من رموزه .

و لقـــد أكثر الشعراء القـــول في السيف و القلم ، و كانوا إلى الأول أميل على اعتبـار أن الكلمة الفصل هي للسيف به تقام الـــــدول ، و تعز أنفس

---

*- من الذين تأثروا بهذه المناظرة و حاكوها في غير الأندلس : زين الدين عمر بن الوردي (749هـ)- ينظر : جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب : أحمد الهاشمي : 221 و ما بعدها ، و جمال الدين بن نباتة المصري (768هـ)- ينظر : خزانة الأدب : البغدادي :230 و ما بعدها ، و أحمد القلقشندي (821هـ)- ينظر :صبح الأعشى : 14 : 263 و ما بعدها.

1- تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون : 130

2- نفسه : 130

وتذل أخرى ، و تسجل المناقب و المآثر (*) ، و لعل أول من سبق إلى المفاضلة بينهما في الأندلس ، بل أقام بينهما حلبة صراع اشتد وطيسها هو أبو حفص بن برد الأصغر (**) في رسالته التي كتبها إلى الموفق أبي الجيش مجاهد (1) ، و هي" في حقيقتها لا تعدو أن تكون من الإنشاء المدحي و لكن الكاتب اختار هذا الأسلوب فرارا من الطريقة التقليدية " (2) .

وقد مهد للمناظرة "بتأكيد اعترافه بفضل كل من السيف و القلم و تساويهما في الأهمية و المنزلة ، فهما يجريان على نسق واحد كنجمين مضيئين أو جوادين أصيلين .. و أن التحاسد بينهما مذموم و لكنه نشأ من محاولة كل منهما العلو على صاحبه " (3) .

و لأن صاحب الرسالة من طبقة الكتاب ، فقد آثر أن تكون الكلمة الأولى للقلم الذي افتتح الجلسة مكبرا ، و قد ملأ الفخر جوانبه ،كيف لا و أول ما أنزل قوله تعالى : " اقرأ و ربُّك الأكْرَم الذي عَلّمَ بالقلَم " (4) ،بل و قد أقسم الله تعالى به فقال : " ن و القَلم و ما يَسْطرُون" (5) ، فالقلم يفخر بهذه المكانة التي حازها من منطلق ديني ليضيف قائلا :" قد حللت بين جفن

---

*- يقول أبو تمام في فتح عمورية : السيف أصدق إنباء من الكتب ** في حده الحد بين الجد و اللعب - الديوان : 96
**- انظر التعريف به في مطمح الأنفس : ابن خاقان : 207 و جذوة المقتبس : الحميدي : 183 و الأعلام : 1 : 213
1- ينظر: الذخيرة : ابن بسام : 1 : 325
2- النثر الأدبي في الأندلس : علي بن محمد :1: 452
3- الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي: فوزي عيسى :118
4- سورة العلق : الآية : 3-4
5- سورة القلم : الآية :01

الإيمان و ناظـــره و جُلت بين قلب الإنسان و خاطره ، لقد أخذت الفضـــل برمته "[1] ، ثم ينتفض السيف فيـــرد عليه أن السعيد من يحمـــله، و المهدي من يتخذه[2] ، بل و يفتخـــر بأنه يبتسم ساعـــة الأجل و يقضي بلا إنصاف ، و قد وجد القلم في هذا الكـــلام الفرصة ليرد على خصمه انطلاقا مما تبـــاهى به، يقـــول :" قبحا للتحلي بالجور و الخيانـــة ، تسوّد ما بيض الصفاء و تكدر ما أخلص الإخاء"[3] ، و حين اشـــتد الخصام رأى السيف أن ينتهـــج الهجاء طريقا ، و بدل أن يدافـــع عن نفسه أخذ في السخرية من القلم قائـــلا : "أمستغرب و الفلس ثمنك و مستجلب و كـــل بقعة وطنـــك؟ جسم عار و دمع بار "[4] ، فيرد القلم قائـــلا :" الذهب معدنه في العفر و هو أنفس الجواهـــر، و النار مكمنها في الحجـــر و هي إحدى العناصر ، و إن الماء و هو الحياة أكثر المعايش وجدانا و أقلها أثمانا"[5] ، و تزداد حدة الصراع ، لاسيما من جانب السيف الذي استشاط غضبا و انبرى إلى السب و القدح حين لم يجد إلى غلبة خصـــمه سبيلا ، فقال :" وجه لئيم و جسم سقيم .. و رأس لم يتقلقل فيه لـــب ، و جوف لم يتخضخض فيه قلب "[6]،و قد بدا القلم أكثر هدوءا و حكمة –لحاجة في نفس ابن برد قضاها – و منها رده ، مستأنسا ببعض الأمثال العربية، قائلا :"إن كنت ريحا فقد

1-الذخيرة : 1: 326
2- نفسه : 1: 326
3- نفسه :1 : 326
4-نفسه : 1: 326
5-نفسه : 1 :327
6- نفسه : 1: 327

لاقيت إعصارا ، ما كل بيضاء شحمة و لا كل سوداء تمرة ، إن ماءك السائل لجامد و إن جرمك الملتهب لبارد "...[1]

ثم إن ابن برد رأى أن تضع الحرب أوزارها فسوى بين السيف و القلم حسما للمفاخرة التي طالت في رسالته[2] ، بل و جعلهما يوقعان على وثيقة تبقى شاهدة عليهما ، و كأننا بابن برد يوجه رسالة ضمنية إلى من يأتي بعده بعدم جدوى مثل هذه المفاضلة طالما أن كليهما مهم ، ولا تقوم الدولة إلا بهما ، يقول على لسانهما :" إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا و تتفرق آراؤنا ، و قد جمعنا الله في المألف الكريم و أحلنا بمحل غير ذميم

قد آن للسّيْف ألا يفضُل القلَما*** مُذ سُخّرا لفتى حَازَ العُلى بِهما

إنْ يجتنى المَجد غضّا منْ كمَائمِه **فإنّما يجتنى مِن بعض غرْسِهما (3)

هذا و قد ذهب بعض الدارسين إلى أن السبب الذي جعل الكاتب يسوي بين السيف و القلم لم يكن أدبيا بحتا ، فلم يحدث أن سوى بينهما شاعر أو كاتب بل نجد الواحد فيهم يقدم هذا أو ذاك وفقا لما يراه من حجج[*] ، و لكن لحاجة في نفس ابن برد قضاها " فالتسوية حلم من أحلام أصحاب القلم في دول تقوم علاقاتها الداخلية و الخارجية على قوة الجند و حسن استعدادهم"[4] ، و السبب أن

1-المصدر السابق : 328

2- ينظر : في الأدب الأندلسي : محمد رضوان الداية : 242

3- الذخيرة : 1: 324-325

*- يرى ابن الرومي أن السيف يخدم القلم في قوله : إن يخدم القلم السيف الذي خضعت ** له الرقاب و دانت خوفه الأمم
فالموت – و الموت لا شيء يغالبه - ** مازال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت ** أن السيوف لها مذ أرهفت خدم – الديوان : 3 : 284

4- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين:إحسان عباس : 232

"رجال السيف يعتقدون أنهم الأجدر بالحكم لأنهم الأقدر على توفيـــــــــــر شروطه.. أمـــــا أهل القلم فليسوا عندهم أكثر من خدم و أتباع "[1]، و سبب آخر - كما أشرنا سابقا- هو داعي الـــمدح؛ فإذا كان الشعراء يقفـــــون على أعتاب الخليفة يمدحون و يبجلون ، فإن ابن برد رأى أن يمـــدح الموفق أبا الجيـــش مجاهد (ت 436هـ) بهذه الطريقـــــة ليبين له أن القلم و السيـــف ، و بمعنى آخر الكتاب و الجند كلهم ، في خدمته و طاعته و قد بدا ذلك واضـــــــحا في قوله:

" تلك يـــــــد أبي الجيش مولى المعالي و مسترقها و مستوجـــب المكارم و مستحقها [ليضيف قائلا] :

يا أيّها المَلكُ السّامي بهمّته *** إلى سَماء علا قدْ أعيَت الهمَـــــما

لولا طِلابي غَريب المدْح فيك لمَا *** وصفتُ قبل علاك السّيف و القلَما

و إنّما كانَ تعْريضا كشفتُ به *** منَ البلاغةِ وجْها كانَ مُلتثِما [2]

و من البيت الأخير يمكن أن نستشف سببـــــــا آخر لهذه المناضلة ، و هـــو إظهار البراعة اللغوية و الإمكانات الفنية لابن برد .

و لئن تعددت الأسباب فالنتيجة واحـــــدة و هي الرغبة في التقرب إلى الموفـــق أبي الجيش[*] ، و مدحه بالنثر بدلا من الشعر .

1- النثر الأدبي الأندلسي : علي بن محمد : 1: 454

2- الذخيرة : 1 : 324- 325

*- أطلق الدكتور شوقي ضيفا حكما قاسيا على هذه المناظرة التي قال عنها : " و من يقرأ المناظرة [يقصد السيف و القلم] لا يحس جديدا فقد جمدت الأندلس عند صياغة المشارقة و لم تستطع أن تضيف إليها من جديد "- الفن و مذاهبه في النثر : 325،و لعله ركز على شكل الرسالة فحسب،أما مضمونها فقيم جديد و لا أدل من ذلك تأثر أكثر من أديب مشرقي بها وهي كما قال عنها علي بن محمد من أروع ما خلفه الأندلسيون في هذا الطراز من الإنشاء : النثر الأدبي الأندلسي : 1: 452

ب- مناظرات بين المـــــــــــــــباني :

استنطق الأندلسي الزهر و القلم و النخلة ، و استنطق كذلك البنايـــــات على نحو ما فعل الأديب أبـــــو جعفر أحمد الداني في مفاضلتـــــه بين قصـــري المعتمد : "المُكرّم" و "المُبارَك" ، و " هي مفاضلـــة طريفة لما فيها من أساليب التخاطب الحضاري و ما يشيع فيها من المخاطبـــــة الرقيقة .. و هي مفاخـــرة ضمنية تفهم من خـــــلال الصفات التي يوردها كل طـــرف و يجعـــــلها من نصيب الطرف الآخر "[1] ، و هـــــذه المناظرة ، و بخلاف سابقاتها ، تتسم بالهدوء و السكينة و إقرار المغلوب بالغلبة بسعة صدر و طيبة خاطر .

و قد بادر"المُبارك" و هو القصر الذي هجـــــره المعتمد فقال :" نحن أيها المحل السعيد و القصر القديم الجديد نعلـــــم أنه لبعضنا على بعض حقوق ، فما أحقنا بحق المشايعة و المتابعة لما نظمنا من سناء الدولة اللخمية[*] ، و تشرفـــــــنا به من ولاء المملكة المعتمدية .. و حـــــقا أقول أيها القصر "المكرّم" لا جرم أنه لك السبق و التقدم .. شهدت الأشهاد أنه بك مهدت البلاد ، و عنك انبثـــــــت الجياد كأنها الجراد .. فمـــــرت لك كذلك برهة ،و تراخت بك على تلك الحال

1- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 449

*- المعتمد بن عباد لخمي النسب من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء و بذلك كانوا يفخرون – ينظر : الحلة السيراء : 2 : 35 ، أما دوزي فيرى أن نسبة آل عباد إلى لخم غير مؤكدة و لا يوجد دليل على ذلك – ينظر: ملوك الطوائف و نظرات في تاريخ الإسلام :20

مدة ، آمنا سربك ،صافيا شربك .. فهنيئا لك النعمى الأولى و هذه أخـــرى ".(1)

خاطب المبارك(*) غريمه المكرم خطابا لينا أظهر فيه حرصه على الـــــولاء المطلق للمعتمد حتى و إن هجـــــره ، كما أقر بفضل المكرم فهو أقدم منـــه " و هو الذي اتخذه مؤسس الدولة العبـــادية القاضي أبو القاسم بن عباد مقرا له ثم خلفه فيه ابنه المعتضد " ، و عاد إليه المعتمد مجددا فهو القديم الجديـــد(2) و لا ينسى المبارك أن يذكر فضائله ، فهـــــو هضبة القصاد ، و نجعة الرواد و كعبة بني الأمل ، و عصمة كل خائف وجل ، ثم أنشد :

لو أنّ إيوانَ كِسرى كان عاصَرني ** لكانَ لي دُونه عزّ و مُفتخر

بسَاحتي تعقدُ الرّايات يَتبعها ** جيشٌ يُسايره أو يقدّم الظفـــر

بسعدٍ مُحتسب في الله معتمد ** عليه أفعالهُ في دهْره غُـرر(3)

غير أن "المبارك" يعترف بأن دوام الحال من المحال ، و أن المـلل طبـــع الإنســـان ، فهو على الرغم من جمـــال بساتيـنه و نضارة رياحينـــه فإن المعتمد آثر الانتقال إلى "المكرّم" الذي لا يقل جمالا عن سابقه ، ففيه أنـــوار و أزهار مختلفة الأشكال والألوان و العطور كأنما هي الذهب و الزبرجـــد. " و تخالف هذه الرسالة ما اعتدنـــاه ، إذ يصرح القصر هنا بأنه بحث طويلا

1- الذخيرة : 3 : 494

*- أكثر المعتمد من ذكر الزاهي و الزاهر و المبارك في شعره كقوله :

بكى المبارك في إثر ابن عباد ** بكى على أثر غزلان و آساد – الديوان : 161

2- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 449

3- الذخيرة : 3 : 495

عن كاتب يكتب عنه هذه الرقعة فاهتدى إلى منشئ هذه الرسالة الذي يرجـــو له وسيـــــطا يحدث عنه الملك ، فلم يجد خيـــــرا من هذا القصر "[1] ، و يرد "المكرّم "على صاحبه مجاملا فيقول: " أين منك الجوزاء، و قليل لك أن أقـــول الأبلق الفرد و تيماء، أنت فلك نجـــوم الملك و سمـــــاء رجوم الشرك ...سيد القصور و بهجة الدهور"[2] .

و تمنى "المكرّم" لو كان بينهما لقاء ، فأنشد :

و لو كان يُمكن سَعيُ الجَمادِ ** سعَى بي نحوَك فرْط الـــــوداد

و شخصُكَ إلاّ أطالعْهُ لحْظًا ** فإني أطالعه بالـــــــــفـــؤاد

و لله ملك ظللنا بـــــــــــه ** مليكي قصور جميع الـــبـلاد[3]

فالمكرّم يتفق مع المبارك في أن الغاية الأولى هي إسعاد المعتـــــــمد ، و لا يهم أي القصور يختار ما دامت جميعها تحت إمرتـــــــه ، ثم بدا له أن رسالة المبارك فيها تلميح و ربما تعريض[*] ، و لولا حسن ظنه به لكان أمرا آخـــــر، يقول :" فلولا ما اتصل بي عنك ، و تقرر لـــــدي من لدنك من صحة طويتك ، و سلامة دخيلتك ، لقلت هذا الجفـــــــــــاء مجلو في صورة الثناء و الازدراء

1- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 450
2- الذخيرة : 3 : 496
3- نفسه :3 : 497
*- يقصد قول المبارك " إنما العجب الأعجب ما نمي إلي عنك مما تكامل فيك و اجتمع لك ، من حدائق بواسق في أيسر من رجعة الطرف و أسرع من قبضة الكف – الذخيرة :3 : 495

مخبوء تحت لسان الإطراء "[1] ، و لكن المكرم أدرك أن ما خيل إليه إنمـــــا مرده بلاغة الكاتب ، و قد أبدى إعجابه بذلك فقـــال :" كلما أعدت طرفي فيه راعني حسن ما تعيده و تبديه فطفقت تارة بـــــه أعجب ، و أخذت طورا منه أعجب و قلت لله كاتبه لقد أوجز فأعجـــــز ، و اقتضب فكأنـــما أسهب ، ثم عدت أقول لا عجب استملى من محاسن القصر المبـــــارك فكتب ، و هل هو إلا البحر يقذف بالدر "[2] .

و يبدو أن الحوار لم يقتصـــــــر على القصرين فقط ، بل كان لكاتب الرسالة نصيب حين انتقده المكرم على بعض مـــا صدر عنه من كـــــــلام ، و أنهى الداني هذه المحـــــاورة دون أن يقر بفضل واحد على الآخـــــر ، و إن كنا نلاحظ ضمنيا أنه آثر المبارك على المكـــــــرم ، ربما لخشيته أن يهجـــره المعتمد إلى سواه من الأدباء ، فأراد أن يبين لـــــــه أن القديم هو الأصل و إن هجر ، فالغرض الأساس إذن من هذه المحاورة التقرب إلى الحاكم العبـــــادي و تقديم الولاء له ، فضلا على إظهار البراعة اللغوية .

1- المصدر السابق : 3 : 498
2- نفسه : 3 : 498

المبحث الثاني : مناظرات بين النبـــــــــاتـــــات :

كما كان للأدوات نصيب من الجدال و السجـــــال كان للنباتات أيضا حظ من ذلك ، ولم نشأ أن نخصص هـــذا المبحث للأزهار فحسب طالمـــــا أن هناك مناظرات جرت بين نباتـــــات أخرى لم يشر إليها أكثر الكتاب في هذا الباب مع أنها موجودة فعلا، إلا أنها قليلة إذا ما قورنت بمناظـــــرات الأزهار التي أكثر منها المترسلون و أفاض في الحديث عنها الدارسون .

أ- مناظرات بين الأزهار :

لا يمكن الجزم بأن الأندلسيين حظـــــوا بالسبق في هذا الباب ، " فالحقيقة أن الفضل في ابتكار المفاخرة بين صنوف الأزهـــــار يعود إلى ابن الرومي الذي عالج الأمر في شعـــــره ، معالجة انتصر من خلالـــــها للنرجس مقدما إياه على الورد و بقية الزهور مما حدا بثلة من شعـــــراء الأندلس إلى معارضته " ، ومـــــن هؤلاء : الرندي الذي فضل " الـــــورد على كل زهر مشترطا دوامه و نضارته ..[يقول]:[1]

الوردُ سُلطانُ كلّ زهْر *** لوْ أنّه دائِم الورد[2]

بيد أن الجديد الذي أتى به الأندلسيون هو طرقهم هذا الباب عن طريـــــق الترسل ، فما أكثر الرسائـــــل و القطع النثريـــة التي تحدث فيها الأندلسي

1- الحوار الأدبي بين المشرق و الأندلس : أيمن محمد ميدان : 183
2- المكان في الشعر الأندلسي : محمد عويد الطربولي : 60

باسم الزهور ، و ليس غريبا فتعلق أهل الأندلس بطبيعتهم غني عن كل بيان (*) ، و قد اكتست مناظرات الأزهار طابعا خاصا ، فالصراع القائم بين النرجس و البهار و الورد و الخيري .. لم يكن مجرد صراع بريء هدفه إثبات الجدارة ، و لكن لحاجة في نفوس أصحابها ،لاسيما و قد عاصر هؤلاء الفترة الأكثر تأثيرا في التاريخ الأندلسي، و هي فترة ملوك الطوائف، فصراع الأزهار هو الوجه الآخر لصراع الملوك آنذاك .

و تجدر الإشارة إلى أن لأبي مروان الجزيري (ت 394هـ) السبق في هذا الباب ،غير أنه لم يفضل نوعا واحدا ، كما لم يجمع الأزهار في جلسة واحدة ، بل نجده في كل مرة يتغنى بنوع ، مقصده الأول و الأخير التقرب إلى المنصور بن أبي عامر ، ففي النرجس قال :

حيّتكَ يا قمرَ العُلا و المجلِس ** أزكى تحيتها عيون النّرجس

زهْر تُربك بحُسنها و بلونِها ** زُهْر النّجوم الجاريات الكُنس

ملك الهمام العامري محمد ** للمكرمات و للنهى و الأنفس(1)

ثم يفضل البهار في موضع آخر فيقول :

حِدَقُ الحِسَان تقرُّ لي و تغارُ ** و تضِلّ في صفتي النّهى و تحَار

---

*- تعلق الأندلسيون بطبيعتهم و بيئتهم و فضلوها على شتات الأرض جميعا بعد أن كان خيالهم متعلقا بالمشرق - ينظر : القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي اليانعة : عبد الله أنيس : 304

1- نفح الطيب : المقري : 2 : 70

طلعت على قضبي عيون كمائمي**مثل العيون تحفها الأشفار(1)

و يفضـــــــــل البنفسج تارة ثالثة – و كأنه لم يفضل قبله البهار و النرجس – فيقول :" إذا تدافعت الخصوم – أيد الله مولانا المنصور – في مذاهبـــــــــها و تنافرت في مفاخرها فإليه مفـــــزعها .. و قـــد ذهب البهـــار و النرجس في وصف محاسنهما و الفخر بمشابههما كل مذهب ، و ما منها إلا ذو فضلـــة غير أن فضلي عليهما أوضـــح من الشمس التي تعلونا و أعذب من الغمـــام الذي يسقينا " (2) ، و يورد البنفسج مجموعـــــة من الحجج التي تجعله يفـــوق البهار و النرجس بجدارة ؛ فهو أعطر منهما و أكثر طلبا ، ذابلا و يانعـــــا ، تدخره الملوك والأطبـــــــاء و يصرف في علاج الأعضاء (3) ، و يصـــرح الجزيري بهدفـــــه الحقيقي وراء هذه المناضلة و هو مدح المنصور بن أبي عامر ، كما لا يستبعد أن يكون المقصـــــود بالبنفسج هو المنصور نفسه ، فهو المذكور غائبا و حاضرا يقول :

شهدتْ لنوّار البنفسَج ألسُن** من لونه الأحْوى و من إيناعِـــه

و لربما جمَع النجيع من الطُّلى ** من صارم المنصور يوم قراعِه

1- المصدر السابق : 2 : 71

2- نفسه : 2 : 71

3- نفسه : 2 : 71- 72

ملك جهلنا قبله سُبل العلـــى ** حتى وضحْن بنهجه و شراعـــــه

تلقى الزّمان له مُطيعا سَامعا ** و ترى الملوك الشُّمّ من أتباعِـــــــه(1)

تفضيل ابن برد الأصغر للورد :

خاطـــــــب ابن برد ابن جهور برسالة جاءت في شكل قالب قصصي ؛ ففي أحد الأيام اجتمعت الأنوار و الرياحيـــــــــن و عقدت جلسة لمبايعة صاحب الفضل عليها ، فسنة الله في خلقه أن جعل التباين والاختلاف سمـــــــة الخليقة، و هكذا أراد ابن برد أن يقدم لرسالتـــــه حتى يهيئ الأنفس لتقبل حكمه ، على أنه تكلم بلسان لم يذكر صاحبه ، و لكننا نحسبـــــــــه الراوي إذا نظرنا إليها بمنظور قصصي ،إذ يقول :" قـــــــد عطفت علينا الأعين و ثنت إلينا الأنفس و زهت بمحضرنا المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ووصلـــــــــنا أسباب القلوب .. على أننا نسينا الفكر في أمـــــــرنا و التمهيـــد لعواقبنا .. و ادعينا الفضل بأسره و الكمـــــــــال بأجمعه و لم نعلم أن فينا من لـــه المزية علينا و من هو أولى بالرئاسة مـــــنا و هو الورد "(2) ، فالراوي سلم بالرئاســـــــة و التفوق للورد حتى قبل أن تبـــــدأ الجلسة و يدلي كل واحد بدلوه ، و الظاهر

1- المصدر السابق : 2: 72

2- الذخيرة : 2: 76

أن الراوي هو الـــــــورد نفسه إلا أنه لم يصرح بذلك حتى لا يقال اغتصب الرئاسة عنوة ، و لكن الكاتب أراد أن يوكـــل عنه متكلـــــــما يتحدث عـــن أفضاله و خصاله ، فهو " الأكرم حسبا و الأشرف زمنا ، إن فقد عينه لم يفقد أثره..و هو أحمر و الحمرة لون الدم و الدم صديق الروح ، و هو كالياقـــــوت المنضد في أطباق الزبرجد" (1) .

و تبدأ الأزهار في تأكيد ما ذهب إليه المتكـــلم الأول ، بل نجدها تحقر نفسها و تجد غاية المنى أن تشنف عـــيونها برؤية الـــــورد ، يقول النرجس: " لقد كنت أسر من التعبد له و الشغـــــف به ، و الأسف على تعاقـــــب الموت دون لقائه ما انحل جسمي و مكن سقمي .. ثم قام البنفسج فقال .. أنا والله المتعبـــــد له و الداعي إليه المشغـــــــــوف به و كفى ما بوجهي من نـــــدوب و لكن في التأسي بك أنس "، فالنرجس و البنفســـج أصابهما الوهن و السقم لبعدهما (2) عن صاحب السمو ، و يضيف البهار قائلا :" لا تنظروا إلى غضارة منبتـــي و نضارة ورقتي و انظروا إلي و قد صـــــرت حدقة باهتة تشير إليه ، و عينا شاخصة تندى بكاء .. ثم قام الخيري فـــقال : و الذي أعطـــــاه الفضل دوني .. ما اجترأت قط إجلالا له ، و استحيـــــــــاء منه على أن أتنفس نهارا .. فلذلك جعلت الليل سترا" ، فالأزهار جميعـــــا اتفقت على الخضوع و الخنـــوع ، (3)

1- المصدر السابق، 2: 76
2- نفسه : 2 : 77
3- نفسه : 2 : 77

و التسليم المطلق بأفضلية الـــورد و أهليته للرئاسة ، بل و نجدها قـــررت أن توثق كلامـــها بعقد – و لعـــلها عادة عند ابن برد – يعلـــم به القاصي و الداني " ينص على مبايعة فيها معنى الخضوع المطلق الذي يبلغ حـــد الرق و العبوديـــة ، و هي أخيـــرا تتبرأ من كل من يشذ عن هذا العقـــد .. بمنافسة الورد في إمارته " .(1)

و يبدو من هذه الرسالة أن ابن برد أراد بمبايعـــة الأزهار للورد أن يصل إلى هدفه الأساس؛و هو أن ابن جهـــور لا ينافس و ملوك الطوائف جميعا لا تبزه ، و " إذا كان لا يرمز لصاحبه فلعلـــه أن يكون قد رمز بذلك إلى ما يتمناه لنفسه من تسليم الكتاب له بالتقدم عليهم جميعا " .(2)

رد أبي الوليد إسماعيل الملقب بحبيب(ت 440هـ) على ابن برد :

ذهب ابن برد – كما مر - إلى تفضيل الورد على سائر الأزهـــار ، و لأبي الوليد رأي آخر مخالف ؛ فـــفي رسالته التي خـاطب بها المعتضد أظهر تبرمه من رسالة ابن برد ، و رد عليها على لســـان نواوير الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن ، فلما قرأت ذلك العقـــد أنكرته ، و بنت على هدم مبانيه و نقض معانيه ، فهو ليس قرآنا يتلى إلى يوم الدين و إنمـــا(3)

1- النثر الأدبي الأندلسي : علي بن محمد : 1 : 445
2- تاريخ الأدب في الأندلس عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس : 234
3- ينظر : البديع في وصف الربيع : أبو الوليد الحميري : 59

هو حكم أصدرته مجموعة من الأزهار لم يزكها أحد لتتكلم باسم الجماعـــة ، و من ثمّ فالحلف باطل ؛ و تضيف النواوير قائلـــة: " لو استحق الورد إمامة و استوجب خلافة لبادرتها آبـــاؤنا و لعقدها أوائلنا .. و لا ندري لأي شيء أوجبت تقديمه ، و رأت تأهيله ؟ " (1) ، فالكاتب ينكر على لســـان أزهاره تفضيل الورد و يرى أن البهار أحق منه ، و يكفي أنـــه " لم يزل عند علماء الشعراء و حكماء البلغاء مشبها بالعيـــون التي لا يحول نظرها و لا يحور حورها ، و أفضل تشبيه الورد بنضـــرة الخدّ عند من تشيع فيـه ، و أشرف الحواس العين .. و ليس الخدّ حاسة فكيف تبلغه رياسة ؟ " (2).

و يتمثل بقول ابن الرومي :

أين الخدودُ من العيون نفاسةً *** و رئاسةً لولا القياسُ الفاسد (*)(3)

و مضى أبو الوليد يتكلم على لســـان نواويره التي تراجعت جميعها عن عقدها الأول الذي نص على تنصيب الورد رئيسا ، مبدية أسفها و اعتـــذارها للبهار ، سائلة إياه العفو ، مقدمة له فروض الطاعة والولاء .

1- المصدر السابق : 59-60

2- نفسه : 60

3- ديوان ابن الرومي :1 : 413

*- إن البيت المذكور لابن الرومي هو في تفضيل النرجس على الورد ، و الكاتب يتحدث عن البهار ، غير أن أكثر من واحد قال إن:" النرجس هو البهار عند الأندلسيين و يسمى العبهر " – ينظر : نفح الطيب : 4 :261 ، و المطرب : 115 و يبدو أن هذه التسمية خاصة بمناطق دون أخرى في الأندلس ؛ فنحن وجدنا خلاف هذا عند ابن برد و الجزيري.

4- ينظر : البديع في وصف الربيع : 61 و ما بعدها .

و قياسا على ما سبق لا يستبعد أن يكـــون المقصود بالبهـــار هو المعتضـــد و بالورد ابن جهور ، و بين هـــــذا و ذاك مد و جزر ، و كلٌّ يرى حاكمه أولى من الآخر ، و تلك عادة توارثها الشعراء منذ النابغة الذبياني(*)، أما الأستاذ إحسان عباس فيرى أن حبيبا فضل البهار مناقضة لابن برد لإظهـــار براعته الأدبية لا غير[1]. و أيّا كان هدف الكاتبين تبقى المناظرة مفتوحة أمام كل التأويلات ..

تفضيل البهار لأبي عمر بن الباجي :

يبدو أن تفضيل الورد على سائـــر الأزهار لم يرق أحـــــدا ،فبعد أن اعترض أبو الوليد ، المذكـــــور آنفا ، على لســـــان نواويره و فضل البهـــار ، جاء الاعتراض من شخص آخـــر هو أبو عمر بن الباجي الذي ســـــار على خطى سابقه " غير أن رسالة أبي الوليد جاءت في قالـــب قصصي بينما اكتـــست رسالة أبي عمر طابع السرد المباشـــــر ، فقـد جعل البهار يدبج رقعة إلى ابن هود [ت 474هـ][2]" قال فيها " أطال الله بقاء المقتـــدر بالله مـــولاي و سيـدي و معلي حالي و مقيم أودي .. و لا أشمت بي عـــدوا من الريـــاض يناصبني

*- يقول النابغة في مدح النعمان بن المنذر : فإنك شمس و الملوك كواكب ** إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
- الديوان : 22

1- ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين : 234

2- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 446

و حاســـــــدا من النواوير يراقبني ، و قـــــد علم الورد موقع إمارتي و غني بلطيف إيمائي عن عباراتي "[1] ، فالكاتـــــــب يصرح برغبته في أن يقربـــــه المقتدر بالله منه ، و يعلي مكانتـــــــه فهو " سابـــــــق النور .. و ناظر الفضل و عينه ، و نضار الروض و لجينه و قائد الظرف و فارسه و عاقـــــــد مجلس الأنس و حارسه "[2] ، ثم ما يلبث البهـــــــار أن يستكين و يبدي بعض سوءاتـه متذللا للمقتدر ، مبديا ضعفه شاكيا هوانه إلا أن يدركه بكرمه ، فيقول :" و لـــو صلح الكمد لأحد لكنت أنـــــا أحق من لزمه و أثبت عليه قدمـــه لأني سريع الذبول وشيك الأفول لا يصحبني الظهور إلا قليلا[*] ، و لا أمنـــــح من متـــاع السرور إلا تعليـــــلا غير أني مغتنم لساعـــــاتي ، آخذ من الأنس بقـــدر استطاعتي و قديـــــما أكرمني مولاي فلا يهني ، ووصلني فـــلا يصرمني ، و منحني فلا يحرمني "[3] ، فابن الباجي و إن ســـــار على خطى سابقيه ففضل البهار على سائر الأزهار إلا أن تفضيله ذاك كان مقتضبا ، فهمّـــــــه الأول التقرب إلى المقتـــــدر، بيد أنه ، و بخلاف ابن برد و أبي الوليد لم يلمـــح إلى إمكانية تأويل البهار بالملك كما تأولناه سابقا ، و لكن جعلـــــــه مطية لتحقيق مراده ، و تفريغ ما في جعبتـــــــه ، و لا يستبعد أن يكون قـــــد ترفع عن

1- الذخيرة : 2 : 120

2- نفسه : 2 : 120

*- " قيل : النرجس لا يبقى إلا شهرا و لو يبس لم ينتفع به " – ينظر : محاضرات الأدباء : 4 : 576

3- الذخيرة : 2 : 120

تشبيه المقتدر بالزهر لأنه سريع الذبول قليل الظهور ، يريد بذلك تمريـــــر رسالة مفادها أن ابن هود أسمى من ذلك ، و هو يبـــز الملوك جميعا لأنهم لا محالة إلى زوال .

تفضيل أبي الفضل بن حسداي للنرجس :

يبدو أن المقتدر بن هود كان الأوفر حظا بين ملوك الطوائـــف ،على الأقل من حيث تنافس الأزهار لنيل رضاه و التمتع بقـــربه ، فبعد أن كلمه البهـــار ها هو النرجس يعلن الولاء و الطاعة ، و يرجـــو القرب و الحظوة فيقول :

"أنا – وصل الله بهجة سلطانـــــــــك و نضرة أوطانك – إذا لحظتني بعين الاعتبار ، قائد النوار و وافد الأزهار و أنا لهـــــا جالب و هي طاردة ،ومبشر بورودها و هي مؤيسة متباعدة .. فضلت الورد سيد الأزهار طرّا و تورده شاهد خجله (*) ... فلي عليه فضل العيون على الخدود (**) ، و شرف السيد على المسود " (1) ، فالنرجس " في هذه الرسالة شأنه شأن الأزهار الأخرى يعنيه بوجه خـــاص أن يسمو على الورد و أن يفوقه حسنا..ثم لا بد أن ننبه أيضا إلى أن النرجس يعترف للورد بأنه سيد الأزهار طرّا فهو لا يقدم عليه إلا نفسه كما هو واضح " (2)(***) .

---

*- لعله أخذ المعنى من قول ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد :
خجلت خدود الورد من تفضيله ** خجلا توردها عليه شاهد – الديوان : 1 : 413

**- سبق إلى هذا الوصف أبو الوليد المذكور آنفا ، و صاحب المعنى الأول ابن الرومي كما أشرنا سابقا .

1- الذخيرة : 3 : 297

2- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 447

***- فضل ابن سعيد الورد و جعل النرجس خادما له في قوله :
أما ترى الورد غدا قاعدا ** و قام في خدمته النرجس – ينظر : المكان في الأندلس : 60 ، و كذلك فعل الصنوبري – ينظر : محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء : الراغب الأصبهاني : 4 : 576

و لأمر ما أحس النرجس بالحزن و الأسى فمال من غير ألم و ذبل مـــــــن غير سقم ، حتى جاءه رسول من المقتـــــدر بعث فيه الأمل و أعاد إليه الحياة ، و عن ذلك يقول :" .. حتى أتيح لي ظريـــــف من خواصك يقصدني ، و نبيل من عبيدك يعتمدني فأوجست حذرا و تشوفا حتى آنسني بالكـــــــــلام تألفا ، و قطفني بغير إيلام تلطفا "[1]، و لما انتقـــل النرجس إلى مكانه الجديد و حظي بالتكريم و التقدير تمنى لو ترى الأزهار النعيم الذي يرفـــل فيه ، و هي التي ظالما تمنت هذا المقام و ذاك القـــــــرب ، و هو لهذا يخشى حسد الحاسدين و يرجو الملك أن يكفهم عنه قائـــــلا : " فأزل عني حسدهم بكبتهم فقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم ، و أكمل مسرتي و تمم أنسي "[2] .

" و ليس يخفى على أحد ما لهذه الرقعة من قيمة رمـــــزية فإن النرجس ليس إلا أبا الفضل بن حســـــداي نفسه "[3] ، فقد تعودنا مما سبق أن يتكـــلم الكتاب بلسان الأزهار لتحقيق مآربهم إما تصريحا أو تلميحا .

1- الذخيرة : 3 : 297
2- نفسه : 3 : 298
3- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 448

مساجلات شعرية في الانتصار للنواوير و الأزهار :

من المساجـــــلات الشعرية التي وقعت انتصارا لزهر معين ، المفاضلة بين الخيري و البنفسج للوزير أبي الأصبغ و أبي بكر بن القوطية صاحب الشرطـة .

قال أبو الأصبغ في الخيري :

مَا لِلْبنفْسَجِ يَدّعِي التّفْضِيلا *** مُتَحَامِلاً وَبَعْد ذاك جَمِيـــــلا

الفَضْلُ لِلخَيْري إلا أنّهم *** جَهلُوا و لَمّا يُحْسِنُوا التأوِيـــــــلا

قَهَرَ البَنَفْسَج مَنْظرا و يَفُوقُه *** في الشّمّ بالمِسْكِ الذكِيّ دَليلا

و الخَيْر في الخَيْري في اسْمِه *** هُو فَاضِل فاسْتَأْهَل التّفْضِيلا

يا أيُّها القَاضِي الذي مِنْ عَدْلِه *** أضْحَى الزّمانُ بِغرّة مَحْجُـولا

مَنْ كَانَ إسْمَاعِيل وَالِده الرّضى *** فَكَفَاه فَخْرا أنْ يَكُونَ سَلِيـلا[1]

مزج الشاعر إذن بين الثناء على الخيري و تفضيله على البنفسج بمدح القاضي و أجداده ، و كذلك فعل ابن القوطية في رده عليه ، فأثنى على البنفسج و امتدح الحاجب فقال :

نَبُلَ البَنَفسجُ فاحْتوى التّفضِيلا *** وَكَذَا البَنفسَجُ لنْ يوال نَبيلا

لمّا شَأى نُور الرّبيع بِطِيبِهِ *** وَحَوى مِن الشّرف الصّرِيح أثيـلا

فَضل النّوار فَحَاز دُون جَمِيعه *** قصب السّباق وَلَمْ يكُن مَفْضولا

مُتَشَبّهًا في سَبْقه بالحَاجِب الـ *** أعْلَى عِمَاد الدّين إسْمَاعيلا

كَمْ طاولُوه في الفِخَار ففَاتَهم *** عرضًا إلى المَجْد التّلِيدِ وَ طولا

كَتشَبّه الخَيْري بالمزري بهِ *** ليحُوز مِنْ تلِك الخِصَالِ فَتِيـــلا

1- البديع في وصف الربيع : أبو الوليد الإشبيلي : 80

و النَّفع غَضًّا إنْ تَشَأ أوْ يابسًا *** هُو للبنَفْسَج كلّه مَحْصُـــــولا[1]

فإن ابن القوطية جعل الممـــــدوح و البنفسج شيئا واحدا في مـــــدحه ، غير أن المعاني التي اتكأ عليها في تفضيل البنفســـج أقوى من تلك التي اعتمد عليها أبو الأصبغ في تفضيل الخيري ، و منها الرفعة و العلو و الطيب و النفع ..

و من المساجلات الشعرية التي تجاوزت ضفاف الأندلس ، تلك التي رد فيها أبو عثمان سعيد بن فرج الجياني على ابن الرومي في تفضيله البهار على الورد، يقول:

عَنّي إليْكَ فَمَا القِيَاسُ الفَاسِد *** إلاّ الذِي أدّى العيَان الشَّاهِد[2]

ردا على قول ابن الرومي :

أيْنَ العُيُونُ مِنَ الخُدُودِ نَفَاسَة *** و رياسَة لولا القِياسُ الفَاسِد[3]

ثم قال :

أزعَمْتَ أنّ الوردَ منْ تفْضِيله *** خَجِل وَنَاحله الفَضِيلة عَاند

إنْ كَانَ يَسْتحي لِفَضْل جَمَاله *** فَحَيَاؤه فيه جَمَال زَائِـد[4]

و هذان البيتان في الرد على قول ابن الرومي :

خَجِلَت خُدُود الوَرْدِ منْ تَفْضِيلهِ *** خَجَلاً تورّدها عَلَيْه شَاهِد[5]

ثم يواصل فيقول :

1- المصدر السابق : 81
2- نفسه : 70
3- ديوان ابن الرومي : 1 : 413
4- البديع في وصف الربيع : 70
5- ديوان ابن الرومي : 1 : 412

وَلِمَنْ يكُونُ الفَضْلُ في حُكْمِ العُلاَ المَـــــوعُود عنْه أو النَّدِيم الوَاعِد[1]

و هو رد على قول ابن الرومي :

شَتّانَ بيْن اثنيْن هَذَا مُوعد *** بتَسَلّب الدُّنيا ، وَ هَذَا وَاعِد[2]

ثم يقول بنوع من التهكم :

يَفْنى خيَارُ الخَلْق في الدُّنيا *** و مَا شَيءٌ سِوَى إبليس فِيهَا خَالِد[3]

و في هذا رد على قول ابن الرومي الذي امتدح النرجس لبقائه مدة أطول من بقاء الورد :

وَ إذا احْتَفظتَ بهِ فأمْتع صَاحِبا *** بحَيَاتهِ ، لوْ أنّ حيًّا خَالِد[4]

و هكذا مضى الجياني يرد على ابن الرومي ،الذي انتصر للنرجس على حساب الورد ، مبينا له خطأه حينا و سوء تقديره حينا آخر[*] .

و مناظرة الأزهار تحمل على عدة أوجه ، الوجه الأول: إذا نظرنا إليها كـــلا على حدة ؛ فابن برد مثلا أقام مناظـــــــرة بين عدد من الأزهار وفعـــل الشيء نفســـــه أبو الوليد و ابن الباجي ، و الوجـــــه الثاني أن ننظر إليها جميـــعا فنجد أن أبا الوليد و ابن الباجي و ابن حسداي تصدوا لابن برد على اعـــــتبار أن ما كان سائدا بين ملوك الطوائـــــف ألقى بظلالـــه على الكتاب المترسلين ،

1- البديع في وصف الربيع : 71
2- ديوان ابن الرومي :1 : 413
3- البديع في وصف الربيع : 71
4- ديوان ابن الرومي : 1 : 413
*-رد على ابن الرومي أكثر من واحد و منهم أبو بكر بن القوطية في قصيد مُستول على غاية الكمال مستوف نهاية الجمال و منها قوله : كسفت خدود النرجس المصفر من *** حسد و قد يدوي العدو الحاسد – ينظر : البديع : 73
هذا و في كتاب البديع لصاحبه الحميري مقطوعات شعرية كثيرة في وصف نواوير الربيع و المفاضلة بينها .

و الوجه الثالث إذا عددنا هذه المناظرات جميعا معارضة لابن الـرومي، فبعضهم فضل الورد ردا عليه ، و بعضهم الآخر فضل النرجس و لكن بطريقة الترســـل إظهارا لتفوقه عليه ، و قد اختلفت هذه " الرسائل الأربع – قربا و بعدا – من شكل المناظرة ، و إن كانت رسالة حبيب أكثرها اقترابا " [1] .

أما الأمر المسلم به ، فهو أن هؤلاء الكتاب المترسلين انتهجـــــوا هذه الطريقة لتوصيل رسائل معينة ذات صلة بالحيـــــاة السياسية و الاجتماعية في عصرهم ، و قطعا لا تخلو من أطماع حتى و إن كان الغرض إظهار البراعة اللغوية ، فنحن نعلم أنه كان " من أعظم مباهاة ملوك الطوائــف أن فلانا العالم عند فلان الملك ، و فلان الشاعر مختص بفلان الملك " [2] الأمر الذي أوجد جوا من المنافسة الشديدة بين الأدباء و الشعراء .

1- الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي : فوزي عيسى : 141
2- تاريخ آداب العربية : مصطفى صادق الرافعي : 3 : 280

ب- مناظرة بين النخلة و الكرمة لأبي الحسن النباهي (ت 792هـ) :

الواقع أننا لم نجد من يشير إلى هذه القطعة النثرية لأبي الحســـــن النباهي المالقي على أنها تدخل في حيز المناظـــــــــرة إلا الدكتورة رغداء ماريديني ، هذه المقامة سماها صاحبـــــها " الإكليل في فضل النخيل " ، و قـــــد قدم لها ببيان الغرض من كتابتها ، و أن الـــــداعي لتعصبه للنخلـــــة إنما لحنينـه إلى العراق .(*)

و قـــــــد استهل المالقي مقامته بالوقوف أمام النخلة سائلا إياها عن أحوالها ، و قد تخيلها إنسانا يطارحه الشكوى فقـــــال :" ما أحقك من باسقة بالترحيب و أقربك من رحمات السميع المجيب ، خلتها اهتزت عند النـــــــداء اهتزاز السرور ، و تمايلت أكمامها تمايل الثمل المسرور ، ثم قالـــــت لسائلها بلسان وسائلها .. إن الـــــــدهر عجم قناتي و مس الكبر كدر سناتي ، و ما عسى أن أبث من ثكناتي و جل علاتي من تركيب ذاتي .. فلـــو رأيتم صعصعة أفناني و سمعتم عنـــــــــد جذم بناني قعقعة جناني ، و الدمع لما جافاني يفيض من أجفاني " ، و بعد أن أنهت النخلة تبرمها و شكـــــواها أخذت في الإشارة إلى فضائلها و مزاياها ، مذكرة بخالة أبيها تلك النخلة الكبيرة التي حادثـــــها عبد(1)

---

*- يقول : " قلت أخاطب من أجرى من السراة ذكر العراق فأهاج للنفس الشعاع لواعج الأشواق.. " – ينظر : Geschichte der westlichen araber :marcus joseph muller : 139
و لم يذكر لسان الدين في إحاطته هذه القطعة النثرية على أنها مقامة ، كما لم يدرج عنوانها و لا تمهيد صاحبها لها بل عرض النص مباشرة .

1- الإحاطة في أخبار غرناطة : 4 : 96

الرحمن الداخل بالرصافة (*) ، فكيف تهمل و تنسى ؟ و لما رأى الكاتـــــب أن النخلة تتهيأ للمساجلة و المناضلة أوقفها معرضـــــا " أهلا بك و سهلا و مهلا عليك أو بهلا ، لقد دسع بعيرك (**) و عـــــادت بالخيبة عيرك فليســـت الحقيقة كالمجاز و لاجليقية (***) في النبات كالحجاز (****) ، هـــــنا جنات من أعنـــاب مرسلة الذيول مكملة الأطناب ، قد طاب استيارها ، و حمد اختبارها .. و عذبـــــت عيون أنهارها،و تفتحت كمائم أزهـــــارها ، عن وردها و نرجسها و بهارها ، و سرت بطرف محاسنها الرفاق حتى قلقت منها الشـــــام واليمن و العراق، فحين كثر خيرها سحر بالضرورة غيرها " (1) ، فالكاتب يعيـّـــر النخلة بالكرمة مشيرا إلى أن مكانها في الحجاز و ليس في هــذه الأرض الخصبة ، ثم أنى لها أن تجاري الكرمة ذات الخير الكثيـــــر و الانتاج الوفير ، و يضيف متهكما " و أنت لا كنت يا خشبة قد صرت من المنال عشبة .. لا يجتنى بلحـــك و لا طلعـــــك ، و لا يرتجى نفعك فالأولى قطعك أو قلعك ، و إلا فأين قنـــوك و صنوك ، أو تمرك أو بسرك ؟ .. و في علمك أن من أمـــــثال الحكماء كل هالك عجوز " (2) ، و لما أفحم الكاتـــــب النخلة و عجزت عن الدفاع عن نفسها

---

*- قال عبد الرحمن الداخل و هو يخاطب نخلة منفردة :
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ** فمثلك في الاقصاء و المنتأى مثلي – الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح : 53
ورد في: Geschichte der westlichen araber (م س) : دهمج بعيرك بمعنى قارب الخطو و أسرع : ينظر : 151
***- جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط شمالي الأندلس – ينظر : معجم البلدان : 2 : 157
****-ورد في الإحاطة : النيات بالياء المشددة و يبدو أن الأقرب للصواب النبات بالباء
1- الإحاطة : 4 :97

تدخل المتكلم بلسان القالي[*] للفصل في هذه المناضلة فقال: " إن تفضيل النخل على العنب من المسائل التي لا يسع فيها جحد جاحد .. و قـــد جرى مثل هذا الخطاب بين يدي عمر بن الخطاب فقيل : أيهما أطيب الرطب أم العنب ؟ فقال : ليس كالصقـــر في رؤوس الرقـــل الراسخـــات في العقل ، المطعمات في المحل ، تحفة الصـــائم و نقلة الصبي القادم ، و نزل مريم بنت عمران ، و النخلة هي التي مثل بها المؤمن من الإنســـان ، ليس كالزبيب الـــذي إن أكلته ضرست ، و إن تركتـــه غربت ، و كفى بهذه الرواية حجة لمن أراد سلوك المحجة[1] ، و على كل تقدير فقـــد لزم التفضيل للنخلة على الكرمة " ، و هنا يعترف الكاتب بانهزامه قائـــلا: " و من يا إخوتي لعلي بمعارضة الحافظ أبي علي ، و لـــو أني اشتملت شملة النضر بن شميـــل و أصبحت أفصـــح من عامر بن الطفيل ، و أخطـــب من شبيب و أشعر من حبيب ... و على أنه ما قال إلا حقا فبعـــدا للمرء و سحقا "[2] ، هكـــذا يعترف المالقي بفضل النخلة على الكرمة بعد أن أعجزه القالي عن الرد .

و يبدو أن الكاتب توخى هدفـــا أعمق من مجرد المفاضلـــة بين الشجرتين ، فقد صاغ مناظرته " في قالـــب أدبي يؤدي فيه الرمز دورا هاما ؛ فالنخلـــة

---

*- لا ندري إن كان الكاتب يقصد بالقالي الأديب القالي أبو علي شخصيا أم أنه استحضر شخصيته فقط بالنظر إلى مكانته الأدبية فضلا على أنه مشرقي الأصل .

1- الإحاطة : 4 :97 -98

2- نفسه: 4 :99

رمز الشـــــرق و الكرمة رمز الغرب ، و النخلة رمز الإسلام (*) ، و تنتـــــهي المناظرة بذلك إلى مفاضلة بين الشـــــرق و الغرب و بين الإسلام و الأديـان الأخرى ، و من أجل ذلك كانـــت الحجج التي اعتمدهـــا الكاتـــب في تفضيل النخلة على الكرمة حججا دينيـــــة و تاريخية إذ ربط تاريخ دخول النخلـــة إلى الأندلس بتاريخ دخول بني أمية إليها " (1) .

هذه المقامة التي انتحلت شكل مناظرة ،على غرار السيف و القلم (**) ، ذات قيمـــــة فنية واضحة ؛فقد " أظهر المالقي معرفة كبيرة بكثير من التعريفات والمصطلحات الفنية النباتية " (2)(***) ، كمـــا أن الكاتب توخى المفاضلة بين الإسلام و الأديان الأخرى بهذه الطـــــريقة الطريفة ، فلقد هاله أمر المسلمين آنذاك و توجس خيفـــة أن يتراجع أمر الإسلام أمام المـــــد الصليبي ، و لذلك وجدناه ينتصر للنخلة على الكرمة تعبيرا عن قناعته ببقاء الإسلام و رسوخه في المجتمع الأندلســـــي ، فهو ثابت ثبات النخلة في الأرض الأندلسية .

---

*- ألمح الكاتب إلى هذا حين قال : و لا جليقية في النبات كالحجاز – الإحاطة : 4 : 76.

1- المناظرات الخيالية : 239

**- ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين : إحسان عباس : 231

2- مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر : أحمد محمد الطوخي : 360

***-وجدنا شبيها لهذه المناظرة بعنوان : المفاخرة بين الرطب و الأعناب لمؤلف مجهول مذكورة ضمن مناظرات في المؤلف الموسوم " اللطف و المنة في مفاخرات فواكه الجنة " : 19 و ما بعدها ، و يبدو تأثر الكاتب بالمالقي واضحا من حيث الصياغة و الأسلوب ، و منها أن أبا علي النباهي حكم أبا علي القالي ، و المجهول حكم ابن أبي طالب .

الفصل الخامـــــس

السمات الفنية للمناظرة الأندلسية

لا يمكن الجزم بأن المناظرة الأندلسية تختلف في سماتها و خصائصـــها عن المناظرة المشرقية اختلافا جذريا أو العكس، فللمناظرة فنيـــات و قواعد تفرضها على المتناظرين كيفما كانت مناهلهم و مشاربهم ، يقول الأستاذ علي بن محمد " لا يجوز لأحد أن يفهم من المعنى الاصطلاحي لكلمة خصائص ، أنه إيجـــاد سمات تكون كلها مقصورة على الأدب الأندلسي دون أي شيء آخـــر ، أو أنها له كالوجه للإنسان لا يشاركه في ملامحه أحد أبدا ، إلا أن يكون توأما له " (1) .

و على سبيل المثال فإن الاقتباس من القرآن الكريم و الحديث الشريف ليس حكرا على المشارقة ، بل نجد هذا الأمر شائعا في كل المناظرات سواء كانت مشرقية أو أندلسية أو مغربية ، كذلك الحال بالنسبة لأمثال العرب و أشعارهم و أيامـــــهم ، و يبقى التفاوت قائما من حيث طرائق التوظيف ، و كيفية التعبير.. كما لا يجب أن يظن أحد أن المناظـــرة الأندلسية هي نسخ لنظيرتها المشرقيـــــة ، فهي تتمتع بقدر كبير من الخصوصيـــــة و لا ينكر هذا إلا متعصب ، أو قائل بالتقليـــد و التبعية ، هؤلاء الذين سلبوا الأدب الأندلسي كل شيء ، و لـــم يعترفوا لأصحابه بأي شيء عدا التقليد ، و السؤال المطروح " كيف جاز لبعض الـــدارسين اليوم أن يتجاهلوا هذه الحقائق و غيرها .. فلا ينظـــرون إلى أدب أنشئ في ظرف من أقسى

1- النثر الأدبي في الأندلس : 2 : 632

ظروف العرب التاريخية ، و في فترة من أشد فترات العنف الذي تميز به تاريـــخ صراعهم مع الغرب .. و هل يصح عقلا أن لا يكـــــون أدب شعب بأكمله طوال قرون من الزمن إلا صيغا و أساليب قلدها رجاله من غيرهم ؟ " (1)(*) ، هي مغالطـــة لها ما يفندها ، فالمناظرة الأندلسية تختلف عن نظيرتها المشرقيـــــــة في عدة جوانب كالأسلوب مثلا ؛ إذ ابتعد الأندلسيـون عن التعقيد و التعمق في الأفكار لأن الفلسفة لم تغلب على طبعهم كما فعلت في المشرق (**) ، و من نقـاط الاختلاف أيضا عدم احتفاء الكتاب الأندلسيين " بمطالـــــع الرسائل و خواتيمها ، و لهذا اتخذت رسائلهم في بنائها شكلا فنيا جديدا ، فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها و أغراضها، تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف ، و تبدأ بالدعاء للمرسل إليه أو بالدخول في الموضوع مباشرة ... أو استخدام الألقاب التي تتناسب و من يكتب إليه : أميرا أو وزيرا أو صديقا " (2) ، فرسالة ابن برد مثلا استهلها بحمـــــــد الله و الصلاة على نبيه باختصار شديد فقال:"أما بعد،الحمد لله بجميع محامده و آلائه ، و الصلاة على خاتم أنبيائه " (3) ، ثم بدأ في تقديم المناظـــرة . وهناك من الأدباء من كان يدخل مباشرة في الموضوع ،كابن حسداي في خطابه إلى المقتدر، إذ قـــال :

1- المرجع السابق : 2 : 688

*- و " ماذا كان يريد نعاة التقليد أن يقوم به أدباء الأندلس من التجديد ؟ أكانوا يريدون انتاجا طافرا لا يتفق مع انتاج المشرق في شيء ؟ إن طابع الأشياء تنكر ذلك فكل تجديد يحمل في طياته خطوط القديم و ما يحتذيه " – الأدب الأندلسي بين التأثر و التأثير : محمد البيومي : 14 ، و هلا كان اللوم أيضا على أدباء العصور التي تلت العصر الجاهلي ؟ ألم ينهجوا نهجهم، و يبكوا أطلالهم، و لا أطلال لهم ، ردحا من الزمن ؟

**- ألقت الطبيعة بظلالها على الشعر الأندلسي، إذ أمدته من المعاني ما صرفه نسبيا عن التلاعب بالألفاظ و الخضوع لضرورات البديع – ينظر : الحياة الاجتماعية في الأندلس و أثرها في الأدب : محمد الدوغلي : 79 ، و : تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم علي أبو الخشب : 122

2- أدب الرسائل في الأندلس في القرن 5 هـ : فايز عبد النبي : 315

3- الذخيرة : 1 : 325

" أنا – وصل الله بهجة سلطانك ، و نضرة أوطانك – إذا لاحظتني بعين الاعتبار، قائد الأنوار .. " [1] ، كما استهل بعض المناظرين رسائلهم بأبيات شعرية على نحو ما فعل أبو الطيب القروي في رده على ابن غرسية ، إذ قال :

و ذي خَطَلٍ في القول يحسَب أنه *** مُصيبٌ فما يلْمِم به فهو قائلهُ [2]

و قد شذت بعض المناظرات عن هذا ، فوجدنا أصحابها يفتتحونها بمقدمات طويلة كما فعل صفوان بن إدريس في مناظرة المدن ، إذ قال :" مولاي أمتع الله ببقائك الزمان و أبناءه ، كما ضم على حبك أحناءهم و أحناءه [*] ، و أوصل لك ما شئت من المن و الأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان ، فإنك الملك الهمام ، و القمر المستهام ...." [3] ، و لا غرابة، فغاية الكاتب التقرب من الأمير، و نيل الحظوة في حضرته ، و إلى جانب هذا كله " لم تكن لهم تكلفات المشارقة في التهالك على سائر أنواع البديع كالتورية و الجناس ، بل يتركون ذلك لعفو الخاطر " [4].

فالمناظرة الأندلسية تختلف عن المناظرة المشرقية في أمور بسيطة كتلك التي ذكرناها آنفا ، كما تشترك معها في أمور كثيرة ،على أن الأندلسي أثبت تفوقا واضحا أكثر من مرة .هذا و سنعتمد في دراستنا للسمات الفنية على انتقاء نماذج متفرقة من المناظرة الأندلسية تفاديا للتكرار .

1- المصدر السابق : 3 : 297
2- نفسه : 3 : 469
*- الأحناء : جمع حنو و هو كل ما فيه اعوجاج من البدن : القاموس المحيط (حنو)
3- النفح : 1 : 167
4- الأدب الأندلسي التطور و التجديد : محمد عبد المنعم خفاجي : 602

المبحث الأول : في الشكل و البناء :

أ- الروافد التي أفادت منها المناظرة الأندلسية :

الاقتباس :

كثيرا ما نصادف خلطا عند بعض الدارسين بين الاقتباس و التضمين ، إذ يتم توظيفهما على أساس أنهما شيء واحد ، و الواقع أن البلاغيين حددوا لكل مصطلح مفهومه ، فالاقتباس هو " أن يتضمن الكلام (شعرا أو نثرا) شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف "[1] ، أما التضمين فهو " أن يضمن الشاعر شيئا من شعر الغير في شعره ، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء "[2].

و تأثر الأدباء بالقرآن الكريم يبدو واضحا إما من خلال الاقتباسات المباشرة ، أو عن طريق النسج على منواله ، فكثيرا ما عمدوا إلى انتهاج " نهجه في بعض عباراتهم ، و توخوا محاكاة ألفاظه و تعابيره ، و طريقة أدائه ، و ربما جعلوا كلامهم على نظام الفواصل إمعانا في هذه المحاكاة "[3] .

و المتتبع للمناظرة الأندلسية يجدها تحفل بالاقتباسات[*] ، و لا فرق في ذلك بين المناظرة الدينية أو الأدبية و حتى الخيالية ، فهم يجدون في ذلك أقوى حجة على صحة آرائهم ، فكانوا يعمدون إلى الربط بين معانيهم و الآيات القريبة منها بغية

---

*- إن " المتتبع لأدب أهل الأندلس يلاحظ التأثير القرآني واضحا منذ وطئت أقدام العرب هذه الأرض ، و منذ اللحظة التي خاطب فيها القائد طارق بن زياد جنده ، و ما تضمنته هذه الخطبة من ألفاظ و معان قرآنية ، و ما نسب إليه من أبيات في هذه المناسبة. ..-أثر القرآن الكريم في الشعر العربي : محمد شهاب العاني : 13

1- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني : 334

2- نفسه : 336

3- الخطابة السياسية في عصر بني أمية : إحسان النص : 141

دحض حجج الخصم .و ما يعنينا في هذا كله فنيات الأديب الأندلسي في الاقتباس، فضلا عما تنم عليه كتابته من ثقافة واسعة و مكنة واضحة ، و من أمثلة ذلك قول ابن مسعدة في الرد على ابن غرسية " و أقل شكرك على كفالتها ، و إلقاء أقلامها"(1) و المعنى مقتبس من قوله تعالى " و ما كُنْتَ لديْهم إذ يلقوْنَ أقلامهُم أيُّهمْ يكْفلُ مريَم و ما كنْتَ لَدَيْهمْ إذْ يَختَصمُون "(2) ، كما اقتبس القـــــروي في رده على ابن غرسية من بعض آي القرآن و ذلك في قوله: " ألم نربك فينا وليدا "(3) ،و هو مقتبس من قوله تعالى على لسان فرعون و هو يخاطب موسى :" قالَ ألمْ نرّبّكَ فينا وليدًا و لبثْتَ فينا مِن عُمْركَ سِنينَ "(4) ، كما نجد الاقتباس حاضـــــرا أيضا عند أبي علي النباهي المالقي في مناظرته بين النخلة و الكرمة،إذ قال:" هذه الشجرة التي أصلها ثابت ، و فرعها في السماء "(5) ، و المعنى مقتبس من قوله تعالى :" ألَمْ تَر كَيْـــــف ضَربَ اللهُ مَثلا كَلِمَة طيّبَة كَشجَرةٍ طيّبَة أصْلهاَ ثابِت و فرْعُها في السّماء "(6) .

هذا عن اقتباس المعاني، و هناك نوع آخر من الاقتباس ، و هو أن يقتبس الأديـــب من القرآن الكريم الآية كاملة دون الإشـــــــــارة إلى ذلك و يضمنها في كلامه بما يقتضيه المعنى ، أو الإيقاع أحيانا ، كقول ابن أبي الخصال في رسالة الترجيح بين الصابي و البديع :"لا يستقل لهم لواء و"لا يرْتدّ إليْهم طرْفهُم و أفئِدتُهُم هَواء "(7) .

1- رسائل أندلسية : 133
2- سورة آل عمران ، الآية : 44
3- الذخيرة : 3 : 470
4- سورة الشعراء ، الآية : 18
5- الإحاطة : 4 : 98
6- سورة إبراهيم ، الآية : 24
7- السورة نفسها ، الآية:43

و مثل ذلك قول الباجي في رده المذكور آنفا (*) :" حتى رفعه الله إليه ، واختار لـه ما لديه " و مَا قَتلوُه و ما صَلبوُه و لكنْ شُبّه لهَم "(1) " (2) ، و قوله أيضا :" و رجونا سرعة انقيادك و إنابتك " و مَا توْفِيقي إلاّ باللهِ عليَهِ توَكّلتُ "(3) " (4) ، و قد ظهر هذا الأسلوب بشكل جلي عند صفوان بن إدريس في مناظرة المدن ، و منها قولـــــه:

" تنمرت حمص غيظا ، و قالت: ما لهم يزيدون و ينقصون ..." إنْ يتّبعُـــونَ إلا الظن و إنْ هُم إلا يَخرُصوُن "(5) " (6) ، و قوله على لســـان مرسية " فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم " و مآ يلُقاّهاإلا ذُو حَظ عَظِيم "(7) " (8) ، " و لعــل من أبرع مظاهر تفننهم، الملاقـــاة بين آيتين من سورتين مختلفتين ، و إيجاد رابط معنوي بينهما ليظهر كأنما هما من سياق واحد ، تكمل إحداهما الأخرى " (9) ، كقول الباجي " يوم لا ينفع نصح ، و لا يقبل عذر " و يَومَ يَعَضُّ الظالمُ على يَديْه " (10) ، " و يقـولُ الكافرُ يا ليْتني كُنتُ تُرَابا " (11) ، و لا مستقر يومئذ إلا الجنة أو النار " (12) .

---

*- ينظر ص : 33 من هذا البحث
1- سورة النساء ، الآية : 157
2- رسائل أندلسية : 232
3- سورة هود ، الآية : 77
4- رسائل أندلسية : 233
5- سورة يوسف ، الآية 66
6- النفح : 1 : 168
7- سورة فصلت ، الآية : 35
8- النفح : 1 : 170
9- النثر الأدبي في الأندلس : 2 : 680
10- سورة الفرقان ، الآية : 27
11- سورة النبأ ، الآية : 40
12- رسائل أندلسية : 242

و من الملاحظ أن المناظر الأندلسي تفنن في الاقتباس بكل ضروبه ، و كان فيه من المكثرين و ليس غريبا ؛" فإذا كان الأديب يستطيع أن يتيح صورة شعرية جميلة من خلال عبقريته و موهبته و أصالته ، فإن كلام الخالق عز و جل لابد أن يفوق كلام البشر ، و أن الصورة الفنية في القرآن الكريم تكون أشد قوة و تأثيرا في تسخير جميع مسببات التأثير العاطفي و النفسي لدى المتلقي "[1] .

و لقد كشفت المناظرة الأندلسية ، هنا ، عن جانب من إبداع الأندلسي و ثقافته الدينية الثرة .

تأثر المناظرة الأندلسية بالفاصلة القرآنية :

يعرف السيوطي الفاصلة بأنها " كلمة آخر الآية كقافية الشعر، و قرينة السجع"[2]، و للفاصلة " أثر في نسق الكلام ، و اعتدال المقاطع ، [فهي] تجعل موقعه حسنا في النفوس ، و تؤثر فيه تأثيرا لا ينكر ... مما يريح السامع و يجذب انتباهه "[3] .

و قد تأثر المناظر الأندلسي بالفاصلة القرآنية[*] تأثرا واضحا ، و من الأمثلة على ذلك قول صفوان بن إدريس على لسان مدنه :" لي السهم الأسد و الساعد الأشد ، و النهر الذي يتعقب عليه الجزر و المد "[4] ، فكلمات الأسد و الأشد و المد ، تقابل فواصل سورة الإخلاص : الأحد ، الصمد ، أحد .

1-أثر القرآن الكريم في الشعر العربي : محمد شهاب : 156

2- الإتقان في علوم القرآن : 2 :96

3- الفاصلة القرآنية : عبد الفتاح لاشين : 22

*- " تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب .. و هي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام " – فواصل الآيات القرآنية : كمال الدين المرسي : 09

4- نفح الطيب : 1 : 168

و من ذلك أيضا قول لسان الدين بن الخطيب على لسان مالقة :" أبقـــاها الله على تعاقب الزمان منزل أمان و دار إيمان "[1] ، و كلمات الزمان ، أمان و إيمان تقابـل فواصل سورة الرحمن : القرآن ، الإنسان ، البيان ، حسبان .

و منها أيضا قول ابن برد على لسان القلم : " الذهب معدنه في العفر و هو أنفس الجواهر، و النار مكمنها في الحجر و هي إحدى العناصر"[2] ، و كلمات : العفـــر والجواهر و الحجر و العناصر تقابل فواصل سورة القدر : القدر ، شهر ، أمر ، أو سورة القمر : القمر ، مستمر ، مستقر ، مزدجر...

و منها أيضا قول أبي جعفر الداني على لسان قصر المبارك " شهدت الأشهاد أنه بك مهدت البلاد ، و عنك انبثت الجياد كأنها الجراد "[3] ، فكلمات : الأشهاد و البلاد و الجياد تقابل فواصل سورة الفجر : عاد ، العماد ، البلاد ، الواد ، الأوتاد ..

و منها أيضا قول المالقي في وصف الكرمة " قد طاب استيارها ، و حمد اختبارها .. و عذبت عيون أنهارها،و تفتحت كمائم أزهارها ، عن وردها و نرجســـــــــها و بهارها "[4] ، و كلمـــات : استيارها ، اختبارها ، بهارها و أنهارها تقابل فواصل سورة الهمزة : زلزالها ، أثقالها ، مالها ، أخبارها ..

---

1 - أزهار الرياض في أخبار عياض : المقري : 1 : 125
2- الذخيرة : 1 :327
3-نفسه : 3 : 494
4- الإحاطة : 4 :97

التضمين :

التضميـــــــــن هو أن يضمن الأديب شيئا من شعر غيره أو نثره ، دون الإشارة إليه حتى يبدو من إبداعه الخالص ، و قد سماه القدامى السرقات الشعرية ، ثم تطورت المفاهيم فيما بعد إلى التضمين فالتناص .(*) (**)

و قد تراوحت آراء النقاد حوله بين التأييد و المعارضة ، فأما الفئة الأولى فتـــراه دليلا على سعة ثقافة الأديب ، على حين تجده الفئة الثانية دليل ضعف و قصـــور عن الابتكار و الإبداع ، و إذا وفقنا بين الرأيين وجدنا التضميـــــــــن ينم على مهارة الأديب ما لم يكن فيه إفراط .(***) (****)

و كان توظيف المناظـــــــر الأندلسي لهذا الفن البديعي توظيفا متقنا ، فقد ضمّن شعر غيره في نثره لدرجة بدا فيها أنه من إبداعه الخالص .

و من الأمثلة على ذلك، قول ابن برد على لسان السيف ، و هو ينتقص من القلـم : " و جوف لم يتخضخض فيه قلب ، أوحش من جوف العير "(1) ، و المعنى مأخـوذ من قول امرئ القيس في معلقته :

ووَادٍ كَجَوفِ العِير قَفْر قطعتُه *** به الذئبُ يعوي كالخليع المـُعيَّل(2)

---

*- يعترف ابن رشيق أنه من الصعب على الشاعر أن يسلم من السرقات الشعرية لأن فيها أشياء غامضة – ينظر العمدة : 2 : 280

**- يعرف لوران جيني التناص بأنه عمل يقوم به نص مركزي ، لتحويل عدة نصوص و تمثلها ، و يحتفظ بريادة المعنى – ينظر : آفاق التناصية المفهوم و المنظور : محمد خير البقاعي : 75

***- يرى بدوي طبانة أن التضمين دليل واضح على سعة اطلاع الأديب ، كما أن ليس كل شاعر أو ناثر بمقدوره تضمين شعر غيره بمهارة ، أما السامرائي فيراه ضربا من التقليد و المحاكاة – ينظر : التضمين في العربية : أحمد حامد :92

****- إن " الشاعر العظيم يظل خاضعا للتراث ، دون أن يقع ضحية الاستعباد له ، أو لجانب منه ، إذ يتحول الواقع التراثي إلى جزء من كيان الشاعر ، له أن يفيد منه ، و عليه أن يزاوج بين تجاربه و تجارب أسلافه و معاصريه ، لتصبح الثقافة لديه عامل إخصاب يزيد من عمق التجربة ، و لا تتحول إلى عامل إفساد أو عقم ، أو قيد خارجي يتحكم فيه " – المعارضات الشعرية : عبد الله التطاوي : 25

1- الذخيرة : 1 : 327

2- شرح المعلقات السبع : الزوزني : 35

و من التضمين أيضا قول ابن مسعدة في الرد على ابن غرسية : " و جئتم بما فضحت قومها غامد "[1] ، و هو مأخوذ من قول امرأة من غامد حين هزم قومها ربيعة بن مكرم :

ألا هَل أتاها على نأيها **** بما فضَحَتْ قَومَها غامد[2]

و منه قول ابن حسداي على لسان النرجس :" و أنا أشبه بها إذا شجت و أدارت ،عيون حبب من حصباء درّ في أرض ذهب "[3] ، و هو مأخوذ من قول أبي نواس :

كأنّ صُغري و كُبري من فواقعها *** حصباءُ درّ على أرض من الذهب[4]

و منها قول عبد الله بن أبي الخصال في الصابي " إن غضب حسبت الناس غضابا.."[5] ، و هو مأخوذ من قول جرير في هجائه الراعي النميري :

إذا غَضِبتْ علَيْك بَنوُ تميمٍ *** حَسِبْتَ الناسَ كُلّهم غِضابا[6]

و أما الشاعر الذي أكثر أدباء الأندلس من تضمين أشعاره فأبو الطيب المتنبي ، و قد حرصوا على " إحداث امتزاج شديد دونما إشارة تشير إلى بؤرة الانتماء أو مصدره "[7] ، و من أمثلة ذلك قول ابن حسداي على لسان النرجس: " فأزل عني

1- رسائل أندلسية : 137
2- البيان و التبيين : 1 : 249
3- الذخيرة : 3 : 298
4- ديوان أبي نواس : 40
5- رسائل و مقامات أندلسية : 202
6- ديوان جرير : 823
7- الحوار الأدبي بين المشرق و الأندلس : 47

حسدهم بكبتهم " [1] ، و هو مأخوذ من قول المتنبي :

أزلْ حَسَد الحسّادِ عَنّي بكَبْتِهم *** فأنتَ الذي صَيّرتهُم لي حَسَدا [2]

و كذلك قول صفوان بن إدريس على لسان إحدى مدنه :" كلام العدى ضرب من الهذيان ، و أنى للإيضاح و البيان " [3] ، و هو مأخوذ من قول المتنبي :

و للهِ سرّ في عُلاكَ و إنما *** كَلامُ العِدى ضربٌ منَ الهَذيان [4]

و منها قـــــول ابن أبي الخصال في الترجيح بين الصابي و البديع " و أنـا.. لا أرغب عن الهدى ، و لا أضع السيف موضع الندى "[5] ، و المقطع الأخير مأخوذ من قول المتنبي :

ووَضعُ النّدى في مَوضِعِ السّيفِ بالعُلا*** مُضرٌّ كَوضْعِ السّيفِ في مَوضِعِ النّدى [6]

و لم يكتف المناظر الأندلسي بتضمين الشعر فقط ، بل إننا نجد في مناظراته شيئـا من الأمثال و الحكم و أيام العرب ، و هو ما ينم عن ثقافة واسعة استعان الأندلسي بها ليكسب مناظرته قوة في الأسلوب و الحجة .

1- الذخيرة : 3 : 298
2- ديوان المتنبي : 372
3- النفح : 1 : 168
4- ديوان المتنبي : 475
5- رسائل و مقامات أندلسية : 206
6- ديوان المتنبي : 372

ب- الجماليات الفنية :

الأديب فنان بطبعه ، يتفنن في التعبير عن أبسط الأمور ، و يندفع للتعبيـــر عن المشاعر التي تضغط عليه ضغطا شديدا لنقل أحاسيسه للآخرين ، فيستثير طاقـــة الخيال و الإبداع ليخرج عمله الأدبي في حلة تسر الناظرين .

و الإبداع الأدبي قدرة عجيبة لا يتأتاها جميع الناس، حتى إن الأقدمين ربطـوها بالسحر و الشياطين لقوة تأثيرها في السامعين ، وللمناظـــــرة الأندلسية حظ من (*) ذلك السحر الذي يتأتى من طريقة نسجها و حبكها ، حتى ليصعب على القـــارئ - أحيانا - أن يعرف إذا كان الأديب قال المناظرة لسبب ما أو أنه اختلق ذلك السبب ليقول تلك المناظرة ، و هو ما سنضيئه في الآتي .

1- التشخيص :

ما من شك في أن التشخيص ألصق بالمناظرات الخيالية التي به تتميز ، فهـــو " يعطي صورة أخرى لعالم آخر غير بشري أبطاله الجماد و الحيوانات و النباتات .. يتحركون على خشبة مسرحهم البيئي بما يملكون من أدوات الإنسان ، و روحه و عقله ، و فكره ... و التشخيص الخيـــــالي أعطى المناظرات الخيالية أسلوبا تصويريا مهما ، و متقدما في التعبير لإذكاء شعور المتلقين " (1) ، و فضل التشخيص أنه يفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقة (2) ، و من الأمثلة التي نسوقها ما فعلـــه

---

*- قال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا البيان إلا صورة ممثلة ، أو بهيمة مرسلة ، أو ضالة مهملة – ينظر : أدب المجالسة و حمد اللسان : ابن عبد البر : 42-43

1- المناظرات الخيالية : 421

2- ينظر: كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري : 296

ابن برد حين أنطق السيف و القلم ، فتمثلهما شخصين قاما للسجال و النضـــال ، دون أن يجردهما من صفاتهما الأساسية ؛ فالقلم للتدوين و السيف للقتال، و هما لا ينكران وظيفتيهما تلك ، بيد أن كل واحد منهما يحاول إجبار الآخر على الاعتراف بتفوقه عليه، ذاكرا ما يميزه من صفات كقول القلم :"ها،الله أكبر أيها المسائـــل بدءا يعقل لسانك ، و يحير جنانك .. الأفضل من فضلـه الله عز و جل في تنزيله ، مقسما به لرسوله ، فقال " ن و القلَم و ما يَسْطُرون " (1) .. فجل من مُقسم ، و عز من قسم "(2)، ثم يحتدم الصراع و لا يهدأ بال أحدهما حتى يحط من شأن الآخر و يمعن في إذلاله ، و بخاصة السيف الذي خاطب القلم قائـــلا :" وجه لئيم و جسم سقيم ، و غرْب يُفلّ ، و دم يطل .. و رأس لم يتغلغل فيه لب ، يشهد عليه كثرة الجور بقلة الخير " (3) ، فابن برد " استخدم الحواس و الحركـــــة ، و تمثل السمع و البصر في تشخيص جماده ليشكل لوحة تجريدية قوامها الإحساس الشعوري لعالم خـــارج العالم البشري ". (4) و فعـــل صفوان بن إدريس الأمر ذاته حين أنطق المـــــدن الأندلسية، فجعلها تتسابق لنيل رضى الأمير ، فهذه إشبيلية تنتفض معترضة على قريناتها فتقول :" ما لهم يزيدون و ينقصون ، و يطمعون و يحرصون ... لي مـــا شئت من أبنية رحاب ، و روض يستغني بناظره عن السحاب "(5)، و تعقب قرطبـة

1- سورة القلم ، الآية : 01
2- الذخيرة : 1 : 325-326
3- نفسه : 1 : 327
4- المناظرات الخيالية : 451
5- النفح : 1 : 168

قائلة " لقد كثرت نزرا ، و بذرت في الصخر الأصم بذرا .. لي البيت الطاهـــر الشريف ، و الاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف " (1) ، و هكـــذا مضت المدن في عرض فضائلها و التقليل من شأن غيرها (*) في صورة أبدع الكاتب في رسمها .

و إذا كان إنطاق الأشياء من الجمال بمكان ، فالأجمل منـــــه أن يحاور الجماد الإنسان ، و هنا تظهر براعة الكاتب في ترجيح كفة الواحد على الآخر ، لاسيـــما أنه لا يوجد تكافؤ بين الطرفين ، و يبـــدو أن أبا الحسن عليا النباهي وفق في ذلك في مناظرته بين الكرمة و النخلة ، فهو لم يقم الحوار بين الشجرتين مباشـــــرة ، ولكنه أوكل أمر الكرمة إلى نفسه على حين ترك النخلة تتكلم بلسانها شاكية تقلبات الأيام إذ قالت :" إن الدهر عجَم قناتي،و مس الكبر كدر سناتي ..كيف يسهل عليكم إهمالي ، و يجمل لديكم إخمالي ؟ " (2) ، فتدخل الكاتب و لكن لا ليُربّت عليها ، بـــل ليعيرها بالكرمة صاحبة الفضل و الخير ، و لكي تعود الأمور إلى نصابها كان لا بد من تدخل طرف ثالث هو أبو علي القالي الذي أنهى الجدال لصالـــــح النخلة ، و هنا يظهر تمكن الكاتب من إجراء مناظرة أحد أبطالها من غير الإنسان ، و مع ذلك ينهيها لصالحه بتدخل طرف ثالث .

1- نفسه : 1 : 168

*- "وقد جاءت الرسالة على طريقة الكتابة الإخوانية شبه الرسمية، أرسلها أديب إلى الأمير، مراعيا في تدبيجها مقام من وجهت إليه، أو متعاملا مع الواقع في صياغة ما يختلج في نفسه من أحاسيس وتصورات، وقد ازدان المضمون بأسلوب اختيرت في ألفاظه، ونُسّقت فقره، وتنوعت صيغه، مما يشهد للأديب بالقدرة الفائقة على التعبير والإنشاء، ومجاراة معاصريه في السير على مقاييس العصر الفنية." – عن مقال لـ هناء دويدري ، مجلة الموقف الأدبي ، دمشق ، العدد 288

2- الإحاطة : 4 : 96

و إنطاق الجمادات و النباتات يقودنا للحديث عن شيء آخر ، هو الرمـــز و مدى إبداع الأندلسي في توظيفه من أجل تمرير رسائل معينة .

2-الرمز :

إن انتقاد أحوال المجتمع ، أو التبرم من الحـــاكم ، أو الرغبة في التقرب من الأمير أمر ليس متاحا دائما ، فالأديب إذا عدم الوسيلة ، أو خانته الشجاعـــة ، لم يجد غير الرمز ملاذا حيث يعمد إلى تبطين عمله الأدبي برموز و إيحاءات ، و لنا في ابن المقفع المثال الأوضح في مؤلفه كليلة و دمنة .

لذلك " كانت دراسة النص – و لا تزال – تعتمد في أحوال كثيرة ، على المناهـج التي تهتم بحياة الأديب ، و أحوال البيئة ، و العوامل التاريخية و النفسية التي يمكن أن يكون لها تأثير مباشر،أو غير مباشر فيما تجود به قرائح الأدباء من نتاج أدبي"[1]

و الرمز ليس وليد الحداثة كما يعتقد البعض ، بل له إرهاصات أولى بدأت مع ابن المقفع و سرعان ما احتضنتها المناظرات الخيالية ، فهي – في أكثرها – رسائـل مشفرة ابتغى أصحابها من ورائها تحقيق مآربهم ، و فرض توجهاتـــهم ، فابن برد مثلا لم يكن همه إجراء مباراة بين القلم و السيف كأداتين ، و لكنـــه قصد بالأول الكتاب وبالثاني الجنود ،حتى يصل إلى مبتغاه، و هو: المساواة بين الفئتين ، و قـد ظهر ذلك جليا في آخر الرسالة حين ساوى بين السيف و القلم ، و في مناظـــرة

1- قراءة النص و جماليات التلقي : محمود عبد الواحد : 414

الأزهار التي مرت معنا لم يكن هدف ابن برد و ابن حسداي و ابن الباجي التنافس في إظهار جمال الزهر و بهاء الورد ، و لكن كان لكل واحد غاية و مقصد . فالورد عند ابن برد هو ابن جهور ، أو هو الكاتب نفسه ، و البهار عند أبي الوليد هو المعتضد ، و لم يكن النرجس عند ابن حسداي إلا الكاتب نفسه ، و كذلك مالقة لم تكن إلا عمر الزجال في مناظرة المدن ، كما لا يستبعد أن يكون قصر المبارك هو أبو جعفر الداني الذي ربما خشي أن يهجره المعتمد بن عباد إلى غيره من الأدباء ، كما هجر المبارك إلى المكرم ، فأراد أن يبين له أن القديم هو الأصل.

فهؤلاء الكتاب استعانوا بالرمز للتقرب من الحكام و التودد إليهم ، ليزدادوا حظوة و قربا ، على غرار شعراء البلاط . و إذا كان بعض الأدباء اختار الرمز لتحقيق مآرب شخصية ، فإن بعضهم الآخر وظفه بدافع ديني ، فأبو الحسن علي المالقي حين فاضل بين النخلة و الكرمة كان هدفه المفاضلة بين الإسلام الذي تمثله النخلة و النصرانية التي تمثلها الكرمة ، لتكون الغلبة في الأخير للنخلة بما يعني انتصار الإسلام و ثباته في الأندلس ، كما لا يستبعد أن يكون ابن غرسية قد لجأ إلى التمويه فعرّض بالعرب بهدف الإساءة إلى دين الإسلام ، و قد ظهر الرمز الديني بوضوح في حوار أبي الحسن الششتري مع القس، فالخمر رمز للنشوة التي يشعر بها المريد و قد تجرد تجردا كاملا من الدنيا ، ولامس بروحه عنان السماء ، كما

أن الخرقة ترمز إلى الزهد في الحياة ، فهو لم يقايض خمر القس بخرقته ، و إنما أراد أن يبين له طريق الوصول إلى الانتشاء بالحب الإلهي .

هكذا حضر الرمز بقوة في المناظرة الأندلسية ، و ليس تعنينا أهداف الأدباء من وراء توظيفه بقدر ما يعنينا الرمز على وجه التحديد ، ولا يسعنا إلا أن نقول: إن الأندلسي قد أسهم بهذا المجهود في وضع اللبنات الأولى للحداثة ، إذ لا يخفى على أحد أن الرمز هو أحد تجلياتها .

3-السرد و القص :

إن المطلع على المناظرة الخيالية يجد تشابها واضحا بينها و بين القصة ، و لعلنا لا نجاوز الصواب إذا قلنا: إن هذا النوع من المناظرات مهد بشكل ما للقصة في الأدب العربي ، فنحن لو أسقطنا عناصرها من حبكة و عقدة و حوار و سرد على المناظرة الخيالية لوجدنا تطابقا كبيرا .

(*)

مثال 1 : مناظرة السيف والقلم :

- الموضوع : المفاضلة بين السيف و القلم.

- الشخوص : السيف ، القلم .

- الحوار : قال السيف ... ، قال القلم ....

- العقدة : تأزم الأمور و احتدام الصراع بين السيف و القلم .

1- ينظر : الذخيرة : 1 : 326 و ما بعدها

- الحل : جنوح السيف و القلم للسلم ، و اعتراف كل واحد منهما بفضل الآخـــر ، إضافة إلى وجود عنصر السرد الذي مثله الراوي .

مثال 2 : مناظرة النخلة و الكرمة : (1)

- الموضوع : الترجيح بين النخلة و الكرمة.

- الشخوص : النخلة ، الكاتب ، القالي .

- الحوار : قالت النخلة... ، قلت ....، قال القالي....

- العقدة : احتدام الصراع بين النخلة و الكاتب.

- الحل : تدخل القالي و إنهاء النزاع لصالح النخلة .

هذا و إننا نجد في بعض المناظرات ما يشبه المسرحيـــة ، كما هو شأن مناظرات الأزهار لاسيما مناظرة ابن برد في تفضيل الورد (2) ، فكأننا به أقام خشبة مســـرح ووزع الأدوار على أزهاره التي بدأت كل واحدة منها تدلي بدلـــوها على حدة ، ليسدل الستار أخيرا بعد أن قدمت الـــولاء التام للورد ، و الشيء نفسه بالنسبة لمناظرة المدن لصفوان بن إدريس ، التي اجتمعت في مسرح واحـــد و أخذت كل واحدة تعرض فضائلها ، ليسدل الستار دون معرفة البطل الحقيقي الذي لم يكن إلا الأمير نفسه . و بناء على ما سبق نستطيع القول: إن المناظرات الخيالية مهـــدت ، بشكل أو بآخر ، لأدب القصة و المسرح في الأدب العربي .

1- ينظر : الإحاطة : 4 : 97 و ما بعدها

2- ينظر : الذخيرة : 2 : 76 و ما بعدها

4-الأسلوب العاطفي :

لا تكفي الحجج و البراهين وحدها للتأثير في الخصم ، بما يقضي بالتفـــوق أو الفشل، إذ لابد أن يستعين المناظر بما يعرف بالأسلوب العاطفي، الذي من شأنه أن يرجح كفة المناظرة لصالحه ، و " من ركائز الأسلـــــوب العاطفي الاتكاء على الأسلوب الإنشائي ، باستخدام صيغ النـــــداء و التعجب و الاستفهام و التساؤل و التمني و الخطاب و الأمر و النهي ، مع ما تؤديـــه من معان إضافية كالتوبيخ و التقريع و التهديد و الدعاء و التهكم " .(1)

و من أمثلة ذلك قول القروي يخاطب ابن غرسية : " أيها الفاخـــــر بزعمه ، بل الفاجر برُغمه ، ما هذه البسالة في الفسالة ؟... كيف زللت حتى ضللت ؟ أبالعرب تمريت ؟ .. أما تهديت لما تعديت ؟ " ، بهذه الطريقة نادى القروي ابن غرسية ، ثم أمطره بأسئلة كثيرة غرضه منها التقريع و التوبيـــــخ ، و في موضع آخر نجد أن الغرض من الاستفهام التعجب و الإنكار كما في قوله:" متى كنتم تصبرون و لا تصبرون ، و في أي المواطن تظفرون و لا تُظفرون ؟ " ، و في سياق آخر أورد الشقندي في رده على ابن المعلم مجموعة من الاستفهامات ،بغرض الفخر من قبيل قوله :" فهل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب ؟..و هل لكم مَلِك ألف في فنـون(2)(3)

1- الخطابة السياسية في عصر بني أمية : إحسان النص : 135
2- الذخيرة : 3 : 469
3- نفسه : 3 : 472
4- النفح : 4 : 165

الأدب ؟ .. و هل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج ؟.. " [1] .

وقد أكثر المناظرون من توظيف الاستفهام بغرض الفخر ، لما له من وقع شديد على السامع ، كقول صفوان بن إدريس على لسان مرسية: " أين أوشالكم من بحري [*] ، و خرزكم من لؤلؤ بحري ، و جعجعتكم من نفثات سحري ؟ " [2] ، وأحيانا يخرج الاستفهام إلى غرض السخرية و التهكم كما في قول تدمير لبلنسية :" ما الذي يجديك الروض و الزهر ؟ أم ما يفيدك الجدول و النهر ؟ و هل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ هل أنت إلا محط رحل النفاق ، و منزل ما لسوق الخصب فيه من نَفَاق" [3] . أما عن الأمر ففي مثل خطاب الشقندي ابن المعلم الطنجي قائلا : "اقن حياءك أيها المغرد بالنحيب " [4] و غرضه التصغير و التحقير.

و في مناظرة مالقة و الحمراء للزجال ، نلاحظ أن النداء خرج عن وظيفته العادية، و هي لفت الانتباه إلى إشعار الآخر بالطاعة المصحوبة بنوع من التذلل ، من قبيل " يا سيدتي .. و يا عدتي .. يا سيدتي الحمراء .. " [5] .

هكذا أسبغ المناظر الأندلسي حواره مسحة من الجمال المتأتي من إخراج الأساليب الإنشائية من أغراضها الحقيقية إلى أغراض أدبية ، بما يتماشى مع روح المناظرة و جوّها،حيث أدت وظيفة لا تقل أهمية عن وظيفة الحجج و البراهين .

1- المصدر السابق : 4 : 168
*- الوشل : الماء القليل
2- نفسه : 1 : 170
3- نفسه : 1 : 170
4- النفح : 4 : 165
5- أزهار الرياض : 1 : 125

5-الإيقاع :

احتكر الشعر لزمن الإيقاع الذي لم ينافسه فيه فن آخر، و " الإيقاع هو التناغم الذي يقيمه الفنان بينه و بين المخاطب عن طريـــــــق الموضوع ، هو الموسيقى المنبعثة من داخل الصياغة ، و هو ليس نغمات مكررة فقط ، بل هي تصوير لجو المعنى طلبا للتواصل المستمر بين المتكلم و المخاطب و الموضوع " [1] ، و قـــــد زهد النثر عن ذلك ردحا من الزمن ، إلى أن ظهر ما يعرف بالشعـــــر المنثور ، " و قصيدة النثر في التعريف الإنجليزي و الفرنسي هي قطعة كتابية بطريقة نثرية لكنها متميزة بعناصر تتوافر في الشعر " [2] .

و يمكننا القول: إن هذا النوع من الشعر المنثور يقابلــه النثر الفني ، فهما يتشابهان إلى حد كبير بل " إن الفروق هنا لا تكـــــــاد توجد إذا استثنينا الوزن . من هنا ونتيجة لاستخدام الأساليب الشعرية اقترب النثر الفني من الشعر ، بل أصبح فيما بعد يسمى بالنثر الشعري معبرا بذلك عن العقل و الشعور " [3] .

و المناظرة [*] ، باعتبارها أحد فنـــــون النثر الفني ، لا تختلف كثيرا في شكلها عن القصيدة المنثورة ،و قد أشار إلى ذلك الأستاذ فوزي عيسى، ضاربا المثل بمناظرة السيف و القلم " التي تأثر منظوره النقدي فيها بالدراسات الصوتية المعاصرة فيما يتعلق بجمال النص ، و اكتناز بنيته على المستوى الصوتي ، كما تأثر في تحليلــه

1- البديع تأصيل و تجديد : منير سلطان : 23
2- إشكالية قصيدة النثر : عز الدين المناصرة : 15
3- أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع و الثامن : الطاهر محمد التوات : 30
*- المقصود بعض المناظرات و ليس كلها ، أما المقامة فلا تعدو أن تكون قطعة مسجوعة و ليس هذا مرادنا.

بتجليات الطرح فيما يتصل بقصيدة النثر بوصفها بناء شعريا جديدا " [1] .

و لنقف قليلا أمام هذه العبارات لنتبيّن حقيقة ما ذهب إليه :

لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد من بات يسري إلى المجد

و سُلميْن يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب

ووسيلتين يرشفان العلى فم عاشقـــها

و يبسطان في وصال المنى يد وامقـــها

"لا يخفى على القارئ ما تحققه المجانسة الإيقاعية و الصوتية في تلك الأبنيـــــة المتوازية ، من خلق تموجات نغمية كثيفـــــــة ، بصورة تجعلها أقرب إلى البناء الشعري ، و تؤكد أن ما يسمى بقصيدة النثر ليس بالنموذج المختـــرع ، أو الجديد بل إن له أصولا في النثر القديم مما يشبه نموذج ابن برد بإيقاعاته النغميـــــة ، أو تلويناته الصوتية " [2] ، و لا يظن القارئ أن المقصـــــود بالإيقاع القطع المسجوعة التي تمجها الأذن ، و لكنـــــــه إيقاع من نوع خاص، يبتعد عن سجع المقامات ، و في علمنا المناظرة لا تقوم على الأسجاع كركيزة أساسية لابد منها .

1- في الأدب الأندلسي : أشرف محمود نجا : 207

2- الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي : 121

6-المحسنات اللفظية و المعنوية :

الفرق بين الكلام العادي و الأدبي" يتأتى من القدرة على الصياغـــة المجددة للمعنى، فليست البلاغة إلا إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صـــورة لفظية كما شاع في أوساط النقاد و البلاغيين " [1] ، و قـــد " استقر الأمر على أن وظيفة البديع هي التحسين [2] ، و أن هذا التحسين قد يكون في اللفظ ، و قد يكون في المعنى " .

هذا و تتفاوت مراتب اللغة الأدبية البديعية وفقا لموهبة الأديب و تبعا لإحساسه فهي بين البرودة و الحرارة ، و الصدق و الكذب ، و الاعتدال و الإفراط ،و أصل الحسن في المحسنات اللفظية أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني و ليس العكس [3] .

و حتى و إن لم يكن البديع في المناظرات غاية في حد ذاتها ، فإنه من الضرورة بمكان ، فللكلمة تأثيرها و وقعـــــها ، و قديما كان الشعـر حربا مصاحبة للحرب المسلحة ، و لهذا لم يكن غريبا أن يطرقه المناظـــــرون ، بغض النظر عن نوع المناظرة ، خيالية كانت أم واقعية ، و بضروبه المتنوعة .

الجناس :

الجناس كما يعرفه البلاغيون " هو التشابـه بين لفظين في الإيقاع مع اختلافهما في المدلول ، فإن اتفق اللفظان في نوع الأصـــوات و عددها و ترتيبها و هيئتها الحاصلة من الحركات و السكنات ، كـــان التجانس تاما و الإيقاع متطابقا ، و إن

1- اللفظ و المعنى في التفكير النقدي و البلاغي عند العرب : الأخضر جمعي : 131

2- بلاغة النص : جميل عبد المجيد : 12

3- ينظر : البديع لغة الموسيقى و الزخرف : مصطفى الصاوي الجويني : 18 ، و وشي الربيع بألوان البديع : عائشة حسين فريد : 221

اختلف اللفظان في واحد من الأربعة المتقدمة ، كان التجانس ناقصا و الإيقـــاع مختلفا "[1] ، و من أمثلـــة الجناس قول ابن غرسية : الصهب الشهب ...مجد نجد ... و بجلب العز عن حلب المعز ...صفعا يشارك سفعا...بصر صبر ...[2] ، و غيـــرها من الجناسات التي غصت بها هذه الرسالة، و كـــذا الردود عليها ، و منها قول ابن مسعدة : بناة الصروح و نماة السفوح ..سواس الخنازير و حراس المجازير ..[3] ، و قول القروي : صاحب الشهب الصهب ، والسنة شهباء و الجهام صهباء ..السمر القمر .. الأريضة ذات العرصة العريضة ..[4] ، و من أمثلة الجناس، أيضا، ما ورد في مناظـــــــرة المدن لصفوان ابن إدريس من قبيل : النجوم و السجوم .. حيف و طيف .. أسلاكا و أفلاكا ... روحات و دوحات .. أمري و جمري .. العقـــــوق و الحقوق ..[5] ، و من الأمثلة أيضا ما ورد في مناظرة النثر و الشعر للسرقسطـــي من قبـــيل : مرتقى و منتقى .. اللحون و الصحون .. الجيوب و الغيوب .. مورود و مهرود ..عنانا و سنانا ..[6] ، و كان الجناس حاضرا أيضا في مناظرة النخلـــــة و الكرمة من قبيل : الحجاز و المجاز .. أنهـــارها و أزهارها .. خشبة و عشبة .. حقا و سحقا ..[7] و لا يخفى على أحد ما يحدثه الجناس من إيقاع و تناغـــم ، بين

1- شرح الكافية البديعية : صفي الدين الحلي : 61
2- ينظر : الذخيرة : 3 : 458 و ما بعدها
3- ينظر : رسائل أندلسية : 140 و ما بعدها
4- ينظر : الذخيرة : 3 : 470 و ما بعدها
5- ينظر : نفح الطيب : 1 : 168 و ما بعدها
6- ينظر : المقامات اللزومية : 373 و ما بعدها
7- ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : 4 : 96 و ما بعدها

الكلمات التي تؤدي وظيفة جمالية إلى جانب وظيفتها الإقناعية .

السجع :

كان السجع حاضرا في المناظرة الأندلسية ، و لكنه سجع مقبول غير ممجوج ، كما جاء ، في أكثره ، عفويا غير متكلف ، يقول عبد المنعم خفاجي :" لم تكن لهم تكلفات المشارقة في التهالك على سائر أنواع البديع.. بل يتركون ذلك لعفو الخاطر "[1] ، و قد وظف المناظر الأندلسي السجع بتفاوت ، فنحن نجده حاضرا بقوة في المناظرات الخيالية أكثر منها في المناظرات الواقعية ، و السبب أن الغاية من الأولى إظهار البراعة ، أما الثانية فغايتها الدفاع عن مواقف معينة ، و لعل أجمل السجع هو ذاك الذي تتوافق فيه الكلمات في أكثر من حرف ، كما في رسالة السيف و القلم لابن برد من قبيل : رمته ، أزمته .. الخصلة ، الملة .. نجادي ، وسادي ، و من ذلك أيضا ما ورد في المفاضلة بين قصري المعتمد[2] : الجياد ، الجراد .. القصاد ، الرواد ..فلك ، الملك ، الشرك .. ، و لابن الخطيب[3] مذهبه في السجع الذي عرف به ، فقد كانت " نفسه تطرب للسجع الذي تتعادل فيه مقاطع الكلام "[4] ، و من الأمثلة على ذلك قوله في مناظرة مالقة و الحمراء : مالقة المستمسكة بذمتها الوثيقة المتشوقة إلى أخبارها تشوق المحبة الشفيقة... لكان لي معك حديث طويل ، و احتجاج ينصره نص و تأويل ... بلغني أنك قلت مالقة ليس

1- الأدب الأندلسي التطور و التجديد : 602
2- ينظر : الذخيرة : 1 : 326
3- نفسه : 3 : 494
4- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب : 182

بها زرع ، و بقليل المقام يضيق بها صدر و ذرع[1] ، و من ذلك أيضا قوله يفضل مالقة على سلا : مالقة دار الملك في الروم ، و مثوى المصاعب و القـــــروم ... سكنها ملوك الأدارسة الكرام و الصناهجة الأعلام ، ثم بنو نصر أنصار الإسلام.[2]

وابن الخطيب هنا جعل سجعاته متباعدة متناسقة في الطول،بخلاف من يوظـــف السجعات متتالية ، و تلك طريقة بها تميز .

الطباق :

إذا كان السجع و الجناس مطلوبين في المناظرة لغاية جمالية ، فإن الطباق أكثر طلبة ، بل هو فيها ضروري ، ذلك أن المناظرة تقوم أساسا على نقض كـــــلام الخصم ، و من لهذه المهمة غير الطباق و المقابلة ؟

وعلى سبيل المثال قول القروي : مفاخرك ، مساخرك ..طهروا ، أنجاسكم ...[3]

و في مناظرة الغزالي و ابن رشد : الممكن ، مستحيلا ....لا تنعدم ، تنعدم ..فاعل ، غير فاعل ...أزلي ، غير أزلي ، و في الترجيح بين الصابي و البديع جاء : عفوا ، عدوا ... الهزل ، الفصل ، و في مناظرة المدن لصفوان بن إدريس جاء : يزيدون ، ينقصون ... الجزر ، المد .. المستقبح ، مستحسن .. ، و في رد الشقندي على ابن المعلم : الليل ، النهار..تتكثر ، قليلا ..تتعزز، ذليلا .. الفتاة ، العجـــوز[4][5]

1- أزهار الرياض : 1 : 130-131
2- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : 59
3- الذخيرة : 3 : 470
4- تهافت التهافت : 92
5- نفح الطيب : 168 و ما بعدها

..تفرقوا ، اجتماع .. ، و في تفضيل البهار لابن الباجي جاء : الأفول ، الظهـــور[1]
..أكرمني ، يهني .. وصلني ، يصرمني ...منحني ، يحرمني .[2]

وواضح أن المناظر الأندلسي لم يسرف في توظيف البديع إلا ما كـــــان من قبيل المقامة ،" على أن مدارسة هذا الفن عندهم تدلك على سعة خيال الأدباء ، و حسن ذوقهم ، و ميلهم إلى الأسلوب القصصي المتفرد ، ذلك الأسلـــــوب الذي افتن فيه الأندلسيون كل الافتنان " .[3]

فالمناظر الأندلسي اهتم بشكل مناظراته اهتماما لا يعيبها ، بل على العكس تمامـــا يعزز من قيمتها فهي قبل كل شيء فن له أصوله .

1- نفح الطيب : 4 : 164 و ما بعدها
2- الذخيرة : 2 : 120
3- تاريخ الأدب الأندلسي : مصطفى السيوفي : 154

المبحث الثاني : في الفكرة و المضمون الحضاري :

عني المناظر الأندلسي بديباجة مناظراته عناية غير ممجـوجة ، يترسّـم بذلك خطى السابقين ، على أنه أولى عناية أكبر لمضامينها فهي التي دعته إلى إقامـة حلبة الحجاج و السجال .

و من المرجح الذهاب إلى القول إن الفكرة هي التي صنعت المناظـرة الأندلسية بأشكالها المتنوعة و ليس العكـس ، فلم يكن همّ الأندلسي تنميق الكلمـات ، و انتقاء العبارات بقدر ما كان همه التعبير عن مواقف معينة ، أو نقـل صور من الواقع أو التذمر من الظروف ... هي إشارات مبثوثة في نصوص المناظرات مما يحيل إلى قراءة ثانية لها .

إشارات تاريخية و حضارية:

إن المطلع على بعض المناظرات الأندلسية يقف على إشـارات تاريخية أو فلنقل سجلا تاريخيا ؛ فمناظرات المدن، و بخاصة مناظرة ابن حزم في الـرد على ابن الربيب ، و مناظرة الشقندي في الرد على ابن المعلم ، و مناظرة ابن الخطيب بين مالقة و سلا ، ذات دلالة قوية على التبايـن الحضاري الحاصل بين الأندلس و المغرب ، فالأندلسيون يرون أنفسهم أصحاب فضـل و سبق في الحضارة التي تجاوز صيتها مياه المتوسط ، على حين غلبت البداوة على المغاربـة ، و لكن

ذلك لم يمنعهم من مساجلة إخوانهم في الضفة الأخرى مبدين تحديا واضـــــحا ، و امتعاضا من تلك النظرة الدونية .

و قد عمد الأندلسيون إلى أسلوب المقارنة ليتضح الفـارق الكبير و البون الشاسع بين حضارة الأندلس و بداوة المغرب ، فابن حزم يتعجب من كـــلام ابن الربيب الذي أنكر على الأندلسيين قلة تأليفهم و هم أولى بالسؤال ، فقال :" هذه القيـروان بلد المخاطب لنا ، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفا غير (المغرب في أخبـــار المغرب) ، و حاشا تآليف محمد بن يوسف الـــوراق فإنه ألف في أخبار تيهرت و وهران و تنس و سجلماسة .. و محمد هذا أندلسي الأصل و الفرع "(1) ، و هـــذا الشقندي يتحدى ابن المعلم فيقول : " هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب .. و مثل أبي الوليد الباجي و مثل أبي بكر بن العربي ، و مثل أبي الوليـــد بن رشد الأكبر ؟ .... و هل لكم في علوم اللحون و الفلسفة كابن باجة .. و هل لكم في الطب مثل ابن طفيل .. و مثل ابن زهر ؟ .."(2) ، و كذلك عمد ابن الخطيب إلى أسلـــوب المقارنة بين مالقة التي أكسبها كل فضيلة ، و سلا التي سلبها كـــل مزية ، فجعل المنعة ، و الصنعة ، و البقعة ، و الشنعة ، و المساكن والحضارة و العمارة لمالقة، أما سلا فلا حظ لها من ذلك كله ، و إن كان لها فضل فعلى مثيلاتها و نظيراتـــها فقط .(3)

1-نفح الطيب : 4 : 144

2- نفسه : 4 : 168-169

3- ينظر : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : 57 و ما بعدها

ولكن الأمر اختلف فيما بعد ،و تحديدا بعد أن اختلت أحوال الأندلس و تضعضعت. فوجدنا الأندلسي الذي كان يتغنى ببلاده و يفضلها على سائر البقاع ، يتغنى بـــها و لكن ليخطب ودّ أمراء المغرب ، كما فعل صفوان بن إدريس الذي أنشأ مناظرة بين مدن الأندلـــــس ، و أدار صراعا بينها و تخاصما من أجل أن تحظى بقرب الأمير عبد الرحمن بن علي .(1)

فكما عبرت المناظرة الأندلسية عن اعتزاز الأندلسيين ببلادهم و حضارتهم أيـــام سعودهم،كشفت أيضا عن تغير تلك النظرة بعد أن انفلتت زمام الأمور من أيديهم ، نستثني من ذلك ابن الخطيب الذي ظل وفيا لبلاده ، حتى و هو في بلاد المغـرب . و لم يقتصر حوار الأندلسيين مع المغاربـــــة فحسب ، بل تعداه إلى بلاد العجم ، فهذا الراهب الفرنسي يراسل المقتدر بغية تنصيره ،و يرد عليه الباجي بالأسلـوب نفسه ، فحوار الحضارات كان قائما ، و كانت المناظـــرة أسلوبا من أساليب ذلك التبادل الحضاري و الفكري بين شعوب المتوسط .

النزعة الدينية :

كشفت المناظرة الأندلسية أيضا عن نزعة الأندلسي الدينية ، و استماتته من أجل الدفاع عن معتقده ، فهو يرى نفسه حامي الحمى في هذه البلاد التي يتربص بـــها

1-ينظر : 31 من هذا البحث

الأعداء من كل جانب يهودا كانوا أم نصارى ، و قـــــــــد عمد إلى الرد عليهم و محاربتهم بمثل أساليبهم ، السيف بالسيف و اللسان باللسان ، و كانت المناظـــرة واحدة من الوسائل الناجعـــــــة في ذلك متخذة أشكالا عدة ، فجاءت تارة بشكل مباشر و صريح كما كان شأن مناظرة الباجي و الراهب الفرنسي ، و كذلك رد ابن حزم على ابن النغريلة [1] ، و متوسلة بالرمز الصوفي تارة أخـــــرى ، فالششتري أراد أن يبين فضل الإسلام على النصرانية من خلال حواره مع القس و مقايضتـــه الخمرة بالخرقة [2] .ليس هذا فحسب، فقد عمد الفقهاء إلى أسلوب المناظرة للرد على أصحاب بعض المذاهب ، كما فعل الباجي مع ابن حزم من جهة ، و ابن حزم مع المعتزلة من جهة ثانية ، و المالكية مع الفاطميين من جهة ثالثة [3] ، إذ لا يوجد أنجع من المناظرة لفضح مزاعم الخصم أمام الملأ ، وزعزعة شعبيته ، و رد كيده .

و لما أوقد ابن غرسية نار الشعوبية [4] ، لم يكن من حل سليم و حكيم سوى الرد عليه بالمثل ، فهو لم يضرب الإسلام كما ادعى و إنما اقتصرت حربه على العـــرب ، و لو أن أمرا كهذا وقع في عهد بني أميـــــة لكانت حرب بسوس ثانية كأقل شيء يفعله المتعصبون وقتها ، و لكن الذين قامـــوا بالرد علي ابن غرسية كانـــــوا في منتهى الحكمة ، فردوا مزاعمه واحدة واحدة ، دون المساس باستقرار الأمة ،

1-ينظر : 43 من هذا البحث
2- ينظر : 38 من هذا البحث
3-ينظر : 26 من هذا البحث
4-ينظر :54 من هذا البحث

لأن رسالة كتلك لو وجدت من ينفخ فيها لهلكت البلاد و العباد[*] ، فالمناظرة هـــــنا كانت سيفا معنويا قطع لسان ابن غرسية و ألجمه دون إراقة قطرة دم .

إثبات الهوية الثقافية الأندلسية :

أبى طيف المشرق إلا أن يلازم الأندلسي ، فمهما استنفر أفكاره و استثار خياله فهو في نظر المشارقة لا يعدو أن يكون مقلدا أو متبعا ، و قد كان هذا الأمـــــر حاصلا بالفعل و لكن في مرحلة" النشوء المبكر للأدب الأندلـــــسي إذ سرعان ما انحسر ظل المشارقة بعد أن التفت الأندلسي إلى بيئته مستلهما منها أعذب المعاني و الأشعار"[1]، فانقلب حاله من التقليد إلى التحدي و المجاراة ، و من ذلك معارضة ابن شهيد للبحتري[2] ، و معارضة ابن زيدون للمتنبي ... و المعارضة هنا اتـخذت شكل مناظرة إذا نظرنا إليها من جانب الرغبة في التفوق على الآخر .

و ممن شارك في هذه الحركة ، ابن رشد إذ تصدى للغزالي[3] الذي شغل الدنيا بكتابه " تهافت الفلاسفة" ، فكان " تهافت التهافت " أبلغ رد و أقـــــواه من أندلسي على عمود من أعمدة المشرق .

و مناظرات الأزهار التي أبدع فيها الأندلسيون تحتمل قراءة من عدة زوايا[4] ، و من

---

*شبيه بهذا ما فعلته قصيدة أبي إسحاق الإلبيري التي ألبت العامة على اليهود ، بعد كتاب ابن النغريلة المسيء للقرآن .

1- ينظر : تيارات النقد الأدبي في الأندلس :مصطفى عليان عبد الرحيم :17

2- ينظر : 87 من هذا البحث

3-ينظر : 95 من هذا البحث

4-ينظر : 124 من هذا البحث

أبرزها تفضيل ابن برد الورد على سائر الأزهار بما فيها النرجس الذي طالما تغنى به شعراء المشرق ، و على رأسهم ابن الرومي الذي هجا الورد مقابل الثناء على النرجس ، فكان رد ابن برد بالمثل ، و من زاوية أخرى فإن هناك من أدباء الأندلس من فضلوا النرجس مجاراة لابن الرومي ، و قد أفاضوا في وصفه و تفضيله نثرا لا شعرا على خلاف العادة ، فقد كان للأندلسيين " كلف شديد بالظهور على أهل المشرق " (1) باعتبارهم الأنموذج الذي به يقتدى ، بل راموا أبعد من ذلك فرض السلطة الأدبية و العلمية على بلاد المغرب أيضا ، و يصدق هذا مفاخرة الشقندي بشعراء الأندلس إذ قال – و المخاطب ابن المعلم – " و هل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد ...و مثل ابن زيدون ..و ابن وهبون ..و هل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي :" هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام "..." (*) (2) ، و مضى في ذكر الشعراء متمثلا بأشعارهم التي عارضوا بها المشارقة حينا و تفوقوا عليهم حينا آخر ، فماذا قدم شعراء المغرب ، و هل تجرؤوا على الوقوف الند للند مع شعراء المشرق كما فعل الأندلسيون ؟ إن الأندلسي كما نرى يرفض التبعية لأي كان ، و يسعى لفرض وجوده على بلاد المغرب و المشرق على حد سواء.

1- الموازنة بين الشعراء : زكي مبارك : 221

*ينظر يتيمة الدهر : 2 : 103

2-نفح الطيب : 4 : 169 و ما بعدها

الأبعاد السياسية :

إن المطلع على بعض المناظرات الأندلسية يقف على الواقع السياسي الذي كانت تعيشه البلاد وقتها ، مماليك منقسمة ، و ملوك متناحرون ، و أدباء على البـــلاط يتنافسون ، فمناظرة السيف و القلم كشفت رغبة ابن برد في إنصاف الملك طبقـة الكتاب ، و تقريبهم منه على غرار طبقة الجنود ، و مناظرات الأزهـــــار أيضا كشفت عن رغبة أصحابها في التقرب من ملوك الطوائف (1) ، و لم يحـــــد أبو جعفر الداني عن الهدف نفسه في المفاضلة بين قصري المعتمد بن عباد ، فلأمر ما خشي أن يستبدله الملك العبّادي كما استبدل القصـــــر ، فراح يعدد محاسنه و يثني عليه فالقديم هو الأصل و إن غيّر ، و مضت المناظرة على هذا النسق تلبـــــــــس ثوب الأدب و تصبو إلى تحقيـــــق مآرب سياسية ، فصفـــوان بن إدريس حين عقد مجلسا بين المدن الأندلسية و جعلها تتخاصم بأسلوب شيق جذاب ، لم يكـــــن همه تحقيق سبق أدبي و إنما كانت غايته التقرب من السلطان الموحدي (2) ، و الرغبة نفسها نجدها عند المالقي الذي أنشأ مناظرة بين الحمـــــــراء و مالقة ليرجح كفة الأخيرة (3) ، على اعتبار أنه منها ،فيتفضل السلطان بزيارتها و لم لا الاستقرار بها.

و لئن عكست تلك المناظرات أطماع أصحابها السياسية ، إلا أننا وجدنا الشقندي

1-ينظر :124 من ها البحث و ما بعدها
2-ينظر :62 من هذا البحث و ما بعدها
3-ينظر :69 من هذا البحث و ما بعدها

بخلافهم جميعا ، فحضوره في مجلس أبي يحي ابن أبي زكريا صاحب سبتة[1] ، لم يمنعه من الانتصار لبلاده حين رفع ابن المعلم الطنجي التحدي حول أيهما أفضل: الأندلس أم بر العدوة ؟ فلم يثنه الخوف من السلطـــــان ، و لم يدفعه الطمـــع في العطاء إلى كبت مشاعره الأندلسية و إظهار الولاء للمغرب ، بل ناظر خصمه كأحسن ما تكون المناظرة حججا و أدلة و ثقة في النفس، و كأنه في بلاط المعتـمد أو المقتدر، لا في حضرة الأمير السبتي .

الإمكانات الأدبية و النقدية :

كشفت بعض المناظرات عن رغبة أصحابها في إظهار التميز و التفـــوق من الناحية الأدبية و اللغوية و النقدية ، فمناظرة السيف و القـــلم لابن برد دلت على قدرة صاحبها و تمكنه من حيث انتقاء الألفاظ و العبارات و المقاربة في التشبيـــه فضلا عن الاقتباس و التضمين ، لدرجة بدت فيها أشبه باليتيمة العصمـــاء التي لم يسبق إليها أحد ، حتى إن بعض الكتاب المتأخرين نسجوا على منوالها إلى درجة التطابق أحيانا على غرار ما فعل القلقشندي[2] .

ونجد من جانب آخر بعض المناظرات تتخذ طابعا نقديا لما أظهـره أصحابها من تمكن في هذا الباب ، فالبطليوسي في رده على ابن العربي بـــدا متمكنا في سعة

1-ينظر : 78 من هذا البحث

2- ينظر : صبح الأعشى : 14 : 263 و ما بعدها

ثقافته و معرفته بكلام العرب و الشواهد التي استطاع بها دحض حجج منتقـــده .(1)

و غير بعيد عن هذا رد أبي الأصبغ على ابن سيدة ، ففيـــه احتج بشواهد قرآنية و بكلام السلف و العرب على ما ذهب إليه من أقوال في رسالته التي كانت محل الخلاف حتى إنه أظهر خصمه ،في الأخير، في مظهـــــر الجاهل بأمور اللغة و غريبها . و لم تخل رسالتا الترجيح بين الصابي و البديع لابن أبي الخصال(2) وصاحب بونت ، من إشارات نقدية كالفصاحة و الإسهاب و حسن الاختراع(3) ، و لعل أهم نقطة أثارها الصابي تقليد الأندلسيين للمشارقة في باب التكلـــف الذي يمثله البديع.

و بقدر ما عبـــرت معارضات الشعـــــراء الأندلسيين للمشارقة عن اعتزازهم بهويتهم، بقدر ما أظهرت إمكانات هائلة كانت مدفونة تحت غطاء التقليد و التبعية، فابن زيدون مثلا عارض عميد شعـــــراء المشرق أبا الطيب المتنبي ، بطريقـــة احترافية ؛ فجعل فاتحة قصيدة المتنبي " بم التعلل لا أهل و لا وطـــــن " خاتمة قصيدته التي عارضه بها، بحيث يمكن قراءتها عكسيا من البيت الأخير فصاعدا .(4)

و لا يخفى على أحد أن هذه المفاضلات التي كانت تجري سواء بين الأندلسييـــن

1-ينظر : 108 من هذا البحث و ما بعدها
2-ينظر : 106 من هذا البحث و ما بعدها
3-ينظر : 102 من هذا البحث و ما بعدها
4-ينظر :98 من هذا البحث و ما بعدها

و المشارقة ، أو بين الأندلسيين أنفسهم أسهمت في " تقدم النقد تقدما ظهرت ثمرته فيما كان يعني به العرب إذ ذاك من العلوم و الفنون "[1] .

و خلاصة القول إن المناظرة الأندلسية جمعت بين جلال المعنى و جمال المبنى ، فهي بخلاف الفنون الأخرى التي ينشئها الأديب للتسلية أو إظهار القدرات الأدبية ، تتبنى قضايا مهمة و تصوغها في حلة جميلة ، و هي بذلك- إذا ما استثنينا المناظرات الدينية و المذهبية - تتفوق على المناظرة المشرقية التي أنشأها أصحابها لغاية أدبية بحتة .

1- الموزانة بين الشعراء :221

خاتـــمة

و بعد ، فإن البحث قد انتهى إلى نتائج نجملها فيما يأتي :

*- إن العصر الذهبي للمناظرة الأندلسية بشتى أنواعها هو عصر الطوائف بما يعني القرن الخامس الهجري و ما بعده ، فلا يخفى على أحد ما تمخض عنه هذا العصر من أحداث غيرت مجرى التاريخ الأندلسي ، و قد كانت المناظرة حاضرة بقوة ،مما جعلها سندا تاريخيا مهما في تلك الفترة ، هذا و دون أن نغفل فترة الحجابة التي شهدت كذلك مناظرات عدة احتضنتها مجالس المنصور بن أبي عامر .

*- تصنف المناظرات الخيالية ضمن المناظرات الأدبية ، إلا أنها تختلف عنها من حيث أغراضها و أهدافها.

*- اتفقت المناظرات الخيالية على غرض يكاد يكون واحدا هو التقرب من الملوك و الحكام .

*- أسست بعض المناظرات الخيالية بشكل أو بآخر لما يعرف بالشعر الحر.

*- تعد المناظرات الخيالية الإرهاصات الأولى لظهور الفن القصصي و المسرحي في الأدب العربي ، لتوافق خصائصها مع شروط القصة و المسرحية ، كعنصر القص و الحوار و التشويق و العقدة و الحل .

*-عكست المناظرات الإقليمية شدة تعلق الأندلسي ببلاده التي لم يكن يرى لها

مثيلا على وجه الأرض، و إن باعدت بينه و بينها الظروف فإن فؤاده بقي متعلقا بها ، ذلك ما رأيناه عند لسان الدين بن الخطيب في تفضيل مالقة على ســـــــلا .

*- كشفت المناظرات المذهبية عن شدة تعلق الأندلسي بدينه ، و خوفه عليه من الفرق الضالة .

*- كانت المناظرة في كثير من الأحيان أمضى سلاح يمتشقـــه المناظر لإسكات خصمه و تأليب الناس عليه .

*- دفاع الأندلسي ،بما أوتي من قوة ،عن دينـــــه ، فقد ناظر غيره من أصحاب الديانات الأخرى ، و استمر في ذلك بعد السقوط الفعلي للأندلس ،إذ واصل بعض الموريسكيين التناظر مع غيرهم من القسيسين بخاصة .

*- شغلت المناظرة الدينية الحيز الأكبر بالمقارنـــة مع باقي المناظرات ، حتى إن بعض المناظرات الخيالية كشفت عن توجـــــه ديني خالص لصاحبها كما هو شأن مناظرة الكرمة و النخلة للمالقي ، التي كـــــــان الهدف منها تفضيل الإسلام على النصرانية ، و إثبات وجوده و ترسخ جذوره في الأندلس .

*- تجاوزت المناظرة الأندلسية الحدود الإقليمية إلى المتوسطية ، و بخاصـــة تلك المناظـــــرات التي جرت بين الأندلسيين و المغاربة و المشارقـــة من جهـــة ، والأندلسيين و المسيحيين في فرنسا و البرتغال من جهة أخرى .

*- شكلت الأندلس أرضا خصبة لما يعرف اليوم بحوار الأديـــــــــان أو حوار الحضارات ، فعلى أرضها أقيمت أشهر المناظرات بين الأديان الثلاث : الإسلام ، المسيحية و اليهودية .

*- ضياع الكثير من المناظرات الأندلسية سواء الخيالية أو الواقعية ، فنحن نجـــد إشارات إلى وجود العديد منها في بعض المصادر ، إلا أنه لم يصلنـــا منها شيء ، أو لعلها لا تزال حبيسة دور المخطوطات .

*- يغلب الظن على أن هناك عددا لا يستهان به من المناظـــرات الفلسفية التي تم طمسها ، نظرا لتحرز الأندلسيين من هذا العلم .

*- ابتعاد الأندلسي عن التعقيد و التعمق في مناظراته،فجاءت بسيطة غير معقدة أو متفلسفة .

*- ظهور الأندلسي في بعض المناظرات حتى إنه بز غيـــــره من المشارقة ، لاسيما مناظرة السيف و القلم لابن برد ، التي تأثر بها الكثيرون كابن الـــوردي و ابن نباتة و القلقشندي .

*- حقق المناظـــــر الأندلسي أهدافا مزدوجة من خلال مناظراته ، لاسيما الخيالي منها ، فمناظرات السيف و القلم ، و الأزهار، و المـــدن ، و الكرمة والنخلة مثلا رام أصحابها تحقيق أهداف سياسية مبطنة داخل عمـــل أدبي مميز بديباجته ، و جمال صياغته .

*- أسهمت المناظرة الأندلسية في إثراء بعض الفنون و الميادين ، كالمسائل الفقهية و الأدبية و النقدية من خلال تلك الآراء التي كانـــــــت تصدر عن أصحابـــــها أثناء السجال و الجدال ، و محاولة كل طرف إفحام خصمـــه و الظهور عليه .

*- و على خلاف الفنون النثرية الأخرى التي رُمي فيها الأندلسي بتقليد نظيـــــره المشرقي ، تبقى المناظرة الأندلسية نسيج وحـــدها ، فنحن لا نكاد نجد فيها بصمة المشارقة ، و السبب واضح و هو أن المناظرة تقوم على المحاججة و هذه الأخيرة لا يعقل أن تقلد أو تحاكى ،اللهم إلا في القليل النزر على غرار المناظرات الأدبية .

هذا فيض من غيض ،ولعل الكثير قد فاتني، فأدب عمره ثمانية قرون من الزمن لا يمكن أن تختزله وريقات ، و يحدوني أمل كبير أن يواصل المسيـــــرة بعدي الغيورون على التراث الأندلسي الثر، و بخاصة الفنون النثرية التي لا تزال بحاجة إلى نفض الغبار عنها ، و رد الاعتبـــــــار إليها بعد أن وسمت قرونا من الزمن بالتبعية المطلقة للمشرق ، و ما المناظـــــــرة الأندلسية إلا دليل على نضج الفكر الأندلسي القادر على الخلق والإبداع بعيدا عن النمـــــــوذج المشرقي المحتذى .

قائمة المصادر و المراجـــع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .

- **الإتقان في علوم القرآن** : جلال الدين السيوطي ، دار الندوة الجديـــــدة، بيروت ، 1951
- **إثبات نبوة محمد صلى الله عليه و سلم :** أحمد بن عمـــر القرطـــبي، تح: أحمد آيت بلعيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .دط ، دت
- **أثر القرآن الكريم في الشعر العربي – دراسة في الشعر الأندلسي منذ الفتح و حتى سقوط الخلافة** : محمد شهاب العانـــــــــــي ، دار دجلة ، ط1 ، عمان ، 2008
- **الإحاطة في أخبار غرناطة** : لسان الدين بن الخطيب – تح : محمـــــــد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، ط4 ،القاهرة ، 2001
- **إحكام الفصول في أحكام الأصول** : أبو الوليد الباجي – تح : عـــــــبد المجيد التركي ، دار الغرب الإسلامي ،ط1 ، بيروت ، 1986
- **الإحكام في أصول الأحكام** : ابن حزم الأندلسي ، دار الاعتصـــــــام ، القاهرة . دط ، دت
- **الأدب الأندلسي بين التأثر و التأثير :** محمد رجب البيومي ، إدارة الثقافة و النشر بالجامعة ، السعودية ، 1980
- **الأدب الأندلسي – التطور و التجديد** : محمد عبد المنعم خفاجـــــي ، دار الجيل ، ط1 ،بيروت ، 1992
- **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة** : أحمد هيكـــــــل ، دار المعارف ، ط7 ،مصر ، 1979

- **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة** : منجد مصطفى بهجت – مديرية دار الكتب ، جامعة الموصل ، 1988

- **الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه** : مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1974

- **أدب الحوار و المناظرة** : علي جريشة ، دار الوفاء ، ط1 ، مصر ، 1989

- **أدب الاختلاف في الإسلام** : طه جابر فياض العلواني ، إصدارات رئاسة المحاكم و الشؤون الشرعية ، ط1 ، قطر ، 1405 هـ

- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري : فايز عبد النبي القيسي ، دار البشير ،ط1، الأردن ، 1989

- أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع و الثامن : الطاهر محمد توات ، ديوان المطبوعات الجامعية . دط ، دت

- **أدب المجالسة و حمد اللسان و فضل البيان و ذم العي و تعليم الإعراب** : الحافظ ابن عبد البر ، تح : سمير حلبي ، دار الصحابة للتراث ، ط1 ، مصر 1982

- **أدب المغاربة و الأندلسيين** : محمد رضا الشبيبي – دار اقرأ،ط2 ، لبنان، 1984

- **الأدب المقارن** : محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط5، دت

- **أزهار الرياض في أخبار عياض** : شهاب الدين المقري ، لجنة نشر التراث الإسلامي ، المغرب / الإمارات .دط ، دت

- **أسرار البلاغة** : عبد القاهر الجرجاني ، راجعه : عرفان مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .دط ، دت

- **الإسلام في الغرب قرطبة عاصمة العالم و الفكر** : روجيه غـــــارودي تر : ذوقان قرقوط ، ط1 ، جوهرة الشام ، 1995
- **الإسلام في المغرب و الأندلس** : ليفي بروفنسال ، ترجمة : محـــــمود عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمي – راجعه : لطفي عبد البديع ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1990
- **إشكالية قصيدة النثر** : عز الدين المناصرة ، مطبعة الجامـــــــعة الأردنية ، ط1 ، عمان ، 2002
- **أصول الحوار و آدابه في الإسلام** : صالح بن عبد الله بن حميد ، دار المنارة ط1 ، جدة ، 1994
- **الأصول و الفروع** : ابن حزم ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت ، دط ، دت
- **الأعلام** : خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين : ط14 / 1999
- **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد و الأوهام و إظهار محاسن الإسلام** : محمد بن أحمد القرطبي ، تح : أحمد حجازي السقا ، دار التـراث العربي ، القاهرة . دط ، دت
- **آفاق التناصية المفهوم و المنظور** : محمد خير البقاعي ، الهيئـــــة المصرية العامة للكتاب ، 1998
- **أمالي القالي** : القالي علي بن القاسم ، دار الكتب الـــــمصرية ، دط ، دت
- **الإمتاع و المؤانسة** : أبو حيان التوحيدي – شرح : صلاح الديـــــن الهواري ، دار الهلال ، ط1 ، بيروت ، 2002
- **الأندلسيون المواركة** : عادل سعيد بشتاوي ، المقطم للنشـــــــر و التوزيع القاهرة ، 1983
- **البديع تأصيل و تجديد** : منير سلطان ، منشأة المعارف الإسكندرية 1986

- **البديع في وصف الربيع :** أبو الوليد إسماعيل الحميري ، تح : هنري بريس، مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 ، مصر ، 2002
- **البديع لغة الموسيقى و الزخرف** : مصطفى الصاوي الجـــــــــويني ، دار المعرفة ، الإسكندرية ، 1993
- **برنامج شيوخ الرعيني :** أبو الحسن علي بن محمد الإشبيلـــــــــي الرعيني ، تح : إبراهيم شبوح ، وزراة الثقافة ، دمشق ، 1962
- **بلاغة النص** : جميل عبد المجيد ، دار عريب للنشر ، القاهرة .دط ، دت
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب** : ابن عذاري المراكشـــــي دار الثقافة ،ط2، بيروت ، 1980
- **البيان و التبيين** : أبو عمرو عثمان الجاحظ ، تح : عبد الســـــــــلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط7 ، القاهرة ، 1998
- **تاريخ ابن خلدون** : العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العـرب و العجـم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبـــر :عبد الرحمـــن بن خلدون ، تح : أبو رجب الكرمي ، بيت الأفكار، القاهرة ، 2000
- **تاريخ آداب العربية** :مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتـــــاب العربي ط2 ، بيروت ، دت
- **تاريخ الأدب الأندلسي** : مصطفى السيوفي ، الدار الدوليـــــــــة للاستثمارات الثقافية ، ط1 ، القاهرة ، 2008
- **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين** : إحسان عـــباس دار الشروق ،ط1 ، الأردن ، 2001
- **تاريخ الأدب العربي** : حنا الفاخوري – المكتبة البوليسيـــــــة ،ط6، لبنان . دت

- **تاريخ الأدب العربي في الأندلس** : إبراهيم علي أبو الخشـــــــــب ، مطبعة المدني ، القاهرة . دط ، دت

- **تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية** : محمود مقـــــداد ، دار الفكر المعاصر ، ط1 ، لبنان – سوريا ، 1993

- **تاريخ الفكر الأندلسي** : آنخيل جنالث بالنثيا – ترجمة : حـــــــــسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، ط1 / 1955

- **تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية** : عبده الشمالي ، دار صـــــــادر ، ط4 ، بيروت ، 1965

- **تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا** : أبو الحسن بن عبد الله النباهي المالقي ، تح : لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة ، ط5 ، بيروت ، 1983

- **تاريخ النقائض في الشعر العربي** : أحمد الشايب ، ط3 ، مكتـــــــبة النهضة المصرية ، 1998

- **تاريخ النقد الأدبي في الأندلس** : محمد رضوان الداية – مؤسســـــة الرسالة ، ط2 / 1981

-**تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى القرن الرابع الهجري** : مـــحـمـــد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية . دط ، دت

- **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب** : القـــــــــسّ انسلم تورسيدا الملقب بعد الله الترجمان الأندلسي ، تح : محمود علي حماية ، ط3 ، دار المعارف ، مصر، دت

- **التصوف الأندلسي** : محمد العدلوني الادريسي – دار الثـــــقافة ، ط1 الدار البيضاء ، 2005
- **التصوف و الفلسفة** : ولترستين – ترجمة : إمام عبد الفتاح ، مكتـــبة مدبولي ، القاهرة ، 1999
- **التضمين في العربية** : أحمد حسن حامد ، الدار العربية للعلـــــــوم ، ط1، لبنان ، 2001
- **تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي** : أنيس المقدســـــــــي – دار العلم للملايين ، ط7 ،بيروت ، 1982
- **التعريفات** : الشريف الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، ط1،بيروت ، 1983
- **التعامل مع الآخر** : إبراهيم بن محمد الحمد المزيني ، مركز الملـــــك عبد العزيز للحوار الوطني ، ط1 ، الرياض ، 2005
- **التفاعل الثقافي بين المشرق و المغرب في آثار ابن سعيد المغربي و رحلاته المشرقية و تحولات عصره** : محمد جابر الأنصاري ،دار الغرب الإسلامي ط1 ، بيروت ، 1992
- **أبو تمام و أبو الطيب في أدب المغاربة** : محمد ابن شريفـــــــــــة ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1986
- **تهافت التهافت** : أبو الوليد بن رشد – تقديم : أحمد شمس الديـــــن ، دار الكتب العلمية ، ط1،بيروت ، 2001
- **تهافت الفلاسفة** : أبو حامد الغزالي ، تح : سليمان دنـــــــيا ، دار المعارف ، ط6 ، مصر .دت
- **التوابع و الزوابع** : ابن شهيد الأندلسي – تح : بطرس البستانـــــــي ، دار صادر ، بيروت . دط ، دت

- **تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري** : مصطفى عليان عبد الرحيم ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، بيروت ، 1984
- **ثلاث و ثائق في محاربة البدع و الأهواء في الأندلس** – مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى : أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي – تح : محمد عبد الوهاب خلاف ، المركز العربي الدولي للإعلام ، ط1 ، القاهرة 1981 .
- **ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية** : حمدي عبد المنعم محمد حسين ، مؤسسة شباب الجامعة ، 1993
- **الجدل الديني بين المسلمين و أهل الكتاب بالأندلس** : خالد السيوطي ، دار قباء للطباعة و النشر ، القاهرة ، 2001
- **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس** : أبو عبد الله الحميدي – تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ، ط2، دار الكتاب اللبناني ، 1983
- **جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين و الموحدين** : محمد بن إبراهيم بن صالح الحسين أبا الخيل ، دار أصداء المجتمع ، ط1 ، السعودية ، 1998
- **الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطليوسي** : حسن عبد الرحمن علقم ، دار البشير، ط1 ، عمان ، 1988
- **جواهر الأدب في الأدبيات و إنشاء لغة العرب** : السيد أحمد الهاشمي – دار الفكر ، لبنان ، 2005

- **الخيال و الشعر في تصوف الأندلس** : سليمان العطار – دار المعارف ط1 ، مصر ، 1981

- **دراسات أندلسية في التاريخ و الحضارة** : كمال السيد أبو مصطفى مركز الإسكندرية للكتاب ، 1997

- **دراسات فنية في الأدب العربي** :عبد الكريم اليافي – ط1، دمشق ،1963

-**دراسات في أدب المغرب و الأندلس** : فوزي عيسى – دار المعرفة الجامعية ، 2000

- **دراسات في الأدب الأندلسي** : إحسان عباس ، وداد القاضي ، ألبير مطلق الدار العربية للكتاب ،ط2 ، ليبيا / تونس ، 1976

-**ديوان أبي إسحاق الإلبيري** – تح : محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر/ بيروت ، دار الفكر/ دمشق ، ط1 / 1991

-**ديوان البحتري** : تح : بدر الدين الحاضري ، دار الشرق العربي ،بيروت 1999

- **ديوان أبي تمام** : تقديم : محي الدين صبحي ، دار صادر ،ط1،بيروت 1997

-**ديوان جرير** ، تح : نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف ، ط3 ، القاهرة، دت

- **ديوان ابن حزم الظاهري** : تح : صبحي رشاد عبد الكريم ،دار الصحابة للتراث مصر ، دط ، دت

- **ديوان أبي الحسن الششتري** – تح : علي سامي النشار ، دار المعارف ط1 ، الإسكندرية ، 1960

- **ديوان ابن خفاجة** – تح : سيد غازي ، منشأة المعارف ،ط2 ، الإسكندرية ، دت .

- **ديوان ابن الرومي** : شرح : أحمد حسن بسج – دار الكتب العلميـــة ، ط1 ، لبنان ، 1994
- **ديوان ابن زيدون** : تح : علي عبد العظيم ، دار نهضة مصر ، القاهـــرة ، 1957
- **ديوان الشافعي** – تح : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ط2، القاهرة ، 1975
- **ديوان ابن شهيد** : محمود علي مكي ،تح : يعقوب زكي ، دار الكتـــاب العربي ، دط ، دت .
- **ديوان كعب بن زهير** : تقديم : محمد يوسف نجم ، دار صادر ، ط1 ، بيروت 1995
- **ديوان المتنبي** ، دار الجيل ، بيروت . دط ، دت
- **ديوان المعتمد بن عباد** – تح : رضا الحبيب السويسي ، الدار التونسية للنشر 1975
- **ديوان النابغة الذبياني** – مطبعة الهلال بالفجالة ، مصر ، 1911
- **ديوان أبي نواس** : تح : اسكندر آصاف – دار العرب للبستاني ، القاهرة ، دط ، دت .
- **ديوان يحي بن حكم الغزال** : تح : محمد رضوان الداية ، ط1 ، دار الفكـــر المعاصر بلبنان ، دار الفكر بدمشق ، 1992
- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** : ابن بسام الشنتريني – تح : سالـــم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ،ط1 ، لبنان ، 1998

- **الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة :** أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، ط1 ،بيروت 1973

- **رحلة أفوقاي الأندلسي ، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب : أحمد** بن قاسم الحجري أفوقاي ، تح : محمد رزوق ، دار السويدي للنشر و التوزيع بالإمارات ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ببيروت ، ط1 / 2004

- **الرد على النحاة :** ابن مضاء القرطبي ، تح : محمد إبراهيم البنا،دار الاعتصام ط1 ، 1979

- **رسائل ابن حزم الأندلسي** – تح : إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ط1 / 1981

-**رسائل الجاحظ** : أبو عمرو عثمان الجاحظ – شرح : محمد باسل ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، لبنان ، 2000

- **رسائل أندلسية** : فوزي عيسى ، منشأة المعارف ،ط1 ،الإسكندرية ، 1989

- **رسائل و مقامات أندلسية** : فوزي عيسى ، منشأة المعارف . دط ، دت

- **الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي** : فوزي عيسى ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، 2002

- **الرمز الشعري عند الصوفية :** عاطف جودة نصر ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، 1998

- **الروض المعطار في خبر الأقطار** : محمد بن عبد المنعم الحميري ، تح : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1982

- **زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر** : أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي – دار الرائد العربي ، لبنان ، 1970

- **السخرية في النثر العربي ، من الجاهلية حتى القرن الرابع الهجري : منى** الصلح ، منشورات جامعة بيروت الأمريكية 1952
- **شرح الكافية البديعية** : صفي الدين الحلي ، تح : نسيب بشتاوي ، ديـــوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر . دط ، دت
- **شرح المعلقات السبع** : أبو عبد الله الزوزني ، المكتبة العصرية ، الجزائر دط ، دت
- **الشعر الأندلسي في عصر المرابطين** : فوزي عيسى ، دار الوفاء ، ط1 ، ط1 ، الإسكندرية ، 2007
- **شعر التصوف في الأندلس** : سالم عبد الرازق سليمان المصـــــري ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2007
- **الشعر الصوفي ـدراسة موضوعاتية في شعر الششتري** : بومدين كـــروم دار الأديب ، وهران ، 2007
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** : أبو عباس القلقشندي – شرح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دط ، دت
- **صحيح البخاري** : محمد بن إسماعيل البخاري – دار الحديث ، القاهرة ،2004
- **الصراع الأدبي مع الشعوبية** : محمد علي الخطيب ، دار الحداثة ، ط1 ،بيروت 1983
- **صورة الأرض** : أبو القاسم ابن حوقل النصيبي ، دار مكتبة الحياة ، لبنان 1992
- **ظهر الإسلام** : أحمد أمين – دار الكتب العلمية ،ط2 ، لبنان ، 2007
- **العلاقات بين الأمويين و الفاطميين في الأندلس و الشمال الإفريقـي : فتحي** زغروت ،دار التوزيع و النشر الإسلامية ،ط1، القاهرة ، 2006

- **العلاقات بين المغرب و الأندلس في عصر الخلافة الأموية** : ساميـــــة مصطفى مسعد ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ط1 ، مصر ، 2000
- **علم الجذل في علم الجدل** : نجم الدين الحنبلي – تح : قولفهارت هاينريشس، مؤسسة الأبحاث العلمية الألمانية ، الأردن ، 1987
- **العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده** : ابن رشيق القيرواني، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط5 ، لبنان ، 1981
- **عنوان المرقصات و المطربات** : علي بن موسى بن سعيد المغربي ، جمعه : مصطفى سلامة النجاري ، جمعية المعارف ، 1286 هـ
- **غابر الأندلس و حاضرها** : كرم علي ، المطبعة الرحمانية ، ط1 ،مصر، 1923
- **الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي** : فاطمة طحطح ، كليـــة الآداب ، ط1 ، الرباط ، 1993
- **فواصل الآيات القرآنية** : كمال الدين عبد الغني المرسي ، المكتب الجامعـــي الحديث ، ط1 ، الإسكندرية ، 1999 .
- **فصل المقال فيما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال** : ابن رشد ، تح : محمـد عمارة ، دار المعارف ، ط3 ، مصر، دت
- **الفصل في الملل و الأهواء و النحل** : ابن حزم الأندلسي – تح : محمد إبراهيم نصر ، عبد الرحمن عميرة – دار الجيل ، لبنان ، دط ، دت
- **فضائل الأندلس و أهلها – ابن حزم و ابن سعيد و الشقندي** : صلاح الديـــن المنجد ، دار الكتاب الجديد ، ط1 / 1968
- **فقه اللغة و سر العربية** : أبو منصور الثعالبي – تح : فائز محمد ، دار الكتاب العربي ،ط1 ، لبنان ، 2006

- **فقهاء المالكية – دراسة في علاقاتهم العلمية في الأندلس و المغـــــرب :** علياء هاشم ، جامعة الموصل ، العراق ، 2003
- **الفكاهة في الأدب الأندلسي** : رياض قزيحة ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ط1 ، بيروت ، 1998
- **فن المقامات بالأندلس** : قصي الحسيني ، دار الفكر ، عمان ،ط1،1999
- **الفن و مذاهبه في النثر العربي** : شوقي ضيف ، دار المعارف، ط6 ، مصر ، دت
- **فهرسة ابن خير الإشبيلي :** أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي الأموي ، تـــــح : محمد فؤاد منصور ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 1998
- **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام** : طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي بيروت ، ط2 ،الدار البيضاء ، 2000
- **في الأدب الأندلسي – بحوث في نقد الخطاب الإبداعي** : أشرف محمود نجا ، دار الوفاء ،ط1 ، الإسكندرية ، 2006
- **في الأدب الأندلسي** : محمد رضوان الداية – دار الفكر المعاصر ، لبنـــان ، دار الفكر ، ط1 ، دمشق ، 2000
- **قراءة النص و جماليات التلقي** : محمود عباس عبد الواحد ، دار الفكر العربي ط1 ، القاهرة ، 1976
- **القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي اليانعة** : عبد الله أنيس الطباع دار ابن زيدون ، ط1 ، لبنان ، 1986
- **كتاب الصناعتين** : أبو هلال العسكري ، تح : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ط1 ، بيروت ، 1984
- **لسان العرب** : ابن منظور ، دار صادر ،ط3 ، بيروت ، 1994

- **اللطف و المنة في مفاخرات فواكه الجنة :** شمس الدين بن المحب ، تح: محمد الششتاوي ، دار الآفاق العربية ، ط1 ، القاهرة ، 1999
- **اللفظ و المعنى في التفكير النقدي عند العرب** : الأخضر جمعي ،منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001
- **المثقفون في الحضارة العربية : محنة ابن حنبل و نكبة ابن رشد:** محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2 ،بيروت ، 2000
- **محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء** : الراغب الأصبهاني ، دار مكتبة الحياة ، لبنان . دط ، دت
- **محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية** : محمد أبو زهرة – مطبعة المدني ، مصر . دط ، دت
- **محاورات مع النثر العربي** : مصطفى ناصف ، عالم المعرفة ، الكويت ، دط ، دت
- **المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري** : مصطفى الهروس ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المغرب ،1997
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** : ابن فضل الله العمري ، تح : محمد خريسات،عصام هزايمة ، يوسف ياسين ، مركز زايد للتراث و التاريخ الإمارات المتحدة . دط ، دت
- **المستطرف في كل فن مستظرف** : شهاب الدين الأبشيهي – تح : عبد الله أنيس الطباع ، دار العلم ، بيروت . دط ، دت
- **مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب و الأندلس** : أحمد مختار عبادي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1983

- **المطرب من أشعار أهل المغرب** : أبو الخطاب عمر بن دحية الكلبي ، شرح : صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، ط1 ، لبنان ، 2008
- **مطمح الأنفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** : أبو نصر الفتـــح بن خاقان – تح : محمد علي شوابكة ، دار عمار ،ط1 ، مؤسسة الرسالة ، 1983
- **مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر** : أحمد محمد الطوخي ، تقديم : أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية 1997
- **مع شعراء الأندلس و المتنبي** : إيمليو غرسية غومث – تعريب : أحمد الطاهر مكي ، دار المعارف ، ط2 ،مصر، 1978
- **المعارضات الشعرية ، أنماط و تجارب :** عبد الله التطاوي ، دار قباء ، القاهرة ، 1998
- **المعارضات في الشعر الأندلسي** : إيمان السيد ، عالم الكتاب الحديث ، ط1 ، الأردن ، 2006
- **معارك أدبية** : عبد اللطيف شرارة ، دار العلم للملايين ،ط1 ،بيروت ، 1984
- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** : عبد الواحد المراكشي ، دار الكتب العلمية ط2 ، لبنان ، 2005
- **معجم البلدان** : ياقوت الحموي ، بيروت ، 1970
- **معجم مقاييس اللغة** : ابن فارس ، تح : عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبي ، ط2 ،القاهرة ، 1969
- **المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلـــــــس**

و **المغرب** : أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغرب و دار الغرب الإسلامية بيروت ، 1981

- **معيار العلم** : أبو حامد الغزالي ، تح : سليمان دنيا – دار المعارف بمصر ، دط دت

- **مفاخر البربر** : مؤلف مجهول ، تح : عبد القادر بوباية،دار أبي رقراق ط1 ، الرباط ، 2005

- **مفاخرة بين مكة المكرمة و المدينة المنورة** :محمد بن سليمان ، تح : محمد الشتاوي ، دار الآفاق العربية ، ط1 ، القاهرة ، 1999

- **المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة** : عز الدين المقدسي ، تح : محمد الشتاوي ، دار الآفاق العربية ،ط1، القاهرة،1999

- **المفردات في غريب القرآن** : الأصفهاني ، تح : محمد سيد الكيلاني ، دار المعرفة ، بيروت . دط ، دت

- **المقامات اللزومية** : أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي ، تح : حسن الوراكلي ،عالم الكتاب الحديث ، ط2، عمان ، 2006

- **مقامع الصلبان** : أحمد بن عبد الصمد الخزرجي ، تح : عبد المجيد الشرفي مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية ، تونس، دط ، دت

- **المقتطف من أزاهر الطرف** : ابن سعيد المغربي ، تح : سيد حنفي حسنين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984

- **مقدمة ابن خلدون** : عبد الرحمن بن خلدون : شرح و تقديم : محمد الإسكندراني دار الكتاب العربي ، لبنان ، 2006

- **المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكـــــم العربي** : محمد عويد الطربولي ،ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2005
- **ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية – تيارات الفكر في المغرب و الأندلس** جامعة عبد الملك السعدي ، تطوان ، 1993
- **ملوك الطوائف و نظرات في تاريخ الاسلام** : دوزي – ترجمة : كامل الكيلاني مطبعة عيسى الحلبي و شركاه ، مصر،1933
- **من أسرار التعبير في القرآن الفاصلة القرآنية** : عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1982
- **من المنظور الإسلامي** : محمد الكتاني ،ط1، دار الثقافة ، 1989
- **مناظرات الأذكياء و محاورة البلغاء بين المنافرات و المفاخرات** : سيد صديق عبد الفتاح – أوراق شرقية ،ط1، لبنان ، 1999
- **المناظرات الخيالية في أدب المشرق و المغرب و الأندلس** : رغداء ماريني دار الفكر ، ط1 ، دمشق ، 2008

- **المناظرة في الأدب العربي و الإسلامي** : حسين الصديق – مكتبة لبنان و القاهرة بيروت ، 2000
- **مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم و الباجي** : عبد المجيد التركي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ،لبنان ، 1986
- **المناظرة في أصول التشريع الإسلامي** : مصطفى الوظيفي ،مطبعة فضالة ، دط ، دت

- **مناظرة في الرد على النصارى** : فخر الدين الرازي ، تح : عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1986
- **المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي** : فتحي الدريني ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ط2 سوريا ، 1985
- **الموازنة بين الشعراء** : زكي مبارك ، دار الجيل ، ط1 ، بيروت، 1993
- **النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس** : علي بن محمد ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 / 1990
- **النثر الأندلسي في عصر الموحدين** : علي الغريب محمد الشناوي ، دار الكتب و الوثائق القومية ، ط1 ، القاهرة ، 2009
- **النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب** : عبد الحليم الهروط ، جامعة الحسن بن طلال ، دار جرير للشروق و التوزيع ، ط1/2006
- **نصارى نجران بين المجادلة و المباهلة** : أحمد علي عجيبة ، دار الآفاق العربية ،ط1 ، القاهرة ، 2004
- **نظرية القياس الأصولي** : سليمان داوود ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، دط ، دت
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** : أحمد بن محمد المقري - شرح و ضبط : مريم قاسم الطويل ، يوسف علي الطويل - دار الكتب العلمية ،ط1 ، لبنان ، 1995
- **الهجاء في الأدب الأندلسي** : فوزي عيسى ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط1 ، 2000
- **وشي الربيع بألوان البديع** :عائشة حسين فريد ، دار قباء ، القاهرة، دط ، دت

- **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان** : ابن خلكان – تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت . دط ، دت

-**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** : الثعالبي – تح : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ،ط1، لبنان ، 1983

مراجع أجنبية :

-Al-bayano ' L- mogrib . par : Ibn –Adhari (de maroc) . R.P.A.Dozy . Leyde , ceez E .J.Brill ,iprimeur de l universite 1848 .

-Chestomathia arabica , grammatica historica , Georg.Guil .Freytag Dr. Bonnae ad Rhenum .Venditur Lipsaie. Apud C . Cnobloch

-Geschichte der westlichen araber : marcus joseph muller , auf kosten der k.b.acadimie der wissenschaften in commission G.franz 1866 .

الأطروحات الجامعية :

- **الاتجاه الديني في الشعر الأندلسي على عهد الموحدين :** محمد صغير ، أطروحة ماجستير ، جامعة تلمسان ، 2009

- **جهود ابن حزم في جدال اليهود :** عماد جميل عبد الرحمن عبيد، الجامعة الإسلامية غزة ، 2007

- **الحوار في القرآن الكريم :** معن محمود عثمان ضمرة ، أطروحة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين 2005

المجلات :

-**مجلة الرافد**،دار الثقافة و الإعلام،الشارقـــــــــة،العدد 02 فبراير2010

- **مجلة الشريعة و القانون** ، كلية القانون ، جامعة الإمـــارات ، العدد 35 ، 2008

- **مجلة الموقف الأدبي**،اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، العدد 288 ،نيسان 1995 .

فهرس الموضوعات

مقدمة .....أ،ب،ج،د،هـ
مدخل : المناظرة : المفهوم و التطور.....1-13
الفصل الأول : المناظرات الدينية
المبحث الأول : مناظرات مذهبية 15
أ- مناظرات الباجي و ابن حزم 17
ب- ابن حزم و المعتزلة 24
ج- بين المالكية و الفاطميين 26
المبحث الثاني : مناظرات عقدية 30
أ- الحوار مع الآخر 31
*- رسالة الراهب الفرنسي إلى المقتدر بالله.....32
*- رد الفقيه أبي الوليد الباجي 34
*- حوار الششتري مع القسيس 39
*- مناظرة بين ابن رشيق و قسيس 42
*- مناظرة الشيخ ابن لب مع ذمي متحير 45
ب- الرد على الآخر 47
*- رد ابن حزم على ابن النغريلة 47
*- رد الخزرجي على القسيس القوطي و مناظرات مشابهة.....53
*- رد القرطبي على مزاعم النصارى و توهماتهم 57
*- الرد على شبهة الهندي 60
المبحث الثالث : مناظرات شعوبية 64
*- رسالة ابن غرسية 65
*- رد أبي يحي بن مسعدة على رسالة ابن غرسية.....68
*- رد أبي الطيب عبد المنعم القروي على الرسالة السابقة 69

المبحث الرابع : مناظرات الموريسكيين 71
*- مناظرة أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي 72
الفصل الثاني : مناظرات المدن و الأقاليم
المبحث الأول : مناظرات المدن 77
أ- مناظرة بين مدن الأندلس لصفوان بن إدريس 77
ب- مناظرة بين شاطبة و مرسية 82
ج- مناظرة بين مالقة و الحمراء 84
المبحث الثاني : مناظرات إقليمية 88
أ- رد ابن حزم على ابن الربيب 89
ب- تفضيل الشقندي للأندلس على عدوة المغرب.....93
ج - تفضيل مالقة على سلا لابن الخطيب 97
د- المفاضلة بين المشرق و المغرب الإسلامي لابن سعيد 101
الفصل الثالث : المناظرات الفلسفية و الأدبية
المبحث الأول : مناظرات فلسفية 108
أ- جهود الفلاسفة الأندلسيين 110
ب-رد ابن رشد على الغزالي 111
المبحث الثاني : مناظرات أدبية 120
*- المعارضات 120

الفصل الثاني : مناظرات المدن و الأقاليم

المبحث الأول : مناظرات المدن 77

أ- مناظرة بين مدن الأندلس لصفوان بن إدريس 77
ب- مناظرة بين شاطبة و مرسية 82
ج- مناظرة بين مالقة و الحمراء 84

المبحث الثاني : مناظرات إقليمية 88

أ- رد ابن حزم على ابن الربيب 89
ب- تفضيل الشقندي للأندلس على عدوة المغرب..... 93

ج - تفضيل مالقة على سلا لابن الخطيب 97

د- المفاضلة بين المشرق و المغرب الإسلامي لابن سعيد 101

الفصل الثالث : المناظرات الفلسفية و الأدبية

المبحث الأول : مناظرات فلسفية 108

أ- جهود الفلاسفة الأندلسيين 110

ب-رد ابن رشد على الغزالي 111

المبحث الثاني : مناظرات أدبية 120

*- المعارضات 120

*- مناظرة حول الترجيح بين الصابي و البديع 126

*- مناظرة بين الشعر و النثر للسرقسطي 128

*- رد الكاتب أبي الأصبغ ابن أرقم على ابن سيدة 130

*- رد البطليوسي على أبي بكر بن العربي 132

*- مناظرة نحوية 133

*- مناظرة ذات طابع فكاهي 136

الفصل الرابع : مناظرات الجمادات و النباتات

المبحث الأول : مناظرات بين الجمادات 142

أ- مناظرة السيف و القلم لابن برد..... 142

ب- مناظرات بين المباني 147

المبحث الثاني : مناظرات بين النباتات 151

أ- مناظرات الأزهار 151
*- تفضيل ابن برد للورد..... 154
*- رد أبي الوليد إسماعيل الملقب بحبيب على ابن برد..... 156
*- تفضيل البهار لأبي عمر بن الباجي 158
*- تفضيل أبي الفضل بن حسداي للنرجس 160
*- مساجلات شعرية في الانتصار للنواوير و الأزهار 162
ب – مناظرة بين النخلة و الكرمة لأبي حسن النباهي 166

الفصل الخامس : السمات الفنية

المبحث الأول : في الشكل و البناء 173
أ – الروافد التي أفادت منها المناظرة الأندلسية 173
*- الاقتباس 173
*- تأثر المناظرة الأندلسية بالفاصلة القرآنية 176
*- التضمين 178
ب- الجماليات الفنية 181
1-التشخيص 181
2-الرمز 184
3- السرد و القص 186
4-الأسلوب العاطفي 188
5-الإيقاع 190
6-المحسنات اللفظية و المعنوية 192
المبحث الثاني : في الفكرة و المضمون 197
*-إشارات تاريخية و حضارية 197
*-النزعة الدينية 199
*-إثبات الهوية الثقافية الأندلسية 201
*-الأبعاد السياسية 203
*-الإمكانات الأدبية و النقدية 204

الخاتمة 207
ثبت للمصادر و المراجع 212
فهرس الموضوعات 233